الأربعون
الحدثية

الشيخ الدكتور
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين





الأربعون الحدثية

بطاقة الكتاب

اسم الكتـــاب : الأربعون الحدثية
المؤلف : الشيخ د / جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
الناشـــر : شـركة الـسماحة للنـشر والتوزيـع الكويت

الصف والإخراج : مركز بدور للثقافة والترجمة

عدد الصفحـات :

عـدد المـلازم :

مقاس الكتـاب : ١٧× ٢٤

رقـم الإيـداع :



شركة السماحة للطباعة والنشر
والتوزيع ـ الكويت
ت/٩٩٥٥٧٤٧١
الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦
ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

الطبعة الثانية
١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

الأربعون الحدثية

الشَّيْخ الدُّكْتور:
جاسِمُ بْنُ محمد بن مُهَلْهِلِ الْيَاسِين

مؤسسة السماحة

الطبعة الثانية

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

تطلب مؤلفات الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

في الكويت من: شركة السماحة - الكويت.

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦

ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

في مصر من: بدور للثقافة والترجمة



إِلَىٰ **وَالِدَتِي مُنِيرَةَ**، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصيبٌ، فَقَدْ أنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيّ مُحَمَّد بْنِ عَبْدِ الله ﷺ .

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَىٰ الآخَرِينَ وإنْ أسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي المجَلَّدَاتِ وَكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَىٰ الإنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَىٰ الآخَرِينَ.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَىٰ فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنّ مَعَ كَثْرَةِ أمْرَاضِهَا.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِهَا - رَحِمَهَا اللهُ - بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنّي لأذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأصْدِقَاءِ عَنْ أمّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وَإِنّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنّي أَتَنَعَّمُ بالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإِنّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالممَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ - فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ - خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي - رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَىٰ. وَأَسْأَلُ الله - سُبْحَانَهُ - أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّىٰ بِالإِيذَاءِ، فَكَانَتْ لاَ تُؤْذِي أَحَداً وَلا شَيْئًا، حَتَّىٰ الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحّي بِصِحَّتِها وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إِلَىٰ وَالِدَتِي الَّتِي أَعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلاَ يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إنْ شَاءَ اللهُ.

إِلَىٰ وَالِدَتِي أَهْدِي ثَوَابَ هَذِهِ الرَّسَائِلِ، لَعَلّي أُؤَدّي زَفْرَةً مِنْ زَفَرَاتِهَا فِي وِلادَتِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ وَالِدِي – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ رَفِيقَةَ الدَّرْبِ أُمّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْنًا فِي صَبْرِهَا عَلَىٰ سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ أَوْلادِي جَمِيعًا، ذُكُوراً وَإِنَاثًا.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَىٰ كُلّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذَا الْكِتَابُ أَلاَّ يَنْسُونَا جَمِيعًا مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

****

الإهداءُ شعرًا

أمَّـــاهُ كُنْـتِ مُنِيـــرَةً وَمَنَـــارَةً ... عُلْيَـا وَصَـــرْحـاً ثابـتَ الأَرْكَـانِ

قَـدْ كُنْـتِ مَدْرَسَـةً تُعِـدُّ نُفُوسَنَـا ... لِـصَنَائِعِ المَعْـــرُوفِ وَالإِحْـسَانِ

قـــدْ كُنْـتِ لِلأَيْتَـــامِ أُمَّـــا بَـــرَّةً ... وَالجَـارِ وَالمِـسْكِينِ أَرْأَفَ حَـانِ

أَرْضَعْتِنَا الأَخْـلاق شَـهْدَاً سَلْسَلاً ... تَــدْنُو ثِمَـــارُ قُطُـوفِهَــا لِلْجَــانِي

عَلَّمْتِنَــا الـصَّبْرَ الجَـمِيلَ خَـلِيقَةً ... وَالقَـوْلَ لِلحُـسْنَىٰ وَكَـفَّ لِـسَانِ

* * *

أبَتَـــاهُ قَـــدْ رَبَّيْتَنِـــي وَأَحَــطْتَنِي ... بِرِعَـايَـــةٍ فِـــي غِبْطَـــةٍ وَأَمَـــانِ

وَفَّـرْتَ أَسْبَابَ الـسَّعَادَةِ وَالهَنَـا ... فَجَعَلْتَنِـي أَسْمُـــو عَلَـىٰ الأَقْــرَانِ

فَجَزَاكَ رَبُّ العَـرْشِ خَيْـرَ جَزَائِـهِ ... وَأُسْـكِنْتَ فِـي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَـانِ

* * *

نَوَّرْتَ **يَا بَدْرَ** الدُّجَـا سُبُلَ العُـلا ... بالفَـــضْـلِ لاَ فَـــظٍّ وَلاَ مَنَّـــانِ

كَـمْ ذَا تُقَابِـلُ بِالـسُّـرورِ تَـدَلُّلِي ... بِمَحَبَّـــةٍ وَبِرَأْفَـــةٍ وَحَنَـــانِ

أَحْبَبْتَنِـــي قَـرَّبْتَنِـــي رَبَّيْتَنِـــي ... بالعِــزِّ فِـي ثِقَــةٍ وَفِــي اطْمِئْنَـانِ

* * *

أَرفيقَتِي كُنْتِ الشُّعَاعَ إِذا دَجَا ... لَيْلُ الحَيَاةِ بِمُظْلِمِ الحِدْثَانِ

قَدْ كُنْتِ خَيْرَ شَرِيكَةٍ وَمُعِينَةٍ ... فِي البِرِّ عِنْدَ تَقَاعُسِ الأَعْوَانِ

الصَّبْرُ فِيكِ مَعَ الوَفَاءِ سَجِيَّةٌ ... بِتَعَاقُبِ الأَفْرَاحِ وَالأَحْزَانِ

❊ ❊ ❊

يَا حَبَّذَا **أَفْلاذُ أَكْبَادٍ** بِهَا ... كَمُلَ المُرَادُ وَقَرَّتِ العَيْنَانِ

فَاحْفَظْ **مُعَاذاً** وَاحْفَظَنَّ **مُهَلْهِلاً** ... أَمَدَ الزَّمَانِ **وَعَابِدَ الرَّحْمَنِ**

لاَ زَالَ **عَبْدُ اللهِ** فِي حِفْظٍ وَلاَ ... زَالُوا جَمِيعاً غُرَّةَ الفِتْيَانِ

وَلْتَحْظَ **عَائِشَةُ وَفَاطِمَةُ** بِمَا ... قَدْ شَاءَتَا مِنْ بُغْيَةٍ وَأَمَانِ

وَاحْفَظْ **هَيَا وَمُنِيرَةً** يَا رَبَّنَا ... مِنْ مُبْطِنِ البَغْضَاءِ وَالشَّنَآنِ

❊ ❊ ❊

يَا رَبِّ لاَ زَالَ الجَمِيعُ بِنِعْمَةٍ ... وَقِهِمْ شُرُورَ الحَاسِدِ المِعْيَانِ

صَلَّىٰ الإِلهُ عَلَىٰ **النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ** ... وَالآلِ وَالأَصْحَابِ كُلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

❊❊❊❊

مقدمة

هذا مجموع أسميته بـ «**الأربعين الحدثية** » وهو على ما يشي به عنوانه، مجموعة مقالات متنوعة يبلغ تعدادها الأربعين، تجول في رحاب التاريخ الإسلامي منذ بعثة النبي ﷺ حتى وقتنا المعاصر.

ولما كان من المنطقي ألا تفي هذه المقالات الأربعون بمجموع أحداث تاريخنا الإسلامي الممتد عبر عصوره وقرونه الأربعة عشر، كان لزامًا علينا أن نجمل بعض هاتيك الأحداث إجمالاً، ثم إن الإجمال لم يفِ بها اتخذناه نهجًا لتعداد هذه الأحداث، فعمدنا إلى الاختيار، فاخترنا أحداثًا وتركنا أحداثًا وأحداثًا وأحداثًا!!

على أمل أن ما نختاره يمثل لغيره مما لم نختره..

منهجنا في البحث :

لعل القارئ الواعي المتصفح عَرَضًا لهذا الكتاب، والقارئ لبضعة أسطر منه، يدرك أنه لمن العسير أن يضبط هذا المجموع في منهج متناغم موحد منذ مطلعه حتى نهايته، ولم؟

أقول : لأنه التاريخ، وليس أي تاريخ، إنه التاريخ الإسلامي بشخصياته، ودوله، وقادته، إنه البحر اللُّجِّي الذي تعجز وريقات ـ وإن بلغت في عالم التصنيف مئين ـ أن تلم بجوانبه، وتقف على شرفة من شرفاته ، أو على ربوة من جوانبه. ومن ثم كان المنهج التوفيقي الذي يعتمد على الاختيار، والتوفيق بين أبعاض الأحداث لا لعرضها، فهذا نهج المؤرخين، ولست واحدًا منهم، وإنما عمدت إلى التوفيق على رسالة ما..!

سواء كانت بالإيجاب فيما سيأتي ذكره من أحداث رائقة وفائقة تستنهض همم العاملين في ساحة الدعوة، أو رسالة تحذير وإنذار من أن نقع فيما وقع فيه سلفنا إن كانت الحادثة أو الحدث أو الحديث، هو مقام هزيمة وصرعة للحق من الباطل وما أكثر هذه الصرعات!!

وعليه فقد جاء منهجنا التوفيقي على النحو الآتي:

١ ـ تقسيم مجموع الأحداث إلى ثلاثة أجزاء :

أ ـ جزء القادة.

ب ـ جزء المعارك والوقائع .

جـ ـ جزء الدول الإسلامية (قيامًا وسقوطًا).

٢ ـ اختيار الأحداث بدقة وعناية بناء على :

ـ قوة تأثير الحدث في مسيرة أمتنا الإسلامية منذ البعثة وحتى الآن، سواء بالصعود أو الهبوط.

ـ مدى ممارسة الحدث لواقعنا المعاصر وأحداثه بأن يكون بينهما تشابه بالسلب أو الإيجاب، إما في الصعود والرقي بالأمة، أو في خطورة الحدث على المسيرة الحضارية والفكرية لأمتنا ، اعتمادًا على أَنَّ سُنن الله لا تتغير ولا تتبدل، ولن تجد لسنتنا تحويلاً.

٣ ـ البدء بجزء القادة :

سعيًا للتنبيه على دور القيادة الخطير في مسيرة أمتنا، والبداية بسيد القادات وقائد السادات، سيدنا محمد ﷺ للدعوة إلى الاقتداء به ﷺ، ورفعًا لشعار «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، ثم الاختيار مباشرة من العصر العباسي حيث هارون الرشيد والمعتصم ـ على جلالة عصر الصحابة وعصر بني أمية ـ إلا أننا آثرنا الدخول مباشرة في العصر العباسي؛ نظرًا لاختلاط المشرق بالمغرب فيه، ولسيادة وتمدد دولة الإسلام بعد عصر الفتوح، ولأنه عصر التدوين الفعلي للعلوم الإسلامية، ولأنه العصر الذي انشقت عنه تجليات الأمة في تصوراتها الفكرية وخططها النظرية حتى الآن.

٤ ـ اللجوء إلى الوصف والسرد المنظم :

من خلال إعداد جداول جامعة للأحداث الجزئية ، وذلك من باب حسن العرض والتمهيد للحدث الكبير المقصود بعينه، أو من باب التعقيب على هذا الحدث الكبير المقصود، كما سيمر عليك ــ أخي القارئ ــ في أحداث عصر النبوة وما يتلوها من

الأحداث خاصة العثمانية والفلسطينية المعاصرة.

٥ ـ الاقتصار على ذكر أهم المراجع :

لأن هذه أحداث تاريخية متواترة الذكر في أمهات الكتب التاريخية القديمة والحديثة على السواء، مع الاعتماد على أهم هذه المراجع أو اعتماد المراجع الفردية كما في جزء الدول، حيث اعتمدنا على الدراسة الفذة للدكتور عبدالحليم عويس ـ رحمه الله ـ إضافة إلى غيرها، وإنما خصصت بعض هذه الدراسات بالنقل عنها؛ نظرًا لجدتها ولتوافق خطها التحليلي مع ما هدفنا إليه من ذلك المجموع.

هذا ولا يسعني إلا أن أقول : إن هذه محاولة عسيرة للدخول في بحر التاريخ الإسلامي اللُّجِّي لاستخلاص أربعين حدثًا بهدف العبرة والعظة والتاريخ . كما قال الله تعالى : { لَّقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ }[1] .

فإن وُفِّقْتُ إلى ذلك فمن الله ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي ومن الشيطان، وعسانا نستدرك النجاة من الغرق في بحر أحداث التاريخ.

والله المُوفِّق، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يوسف:١١١.

الباب الأول

الـقيــادة

الفصل الأول : القيادة النبوية المباركة.

الفصل الثاني : القيادة عند أبطال الإسلام الظافرين.

تمهيد

القيادةُ : كلمةٌ بارقة، تخطف الأضواء كثيرًا، وتثير الشعور أكثر ؛ نظرًا لفقدانها، وشدة حاجتنا إليها .

فوالله ما أحوجنا إلى قيادة حكيمة ؛ تأخذ بأيدينا ، وتكفكف آلامنا ، ويشفي الله بها صدور قوم مؤمنين .

ولطالما تشوفنا وتشوقنا وطمحنا ورغبنا في تحصيل تلك القيادة؛ حتى ليمكن أن يصح القول : إن صلاح هذه الأمة هو مبتدأ ومنتهى في قيادة حكيمة تقودها، وتخرج طاقتها، وتجمع نظمها، وتدفع بها إلى الصالح الأصلح، ومن ثَمَّ قيادة وريادة الآفاق .

وها نحن ذا نتحسس معًا في مبحثنا هذا ، شخصيات قيادية عدة لم نتعمد استقصاءها، ولم نقصد سرد أطراف سيرتها كلها، وإنما رحنا نتذكر أطرافًا، وإن شئت فقل: أحداثًا ذات دلالة عصرية لنا على سبيل التمثيل، ومن ثَمَّ جاءت هذه القيادات من محمد ﷺ - وأحرى بنا أن نقتدي برسول الله ﷺ قدوتنا الأولى وقبلتنا إلى الله، ثم طفقنا ذاكرين لقادة عدة من دول الإسلام التالية على عهد صدر النبوة كهارون والمعتصم، وغيرهما. عسانا أن نفيء عن جهالتنا ونرجع عن غينا، ونفتح لنداء الحق آذاننا، فهلموا نتعرف إلى تلك الأحداث وسيرة أولئك القادة..

وقد جاء ذكرها على النحو التالي :

الفصل الأول
القيادة النبوية الـمُباركة

القيادة النبوية المباركة

سيدنا محمد رسول الله ﷺ

القائد الرائد الهادي، سيد القادات، وقائد السادات، نصر الله به الإسلام وأعزه، وَخَلَّفَ لنا سُنَّة هى الضياء، وهو نبراس القيادة الحق لمن أراد قدوة، ومن أراد شكورًا، وحسبك قول الله عنه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ (١)، فهو قائد الغر المحجلين، وقدوة القادة المؤمنين إلى يوم الدين.

موجز عن رسول الله محمد ﷺ :

هنا يتوقف القلم كثيرًا، وتحار العقول، ويصيح صائح الفؤاد مناديًا بقول القائل:

وإنِّي لَتَعرُوني لِذِكْرَاكِ هِزَّةٌ   كما انتفضَ العصفورُ بلَّله الْقَطْرُ

والله، الله علينا، وحوالينا، ومن بين أيدينا، ومن خلفنا إذا ذكرنا القائد الرائد النبي الرسول خليل الله، وصفوة خلقه محمدًا ﷺ.

وبلا استطالة فهذا هو جهد المقل، وقليل الكثير عن القائد الأعظم محمد بن عبدالله ﷺ، وما قصدنا سرد سيرته ولا التعرف إليه ﷺ، وإنما قصدنا اغتراف حفنات من أحداث سيرته، وتبصر بعض المواقف الصعبة أو الجادة في حياته ﷺ، لنقتبس منها العظة والعبرة، وخاصة أن جماهير أعداء النبوة والإسلام قدمًا على عهد النبي ﷺ هم كما هم على عداوتهم ومواقفهم يتوارثونها صاغرًا عن صاغر، وصدق الله ـ عز وجل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (٢)، وقال ـ أيضًا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ (٣).

---

(١) المائدة: ١٥.

(٢) البقرة: ١٢٠.

(٣) البقرة: ٢١٧.

ولنبدأ بذكره ﷺ ، فلم يختلف أهل العلم والأنساب والأخبار وسائر العلماء بالأمصار في أنه ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم[١]، ولكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وفيما بين إبراهيم وسام بن نوح.

فأما عشيرته ﷺ ورهطه وبطنه الذي تميز به عن سائر بطون قريش، فهو ما ثبت بالأسانيد الحسان والطرق الصحاح في قوله ﷺ : «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم »[٢].

أما عن أهم الأحداث في حياته ﷺ : فإنما تبدأ ـ بعد نزول الوحي عليه ـ من هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة، ومن ثم فالهجرة هي الحدث الأول والأخطر في تاريخ رسالته ﷺ، فليكن البدء بها على سبيل الإيجاز :

هجرته ﷺ :

أذن الله له بالهجرة إلى المدينة يوم الاثنين، فخرج معه أبو بكر إليها، وكانت هجرته ﷺ إلى المدينة في ربيع الأول وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، وَقَدِمَ المدينة يوم الاثنين قريبًا من نصف النهار في الضحى الأعلى لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول[٣].

---

(١)ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. هذا ما لم يختلف فيه أحد من الناس، وقد روي من أخبار الآحاد عن النبي ﷺ أنه نسب نفسه كذلك إلى نزار بن معد بن عدنان. وما ذكرنا من إجماع أهل السير وأهل العلم بالأثر يغني عما سواه.

وانظر في نسب النبي محمد ﷺ : صفة الصفوة لابن الجوزي ط. دار الصفوة، مصر، الجزء الأول، والشمائل المحمدية، تحقيق: الشيخ الألباني، ط.المكتب الإسلامي، ودلائل النبوة للبيهقي، والسيرة النبوية لابن هشام، والروض الأنف للسهيلي... وغيرها الكثير والكثير.

(٢)أخرجه مسلم (٢٢٧٦)، والترمذي (٣٦٠٦)، عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

(٣)هذا قول ابن إسحاق، ثم قال هو وغيره: إذْ كانت بيعة العقبة حين بايعته الأنصار في أوسط أيام التشريق في ذي الحجة، وكان مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بعد العقبة بشهرين وليال، وخرج لإهلال ربيع الأول، وقدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة مضت منه. قال ابن إسحاق: وكان نزوله في بني عمرو بن عوف على سعد بن=

ثم ها هي ذي الأحداث تنثال بعد هجرته ﷺ ويمكن جمع شتاتها ولملمة أطرافها في الجدول المختصر على النحو التالي :

=خيثمة. وقال غيره: نزل في بني عمرو بن عوف يوم الإثنين ومكث عندهم إلى يوم الجمعة، ثم خرج من عندهم غداة يوم الجمعة على راحلته معه الناس حتى مر ببني سالم لوقت الجمعة فجمع بهم، وهي أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ بالمدينة، ثم ركب لا يحرك راحلته وهو يقول: «دعوها فإنها مأمورة»، فمشت حتى بركت في موضع مسجده الذي أنزله الله في بني النجار، فنزل عشية الجمعة سنة ثلاث وخمسين من عام الفيل، ومن مقدمه المدينة أرخ التاريخ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

١ـ حدث في أحداث

أول عشر سنين من الهجرة (حتى وفاة النبي ﷺ) [١]

السنة	الحدث
السنة الأولي	فيها هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فقدمها يوم الاثنين ضحى لاثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الأول، فنزل بها وبنى مسجدها. وفيها توفي البراء بن معرور أحد النقباء وأول من بايع النبي ﷺ بيعة العقبة، وأبو أمامة أسعد بن زرارة بالذبحة، وكان من سادة الأنصار ومن رؤسائهم الأبرار.
سنة اثنتين	كانت غزوة بدر [٢] يوم الجمعة سابع عشر من رمضان، فاستشهد من المسلمين أربعة عشر، وقتل من الكفار سبعون، فممن قتل من الكفار: أبو جهل المخزومي، وعتبة بن ربيعة وهما زعيما الجيش وكبيرا قريش، وشيبة أخو عتبة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف الجمحي، وعقبة بن أبي معيط، وهلك فيها أبو لهب، والمطعم بن عدي. وفيها فرض صيام رمضان، وفي شوال دخل النبي ﷺ بعائشة، وفيها توفي عثمان بن مظعون. وفيها حولت القبلة في وسط السنة، وفيها بنى علي بفاطمة

(١) اعتمدنا بالأساس في معظم هذه الأحداث على تاريخ الإسلام للذهبي، وعلى السيرة النبوية من فتح الباري لمحمد الأمين المختار، ط. الكويت ١٤١٨ هـ.

(٢) وسيأتي لنا حديث مفصل عنها في حدث مستقل بذاته.

	ـ رضي الله عنهما، وفيها ولد المسور بن مخرمة، وعبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم، والنعمان بن بشير.
سنة ثلاثة	في رمضان ولد الحسن بن علي، ودخل النبي ﷺ بحفصة في رمضان أيضًا، وزينب بنت جحش، وزينب بنت خزيمة العامرية أم المساكين، فعاشت عنده نحو ثلاثة أشهر وتوفيت، وفيها تزوج عثمان أم كلثوم بنت النبي ﷺ. وفي يوم السبت حادي عشر من شوال كانت وقعة أحد، فاستشهد يومئذ حمزة عم النبي ﷺ ومصعب بن عمير العبدري، وتتمة سبعين رجلاً ـ رضي الله عنهم.
سنة أربع	في صفر كانت غزوة بئر معونة، قال أنس: كانوا سبعين فقتلوا يومئذ[1]، قلت: منهم المنذر بن عمرو الساعدي أميرهم، ونافع بن بديل بن ورقاء، وعامر بن فهيرة، والحارث ابن الصمة، وحرام بن ملحان، وعروة بن أسماء السلمي، وقال غير أنس: كانوا أربعين وكان يقال لهم القراء، فاستشهدوا، ونزل فيهم قرآن ثم نسخ. وفيها غزوة بني النضير، ونزلوا صلحًا وجلوا إلى خيبر، وبعدها غزوة ذات الرقاع، ولقي النبي ﷺ جمعًا من غطفان فلم يكن قتال.
سنة خمس	في شوال حدثت غزوة الخندق، وهي غزوة الأحزاب، ولم يكن فيها إلا رمي بالنبل ومصابرة أكثر من عشرين يومًا، وخرج للمبارزة عمرو بن عبد ود، فبارزه علي رضي الله عنه وقتله،

(١) أخرجه البخاري (١٠٠٢)، ومسلم (٦٧٧)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وبعدها في عقبها كانت غزوة بني قريظة، ثم نزلوا بعد حصار خمسة وعشرين يومًا على حكم سعد بن معاذ فقتلت مقاتلتهم وكانوا ست مئة أو أزيد وسبيت ذراريهم، وبعدها توفي سيد الأوس سعد بن معاذ من سهم أصابه يوم الأحزاب. وفي شعبان تزوج النبيُّ ﷺ بجويرية بنت الحارث، وفيها على الصحيح غزوة بني المصطلق، وتسمى غزوة المريسيع فهزمهم النبي ﷺ وأصاب يومئذ جويرية، وفي مرجعهم من هذه الغزاة كان حديث الإفك وقيل: في سنة ست.	
في ذي القعدة خرج النبي ﷺ في ألف وأربع مئة معتمرين حتى نزلوا الحديبية وبايع أصحابه تحت الشجرة وصالح قريشا.	سنة ست
في صَفَر فتحت خيبر، واصطفى النبي ﷺ من السبي صفية بنت حيي بن أخطب وجعل عتقها صداقها، واستشهد من المسلمين بخيبر بضعة عشر رجلاً. وفي ذي القعدة كانت عمرة القضاء، قضاها المسلمون عن عمرة الحديبية، وفي رجوعهم بنى النبي ﷺ بميمونة بنت الحارث بسرف في ذي الحجة، ثم بعد أيام قدمت أم حبيبة بنت أبي سفيان من الحبشة ودخل بها النبي ﷺ.	سنة سبع
في جمادى الأولى وقعة مؤتة بقرب الكرك، فاستشهد أمراء الجيش الثلاثة وهم: زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله ﷺ، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة الخزرجي أحد النقباء ليلة العقبة، وقتل أيضًا من غير من سمي ثمانية	سنة ثمان

	أنفس، ثم أخذ الراية خالد بن الوليد من غير إمرة، فجال بها واستظهر على المشركين وتحيز بالمسلمين، وهي أول مشاهده في الإسلام. وفي رمضان في أواخره أو في وسطه كان فتح مكة، وفي شوال وقعة حنين، وكان النبي ﷺ في عشرة آلاف مقاتل أو أزيد فولَّى يومئذ المسلمون الأدبار، وثبت النبي ﷺ في طائفة، وتراجع المسلمون واستشهد يومئذ طائفة يسيرة، ثم سار النبي ﷺ فحاصر حصن الطائف بضعًا وعشرين ليلة ونصب عليها المنجنيق، ثم رحل عنها وأسلموا في العام المقبل، وقد استشهد على الطائف جماعة، وفيها توفيت أم أمامة زينب ابنة النبي ﷺ وأكبر بناته.
سنة تسع	في رجب غزوة تبوك، فسار النبي ﷺ بعد أن صلى قبل خروجه على النجاشي رضي الله عنه صلاة الغائب، وفي شعبان توفيت أم كلثوم بنت النبي ﷺ زوجة عثمان، وفيها قتل عروة ابن مسعود الثقفي قتله قومه إذ دعاهم إلى الإسلام. وبعد رجوع النبي ﷺ من تبوك توفي سهيل ابن بيضاء الفهري أحد السابقين الأولين وصلى عليه النبي ﷺ في المسجد، وعبدالله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، وصلى عليه النبي ﷺ وألبسه قميصه إكرامًا لولده[1]، وفيه نزلت: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [2]، ومات قتلاً ملك

(١) أخرجه البخاري (١٢٧٠)، ومسلم (٢٧٧٣)، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما.

(٢) التوبة : ٨٤ .

	الفرس شهر براز بن شيرويه، قتله أمراء الدولة، وملكوا عليهم بوران بنت كسرى.
سنة عشر	وتسمى سنة الوفود؛ لكثرة من وفد فيها من العرب المسلمين ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وفي ربيع الأول توفي إبراهيم ابن النبي ﷺ وهو ابن سنة ونصف. وحج النبي ﷺ حجة الإسلام، وحج معه من الصحابة مئة ألف أو يزيدون، حتى حج من لم يره قبلها ولا بعدها، ونالوا بذلك نصيبًا من الصحبة. وفي ذي الحجة ظهر الأسود العنسي الدجال الذي ادَّعى النبوة واستولى على اليمن إلى أن قتل في صفر من العام التالي.
سنة إحدى عشرة	تُوفِيَ سيد البشر أبو القاسم ﷺ في وسط نهار يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول، وغسل وكفن يوم الثلاثاء، ودخل الناس أفواجًا يصلون عليه ويخرجون، ودفن ليلة الأربعاء .

كم عدد غزوات النبي ﷺ ؟ :

هذه من دلائل عظمة الإسلام وقوته وريادته؛ إذ في تلك المدة القصيرة التي بعث فيها النبي محمد ﷺ لاح سيف الجهاد، وبرقت أزاهير النصر، وخفق في المشارق والمغارب لواء عزة الإسلام، وإعلانات النصر المبين ، وهكذا نيطت العزة في دين الله بعقد راية الجهاد : «وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا»[(١)]، فالله الله علينا.

أما عن عدد غزوات النبي ﷺ فيمكن تعدادها بحسب الروايات الآتية: ففي المسند، عن أحمد بن حنبل وغيره، عن وكيع عن أبيه وإسرائيل، عن أبي إسحاق قال: «سألت زيد

(١)ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٨٤٤٧)، وعزاه لابن مردويه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ابن أرقم كم غزا رسول الله ﷺ؟ قال: تسع عشرة غزوة، وغزوت معه سبع عشرة، وسبقني بغزوتين، واعتمر رسول الله ﷺ ثلاث عمر»[(١)]، وفي قول من جعله قارنًا في حجه أربع عُمَرٍ.

وهنا يتئد القلم، وينحسر المقال وندلف إلى مصاب الإسلام بفقد النبي محمد ﷺ.

مرضه ووفاته ﷺ:

بدأ برسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة في بيت ميمونة، ثم انتقل حين اشتد وجعه إلى بيت عائشة، وكان ﷺ قد ولد يوم الاثنين، ونبئ يوم الاثنين، وخرج من مكة مهاجرًا يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وقُبض ﷺ يوم الاثنين ضحى في مثل الوقت الذي دخل فيه المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، ودفن ﷺ يوم الثلاثاء وسط الليل ليلة الأربعاء[(٢)].

ذكر ابن إسحاق قال: «حدثتني فاطمة بنت محمد عن عمرة عن عائشة قالت: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي[(٣)] من جوف الليل ليلة الأربعاء[(٤)]، وصلى عليه عليٌّ والعباس ـ رضي الله عنهما ، وبنو هاشم، ثم خرجوا ، ثم دخل المهاجرون، ثم الأنصار ثم الناس يصلون عليه أفذاذًا لا يؤمهم أحد، ثم النساء والغلمان»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٤٩، ٤٤٧١)، ومسلم (١٢٥٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٦/ ٨٣).

(٣) المساحي: جمع مسحاة، والمسحة خرقة تُمسح بها الأرض أو السبورة أو نحوها، والمراد بها في الحديث: الفأس.

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٦٢، ٢٤٢، ٢٧٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (١١٨٣٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٤٠٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٥١٤) من طريق ابن إسحاق.

(٥) الاستيعاب لابن عبد البر (١/ ٤٧).

من مراثي الرسول ﷺ :

ومن أحسن ما رثي به قول عمته[١] :

لعمرك ما أبكى النبي لفقده	ولكن لما أخشي من الهرج آتيا
كأن على قلبي لذكر محمد	وما خفت من بعد النبي المكاويا
أفاطم صلي الله رب محمد	على جدث أمسى بيثرب ثاويا
فدى لرسول الله أمي وخالتي	وعمي وآبائي ونفسي وماليا
فلو أن رب الناس أبقي نبيا	سعدنا ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحية	وأدخلت جنات من العدن راضيا

وكان له ﷺ أسماء وصفات جاءت عنه في أحاديث شتى بأسانيد حِسَان، قال: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الذي ختم الله بي النبوة، وأنا العاقب فليس بعدي نبي[٢]، وأنا المقفى بعد الأنبياء كلهم[٣]، ونبي التوبة[٤]، ونبي الرحمة[٥]، ونبي الملحمة[٦]، ويروى «الملاحم»[٧]» جاء هذا كله في آثار شتى من وجوه صحاح، وطُرُقٍ حِسَان.

---

(١) هذه الأبيات لأروى بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، وليست لصفية بنت عبدالمطلب، انظر: ذخائر ذوي العقبى في مناقب ذوي القربى ص ٢٥٢، وسبل الهدى والرشاد ١١/ ٨٦، ١٢/ ٢٨٤ .

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٣٢، ٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤)، والترمذي (٢٨٤٠)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٥٩٠)، وأحمد (٤/ ٨٠) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه .

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٠٥)، عن مجاهد مرسلاً، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٣٢١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٥٥)، وأحمد (٤/ ٣٩٥)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء منها ما حفظنا، فقال: «أنا محمد وأحمد والـمُقفى والحاشر ونبي الرحمة»، قال يزيد ـ أحد رجال السند : «ونبي التوبة، ونبي الملحمة».

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٠٥)، عن مجاهد مرسلاً، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٣٢١).

(٦) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٠٥)، عن مجاهد مرسلاً، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٣٢١).

(٧) أخرجه أحمد (٥/ ٤٠٥)، والترمذي في الشمائل (٣٦٨)، عن حذيفة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٨٤): «رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة، وهو ثقة وفيه سوء حفظ».

٢ ـ حدث (النبي ﷺ والوثنيون)

الغـزوات والسـرايا قبـل بـدر [١]

استظل النبي ﷺ بظل سلاحه، وراح يجاهد في سبيل الله، ليبيد الله به الوثنية، وينصر به الحنفية، فكانت هذه الملاحم، وفيما يلي أحوال هذه السرايا بالإيجاز :

السرايا والغزوات	الحدث
سرية سيف البحر	في رمضان سنة ١ هـ ـ الموافق مارس سنة ٦٢٣م أمَّر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، يعترضون عيرًا لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاث مئة رجل. فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص، فالتقوا واصطفوا للقتال، فمشى مجدي ابن عمرو الـجُهَنيّ ـ وكان حليفًا للفريقين جميعًا ـ بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم

(١)انظر تفصيل ذلك في : تاريخ الإسلام للذهبي، والسيرة النبوية من فتح الباري ٦/ ٣٦٢ وما بعدها، ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ بالتحركات العسكرية فعلاً بعد نزول الإذن بالقتال، وكانت أشبه بالدوريات الاستطلاعية، وكان المطلوب منها:
ـ الاستكشاف والتعرف إلى الطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة.
ـ عقد المعاهدات مع القبائل التي كانت مساكنها على هذه الطرق.
ـ إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم.
ـ إنذار قريش عُقبَى طيشها، حتى تفيق من غَيِّها الذي لا يزال يتوغل في أعماقها، عَلَّها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معايشها فتجنح إلى السلم، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين في عقر دارهم، وعن الصد عن سبيل الله، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين في مكة، حتى يصير المسلمون أحراراً في إبلاغ رسالة الله في ربوع الجزيرة.

	فلم يقتتلوا. وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ، وكان أبيضَ، وحمله أبو مرثد كَناز بن حصين الغَنَوي[١].
سرية رابغ	في شوال في السنة الأولى من الهجرة، الموافق إبريل سنة ٦٣٢م، بعث لها رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب رضي الله عنه في ستين رجلاً من المهاجرين، فلقي أبا سفيان ـ وهو في مئتين ـ على بطن رابغ، وقد ترامى الفريقان بالنبل، ولم يقع قتال. وفي هذه السرية انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين، وهما: المقداد بن عمرو البهراني، وعتبة بن غزوان المازني، وكانا مسلمين خرجا مع الكفار ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين، وكان لواء عبيدة أبيضَ، وحامله مسطح ابن أثاثة بن المطلب بن عبد مناف[٢].
سرية الخرار	في ذي القعدة سنة ١ هـ، الموافق مايو سنة ٦٢٣م، بعث لها رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في عشرين رجلاً يعترضون عيرًا لقريش، وعهد إليه ألا يجاوز الخرار، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار، ويسيرون بالليل، حتى بلغوا الخرار صبيحة خمس، فوجدوا العير قد مرت بالأمس، وكان لواءُ سعدٍ ڤ أبيض، وحمله المقداد بن عمرو رضي الله عنه[٣].
غزوة الأبواء أو ودان	في صفر سنة ٢ هـ، الموافق أغسطس سنة ٦٢٣م، خرج رسول الله ﷺ فيها بنفسه في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة يعترض عيرًا لقريش، حتى بلغ« ودَّان » فلم يلق كيدًا

(١)السيرة النبوية ، لابن هشام (٣/ ١٤٠) .
(٢)المرجع السابق (٣/ ١٣٦) من قول ابن إسحاق .
(٣)المرجع السابق (٣/ ١٤٥) من قول ابن إسحاق.

	واستخلف فيها على المدينة سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفي هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشي الضمري، وكان سيد بني ضمرة في زمانه، وهذا نص المعاهدة: «هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبني ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله ما بلَّ بحر صوفة [1]، وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنصره أجابوه». وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وكان اللواء أبيضَ وحامله حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [2].
غزوة بواط	في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣م، خرج فيها رسول الله ﷺ في مئتين من أصحابه، يعترض عيرًا لقريش فيها أمية بن خلف الجمحي ومئة رجل من قريش، وألفان وخمس مئة بعير، فبلغ بواطا من ناحية رضوى ولم يلق كيدًا. واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ ۋ، واللواء كان أبيضَ، وحامله سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [3].
غزوة سفوان	في شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ، الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣م، أغار كرز بن جابر الفهري في قوات خفيفة من المشركين على مراعي المدينة، ونهب بعض المواشي، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته، حتى بلغ واديًا يقال

(١)معناها: ما بقي في البحر المحيط مقدار من الماء يبل قطعة من القطن، وهي كناية عن الثبات.
(٢)السيرة النبوية ، لابن هشام (٣/ ١٣٥) من قول ابن إسحاق.
(٣)الطبقات الكبرى، لابن سعد (٢/ ٨).

	له: سفوان من ناحية بدر، ولكنه لم يدرك كرزًا وأصحابه، فرجع من دون حرب، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى، واستخلف في هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة رضي الله عنه، وكان اللواء أبيضَ، وحامله علي بن أبي طالب رضي الله عنه(١).
غزوة ذي العشيرة	في جمادى الأولى، وجمادى الآخرة سنة ٢ هـ، الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣م، خرج فيها رسول الله ﷺ في خمسين ومئة، ويقال : في مئتين، من المهاجرين ولم يكره أحدًا على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيرًا يعتقبونها، يعترضون عيرًا لقريش ذاهبة إلى الشام، وقد جاء الخبر بوصولها من مكة، فيها أموال لقريش، فبلغ ذا العشيرة، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام، فصارت سببًا لغزوة بدر الكبرى. وكان خروجه ﷺ في أواخر جمادى الأولى، ورجوعه في أوائل جمادى الآخرة على ما قاله ابن إسحاق، ولعل هذا هو سبب اختلاف أهل السير في تعيين شهر هذه الغزوة. وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة، واستخلف على المدينة في هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي رضي الله عنه، وكان اللواء أبيضَ، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه(٢).

(١)السيرة النبوية ، لابن هشام (٣/ ١٤٥، ١٤٦)، وسُبل الهدى والرشاد (٤/ ١٦).
(٢)السيرة النبوية، لابن هشام (٣/ ١٤٣)، وسُبل الهدى والرشاد (٤/ ١٧) .

شرية نخلة	في رجب سنة ٢ هـ، الموافق يناير سنة ٦٢٤م، بعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش وكتب له كتابًا، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، فسار عبد الله ثم قرأ الكتاب بعد يومين، فإذا فيه : «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم ». فقال : سمعًا وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك، وأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فنهضوا كلهم، غير أنه لما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا في طلبه. وسار عبد الله بن جحش ؓ حتى نزل بنخلة، فمرت عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة، وفيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة، فتشاور المسلمون وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم اجتمعوا على اللقاء، فرمى أحدهم عمرًا بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم وأفلت نوفل، ثم قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة، وقد عزلوا من ذلك الخمس، وهو أول خمس كان في الإسلام، وأول قتيل في الإسلام، وأول أسيرين في الإسلام، وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه، وقال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر

الحرام» ، وتوقف عن التصرف في العير والأسيرين. ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله، وكثر في ذلك القيل والقال، حتى نزل الوحي حاسمًا هذه الأقاويل ومبينًا أن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾[1] .

فقد صرح هذا الوحي بأن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مسوِّغَ لها، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام، واضطهاد أهله، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم ؟ فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة ؟

لا جرم أن الدعاية التي أخذ ينشرها المشركون دعاية تبتني على وقاحة، وبعد ذلك أطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين، وأدّى دية المقتول إلى أوليائه[2].

---

(١)البقرة : ٢١٧ .

(٢)السيرة النبوية، لابن هشام (٣/ ١٤٦ ـ ١٤٩)، والسنن الكبرى للنسائي (٨٨٠٣)، وعزاه الصالحي في سبل الهدى والرشاد (٦/ ١٧) للطبراني بسند حسن عن زر بن حبيش ـ رحمه الله تعالى .

٣ ـ حدث
فرض القتال على المسلمين [(١)]

تلكم السرايا والغزوات قبل بدر، لم يجر في واحدة منها سلب الأموال وقتل الرجال إلا بعد ما ارتكبه المشركون فيما حدث بقيادة كرز بن جابر الفهري في إغارته على المدينة، فالبداية إنما هي من المشركين مع ما كانوا قد أتوه قبل ذلك من الأفاعيل.

وبعد وقوع ما وقع في سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه تحقق خوف المشركين وتجسد أمامهم الخطر الحقيقي، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه، وعلموا أن المدينة في غاية من التيقظ والتربص، تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاث مئة ميل تقريبًا، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم، ويأخذوا أموالهم، ويرجعوا سالمين غانمين، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم، لكنهم بدل أن يفيقوا من غيهم، ويأخذوا طريق الصلاح والموادعة ـ كما فعلت جهينة وبنو ضمرة ـ ازدادوا حقدًا وغيظًا، وصمم صناديدهم وكبراؤهم على ما كانوا يتوعدون ويهددون به من قبل : من إبادة المسلمين في عقر دارهم، وهذا هو الطيش الذي جاء بهم إلى بدر.

أما المسلمون : فقد فرض الله عليهم القتال بعد وقعة سرية عبد الله بن جحش في شهر شعبان سنة ٢ هـ، وأنزل الله في ذلك آيات بينات :

قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [(٢)].

---

(١) انظر عن تشريع الجهاد وتفاصيله في: السيرة النبوية من فتح الباري ٦/ ٣٥٩ وما بعدها.
(٢) البقرة : ١٩٠ ـ ١٩٣ .

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر، يعلمهم فيها طريقة القتال، ويحثهم عليه، ويبين لهم بعض أحكامه : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾[(١)].

ثم ذم الله الذين طفقت أفئدتهم ترجف وتخفق حين سمعوا الأمر بالقتال : ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾[(٢)].

وإيجاب القتال والحض عليه، والأمر بالاستعداد له هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال، ولو كان هناك قائد يسبر أغوار الظروف؛ لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارئ، فكيف بالرب العليم المتعال،فالظروف كانت تقتضي عراكًا داميًا بين الحق والباطل، وكانت وقعة سرية عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحميتهم، آلمتهم وتركتهم يتقلبون على مثل الجمر.

وآيات الأمر بالقتال تدل بفحواها على قرب العراك الدامي، وأن النصر والغلبة فيه للمسلمين نهائيًا، انظر كيف يأمر الله المسلمين بإخراج المشركين من حيث أخرجوهم، وكيف يعلمهم أحكام الجند المتغلب في الأسارى والإثخان في الأرض حتى تضع الحرب أوزارها، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين نهائيًا، ولكن ترك كل ذلك مستورًا حتى يأتي كل رجل بما فيه من التحمس في سبيل الله[(٣)].

---

(١) محمد : ٤ ـ ٧ .

(٢) محمد : ٢٠ .

(٣) وفي هذه الأيام ـ في شعبان سنة ٢ هـ/ فبراير ٦٢٤ م ـ أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا صفوف المسلمين لإثارة البلبلة، انكشفوا عن المسلمين ورجعوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين من كثير من أهل الغدر والخيانة، وهنا إشارة لطيفة يشير إليها الأستاذ المباركفوري بقوله : « ولعل في تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد لاينتهي إلاَّ بعد احتلال المسلمين هذه القبلة، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد=

٤ ـ حدث

غـزوة بـدر الكـبرى[١]

أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

وكانت أشرف غزوة وأعظمها حرمة عند الله، وعند رسوله، وعند المسلمين، غزوة بدر الكبرى، حيث قتل الله صناديد قريش وأظهر دينه وأعزه من يومئذ، وكانت بدر في السنة الثانية من الهجرة لسبع عشرة من رمضان صبيحة يوم الجمعة، وليس في غزواته ﷺ ما يعدلها في الفضل أو يقرب منها إلا غزوة الحديبية، حيث كانت بيعة الرضوان، وذلك سنة ست من الهجرة، وكانت بعوثه وسراياه خمسًا وثلاثين بين بعثة وسرية.

سبب الغزوة :

سبق في ذكر غزوة ذي العشيرة أن عيرًا لقريش أفلتت من النبي ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام، فلما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال؛ ليقوما باستكشاف خبرها، فوصلا إلى الحوراء، ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير، فأسرعا إلى المدينة وأخبرا رسول الله ﷺ الخبر.

وكانت العير تحمل ثروات طائلة لكبار أهل مكة ورؤسائها : ألف بعير محملة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي، ولم يكن معها من الجند إلا نحو أربعين رجلاً،إنها فرصة ذهبية للمسلمين؛ ليصيبوا أهل مكة بضربة اقتصادية قاصمة، تتألم لها قلوبهم على مر العصور، لذلك أعلن رسول الله ﷺ قائلاً: « هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها؛ لعل الله ينفلكموها »[٢].

=أعدائهم، وإن كانت بأيديهم فعلاً فلابد من تخليصها يومًا ما إن كانوا على الحق. وبهذه الأوامر والإشارات زاد نشاط المسلمين، واشتد شوقهم إلى الجهاد في سبيل الله، ولقاء العدو في معركة فاصلة لإعلاء كلمة الله ».
[الرحيق المختوم، ص ١٨٣،دار الوفاء، المنصورة، مصر، ودار المنار، ط.الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(١)انظر عن غزوة بدر في : السيرة النبوية من فتح الباري، ص ٣٦٦ ـ ٤٢٣ ، والرحيق المختوم للمباركفوري.

(٢)أخرجه ابن إسحاق، كما في السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٥٢، ١٥٣)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ =

ولم يعزم على أحد بالخروج، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة؛ لأنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة ـ بدل العير ـ هذا الاصطدام العنيف في بدر؛ ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة، وهم يحسبون أن مضي رسول الله ﷺ في هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه في السرايا والغزوات الماضية؛ ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه في هذه الغزوة.

مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات :

واستعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً ـ ٣١٣، أو ٣١٤، أو ٣١٧ رجلاً ـ ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج، ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالا بليغًا، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة، فلم يكن معهم إلا فرس أو فرسان : فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي، وكان معهم سبعون بعيرًا يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وكان رسول الله ﷺ وعليّ ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيرًا واحدًا، واستخلف على المدينة وعلى الصلاة : ابن أم مكتوم، فلما كان بالروحاء رد أبا لبابة بن عبد المنذر، واستعمله على المدينة، ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب ابن عمير القرشي العبدري، وكان هذا اللواء أبيضَ.

وقسم جيشه إلى كتيبتين [(١)]:

١ ــ كتيبة المهاجرين : وأعطى رايتها عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ويقال لها : العُقاب.

٢ ــ كتيبة الأنصار : وأعطى رايتها سعدَ بن معاذٍ رضي الله عنه. وكانت الرايتان سوداوين.

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو ـ وكانا هما الفارسين الوحيدين في الجيش كما سبق ـ وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة، وظلت القيادة العامة في يده ﷺ كقائد أعلى للجيش.

= ١٨٣ ـ ١٨٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣١، ٣٢)، عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما، وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة، ص ٢١٨، وانظر: فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ١/ ٢١٨، دار القلم، دمشق، ط٧ سنة ١٩٩٨م.

(١)فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ١/ ٢١٩ .

وسار رسول الله ﷺ في هذا الجيش ـ غير المتأهب ـ فخرج من نقب المدينة ومضى على الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة، حتى بلغ بئر الروحاء، فلما ارتحل منها ترك طريق مكة إلى اليسار، وانحرف ذات اليمين على النازية يريد بدرًا، فسلك في ناحية منه حتى جزع واديًا[1] يقال له : رحقان. بين النازية وبين مضيق الصفراء، ثم مر على المضيق، ثم انصبَّ منه حتى قرب من الصفراء، ومن هنالك بعث بسبس بن عمرو الجُهنيِّ وعدي بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر يتحسسان له أخبار العير.

النذير في مكة :

وأما خبر العير فإن أبا سفيان بن حرب ـ وهو المسؤول عنها ـ كان على غاية من الحيطة والحذر، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار، وكان يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان، ولم يلبث أن نقلت إليه استخباراته بأن محمدًا ﷺ قد استنفر أصحابه ليوقع بالعير، وحينئذ بعث أبو سفيان ضمضمَ بن عمرو الغفاري إلى مكة مستصرخًا لقريش بالنفير إلى عيرهم؛ ليمنعوه من محمد ﷺ وأصحابه.

وخرج ضمضم سريعًا حتى أتى مكة فخرج ببطن الوادي واقفًا على بعيره، وقد جدع أنفه وحول رحله، وشق قميصه، وهو يقول : يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد تعرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها: الغوث، الغوث.

فجاءت قريش بِقَضِّها وقضيضها في عتادها وزهوها. فكان ما كان من أمر الله، بأن انتصر المسلمون نصرًا مظفرًا، ودوت صيحة النصر في أرجاء الجزيرة العربية، وأعان الله المسلمين وأغاثهم بالملائكة مسوِّمين، ودحر الكفر وأهله خائبين[2].

---

(١) جزع الوادي: أي قطعه عرضًا ، المعجم الوسيط (جزع).س

(٢) لم نشأ الإطالة في تفاصيل المعركة ؛ لأننا أردنا عرض الحدث لا سرد الحديث.

٥ ـ حدث

النبـي ﷺ واليهـود (١)

غـزوة بني قينقـاع

إنه عداء ظاهر بيّن، ولست أريد أن أقول إنه ضارب في القدم، ولكن هكذا كان، فمنذ البداية الأولى للدعوة وهجرة النبي ﷺ نَاصَبَهُ اليهود العداء، حيث حاولوا قتله غيلة وبكل حيلة، غير أن الله نصره عليهم نصرًا مؤزرًا ، وهذه نبذة عن مواقع ومشاهد لكيد اليهود للنبي محمد ﷺ وكيف تغلب عليها، ولنا في رسولنا ﷺ العبرة في زمنٍ عشنا فيه ظلامات اليهود وطوقنا فيه بأسهم!!

عاهد النبي ﷺ اليهود وصدق ما عاهدهم عليه ، بل كان حريصًا كل الحرص على تنفيذ ما جاء في هذه المعاهدة. وفعلاً لم يأت من المسلمين ما يخالف حرفًا واحدًا من نصوصها، ولكن اليهود الذين ملؤوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود، لم يلبثوا أن تمشّوا مع طبائعهم القديمة، وأخذوا في طريق الدس والمؤامرة والتحرش وإثارة القلق والاضطراب في صفوف المسلمين. وهاك مثلاً من ذلك :

نموذج من مكيدة اليهود:

عدو الله شاس بن قيس : قال ابن إسحاق : مر شاس بن قيس ـ وكان شيخًا «يهوديًا » قد عسا، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم ـ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج ـ في مجلس قد جمعهم ـ يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية.

(١)انظر: قيام الدولة الإسلامية الأولى بالمدينة، وانظر عن غزوة خيبر ونماذج من كيد اليهود للنبي ﷺ، ص ١٨٦، ٢٠٩ وغيرها د.أحمد مصطفى الصغير، ط دارالفتح، الفيوم ١٩٩٦م، وانظر: زاد المعاد، لابن قيم الجوزية ٢/ ١٣٣، ١٣٧ط.بيروت.

فقال : قد اجتمع ملأ بني قَيْلَةَ بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتىً شابًا من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعَاث وما كان من قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الْحَيَّيْنِ على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعَة ـ يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم ـ وغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة: الحَرَّة ـ السلاح السلاح، فخرجوا إليها (وكادت تنشب الحرب).

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : « يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم؟! »[1].

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس.

هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والفتن في المسلمين، وإقامة العراقيل في سبيل الدعوة الإسلامية، وقد كانت لهم خطط شتى في هذا السبيل، فكانوا يبثون الدعايات الكاذبة، ويؤمنون وجه النهار، ثم يكفرون آخره؛ ليزرعوا بذور الشك في قلوب الضعفاء، وكانوا يُضَيِّقُونَ سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالي، فإن كان لهم عليه دين يتقاضونه صباح مساء، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل، ويمتنعون عن أدائه، وكانوا يقولون : «إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك، فأما إذ صبوت فليس لك علينا من سبيل».

---

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٣)، وابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٢٣)، عن زيد بن أسلم مرسلاً .

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر ، على رغم المعاهدة التي عقدوها مع رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يصبرون على كل ذلك؛ حرصًا على رشدهم، وعلى بسط الأمن والسلام في المنطقة.

بنو قَيْنُقَاع ينقضون العهد :

لكن بني قينقاع لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصرًا مؤزرًا في ميدان بدر، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة في قلوب القاصي والداني، تميزت قُدُرُ[1] غيظهم، وكاشفوا بالشر والعداوة، وجاهروا بالبغي والأذى.

وكان أعظمهم حقدًا وأكبرهم شرًا : كعب بن الأشرف ـ وسيأتي ذكره ـ كما أن شر طائفة من طوائفهم الثلاث هم يهود بني قينقاع، كانوا يسكنون داخل المدينة ـ في حي باسمهم ـ وكانوا صاغة وحدادين وصناع الظروف والأواني، ولأجل هذه الحرف كانت قد توافرت لكل رجل منهم آلات الحرب، وكان عدد المقاتلين فيهم سبع مئة، وكانوا أشجع يهود المدينة، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود.

فلما فتح الله للمسلمين في بدر اشتد طغيانهم ، وتوسعوا في تحرشاتهم واستفزازاتهم، فكانوا يثيرون الشغب، ويتعرضون بالسخرية، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين حتى أخذوا يتعرضون لنسائهم.

وعندما تفاقم أمرهم واشتد بغيهم، جمعهم رسول الله ﷺ فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدى، وحذرهم مغبة البغي والعدوان، ولكنهم ازدادوا في شرهم وغطرستهم.

روى أبو داود وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «لما أصاب رسول الله ﷺ قريشًا يوم بدر وقدم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال: « يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا »، قالوا : يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم

(١) قُدُر: جمع : قِـدْر.

تلق مثلنا، فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾ (١)، (٢).

كان في معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان السافر عن الحرب، ولكن كظم النبي ﷺ غيظه، وصبر المسلمون، وأخذوا ينتظرون ما تتمخض عنه الليالي والأيام.

وازداد اليهود - من بني قينقاع - جرأة، فقلما لبثوا أن أثاروا في المدينة قلقًا واضطرابًا، وسعوا إلى حتفهم بظلفهم، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة.

روى ابن هشام عن أبي عون : أن امرأة من العرب قدمت بجَلَبٍ لها، فباعته في سوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ، فجعلوا يراودونها على كشف وجهها، فأبت، فَعَمَد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها - وهي غافلة - فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله - وكان يهوديًا - فشدَّ اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع (٣). والله الله فيما يصنع اليهود الآن في إخواننا في فلسطين ولا سيما في غزة.

الحصار ثم التسليم ثم الجلاء:

وحينئذ عِيلَ (٤) صبر رسول الله ﷺ فاستخلف على المدينة أبا لُبابة بن عبدالمنذر، وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب، وسار بجنود الله إلى بني قينقاع، ولما رأوه تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم أشد الحصار، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢ هـ، ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، وقذف الله في قلوبهم

---

(١) آل عمران : ١٢ ، ١٣ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣٠٠١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٨٣) عن ابن عباس - رضي الله عنهما، وضعفه الألباني.

(٣) أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية (٣/ ٣١٤)، وذكره الذهبي في تاريخ الإسلام (٢/ ١٤٦).

(٤) عيل : أي نفد، وشاهده أن النبي ﷺ أدرك أن اليهود نووا الغدر من غير رجعة فكان ما كان بإعمال فكره وتأييد الله له.

الرعب فهو ـ سبحانه ـ إذا أراد خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذفه في قلوبهم. فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا.

وحينئذ قام عبد الله بن أبيّ ابن سلول بدور نفاقه، فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم العفو، فقال :«يا محمد، أحسن فيهم» ـ وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج ـ فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فكرر ابن أُبَيٍّ مقالته فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درعه، فقال له رسول الله ﷺ : « أرسلني » وغضب حتى رأوا لوجهه ظُللاً، ثم قال: « ويحك، أرسلني » ولكن المنافق مضى على إصراره وقال: «لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مَوَالِيَّ، أربع مئة حاسر وثلاث مئة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة ؟ إني ـ والله ـ امرؤ أخشى الدوائر»[1].

وعامل رسول الله ﷺ هذا المنافق ـ الذي لم يكن مضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب ـ بالحسنى، فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أَذْرُعَات الشام، فَقَلَّ أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم.

وقبض رسول الله ﷺ منهم أموالهم، فأخذ منها ثلاث قِسِي ودرعين وثلاثة أسياف وثلاثة رماح، وخمس غنائمهم، وكان محمد بن مسلمة هو الذي تولى جمع الغنائم .

(١) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣١٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٧٤)، عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلاً .
وهذا هو المقصود من قول النبي ﷺ :«نصرت بالرعب مسيرة شهر».

٦ ـ حدث
عالـمية الدعــوة
ومكاتبـة الـملـوك والأمـراء

نعم نصيح ونصدح بأن العالمية هي صناعة إسلامية، فما من دين قبل محمد ﷺ إلا وهو دين لقوم النبي خاصة، خلا رسول الله ﷺ فإن رسالته عامة تامة إلى العالمين، والدلائل على ذلك كثيرة، وها هو ذا محمد رسول الله ﷺ يدرك تلك العالمية في الدعوة، فما إن يستقر له قرار، حتى يكاتب ملوك الأرض في عصره ويخاطبهم خطاب العزيز الواثق بنصر الله ، مراعيًا مقتضى زمانه وموقعه ومكانه، ساعيًا لكسب القلوب وإبلاغ وحي رب العالمين، وتلك ـ لعمر الله ـ عزة، وحدث جدير بأن ينوه به وإلى تعرف هذا الحدث وتبصر آفاقه، وما أحوجنا إلى تلك النهضة الدعوية في زماننا!

في أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له : إنهم لا يقرؤون كتابًا إلا وعليه خاتم، فاتخذ النبي ﷺ خاتمًا من فضة، نقشه : محمد رسول الله ﷺ وكان هذا النقش ثلاثة أسطر : « محمد رسول الله »(١)، واختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوك، وقد جزم العلامة المباركفوري أن النبي ﷺ أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خيبر بأيام، وفيما يلي نصوص هذه الكتب، وبعض ما تمخضت عنه.

الكتاب إلى النجاشي (٢) ملك الحبشة :

كتب إليه النبي ﷺ مع عمرو بن أمية الضَّمْرِي في آخر سنة ست أو في المحرم سنة سبع من الهجرة، وقد روي البيهقي عن ابن إسحاق نص هذا الكتاب، وهو:

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٠٦)، والترمذي (١٧٤٧)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) وهذا النجاشي اسمه: أصحمة بن الأبجر.

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد رسول الله إلى النجاشي، الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدي، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لاإله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الإسلام، فإني أنا رسوله فأسلم تسلم. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [١]. فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك»[٢]، [٣].

(١)آل عمران : ٦٤ .

(٢)أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٢٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٠٨) من قول ابن إسحاق.

(٣)وقد أورد المحقق الكبير الدكتور حميد الله ـ كما ذكر المباركفوري في الرحيق المختوم ـ نص كتاب قد عثر عليه في الماضي القريب ـ بمثل ما أورده ابن القيم مع الاختلاف في كلمة فقط ـ وبذل الدكتور في تحقيق ذلك النص جهدًا بليغًا، واستعان في ذلك كثيرًا باكتشافات العصر الحديث، وأورد صورته في الكتاب وهو هكذا :

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد : فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعو إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله ﷺ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبل نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى ».

وأكد الدكتور أن هذا هو نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي بعد الحديبية، أما صحة هذا النص فلا شك فيها بعد النظر في الدلائل، وأما أن هذا الكتاب هو الذي كتب بعد الحديبية فلا دليل عليه، والذي أورده البيهقي عن ابن إسحاق أشبه بالكتب التي كتبها النبي ﷺ إلى ملوك وأمراء النصارى بعد الحديبية، فإن فيه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾...إلخ، كما كان دأبه في تلك الكتب، وقد ورد فيه اسم الأصحمة صريحًا، وأما النص الذي أورده الدكتور حميد الله، فالأغلب أنه نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته، ولعل هذا هو السبب في ترك الاسم.

وهذا الترتيب ليس عندي ـ على ما قاله المباركفوري ـ عليه دليل قطعي سوى الشهادات الداخلية التي تؤيدها نصوص هذه الكتب. والعجب من الدكتور حميد الله أنه جزم بأن النص الذي أورده البيهقي عن ابن عباس هو نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته مع أن اسم أصحمة وارد في هذا النص صريحًا، والعلم عند الله.

إسلام النجاشي :

ولـما بَلَّـغَ عمـرو بـن أميـة الـضمري كتـاب النبـي ﷺ إلى النجـاشي أخـذه النجـاشي، ووضعه على عينه، ونزل عن سريره على الأرض، وأسلم عـلى يـد جعفـــر بـن أبي طالـب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكتب إلى النبي ﷺ بذلك، وهاك نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة، سـلام عليـك يـا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو، أما بعـد: فقـد بلغنـي كتابـك يـا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فـورب الـسماء والأرض إن عيـسى لا يزيـد عـلى مـا ذكرت ثـفـروقًـا[1]، إنـه كـما قلـت، وقـد عرفنـا مـا بعثـت بـه إلينـا، وقـد قربنـا ابـن عمـك وأصحابك، فأشهد أنك رسـول الله صـادقًا مـصدقًا، وقـد بايعتـك، وبايعـت ابـن عمـك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين »[2].

وكان النبي ﷺ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفرًا ومن معه من مهاجري الحبشة، فأرسلهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، فقدم بهم على النبي ﷺ وهو بخيبر.

وتوفي النجاشي هذا في رجب سنة تـسع مـن الهجـرة بعـد تبـوك، ونعـاه النبـي ﷺ يـوم وفاته، وصلَّى عليه صلاة الغائب، ولما مات وتخلف على عرشه ملك آخر كتـب إليـه النبـي ﷺ كتابًا آخر، ولا يُدرى هل أسلم أم لا ؟.

---

(١) ثفـروقًا : أصل الثفروق قمع البسرة والتمـرة، انظر: ترتيب إصلاح المنطق لابن الـسكيت، ص ١٠٠، وقيـل: الثفروق والتفروق علاقة ما بين النواة والقمع، ولبن مثفرق لم يرب بعد، وما له ثفروق أي ما له شيء، انظـر: المحيط في اللغة (٢/ ١٦).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ١٣١) مـن قـول ابـن إسـحاق، وكـذا ذكـره أبـو الربيـع الأندلـسي في الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٣٩٠).

مراسلة النبي ﷺ لولاة الروم

١ ـ الكتاب إلى المقوقس ملك مصر :

وكتب النبي ﷺ إلى جُرَيْج بن مَتَّى الملقب بالمُقَوْقِس ملك مصر والإسكندرية:

« بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط ، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [1]».

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بَلْتَعَة، فلما دخل حاطب على المقوقس قال له: «إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك».

فقال المقوقس: «إن لنا دينـاً لن ندعه إلا لما هو خير منه».

فقال حاطب: «ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فَقْدَ ما سِواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريشًا، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبي أدرك قومًا فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به».

فقال المقوقس: «إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى، وسأنظر»[١].

انظر إلى دقة العبارة عند الملوك ومنتهى الأدب والرجولة ..

أخذ المقوقس كتاب النبي ﷺ فجعله في حُقٍّ من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد : فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك »[٢].

ولم يزد على هذا ولم يسلم، والجاريتان مارية، وسيرين، والبغلة دُلْدُل، بقيت إلى زمن معاوية، واتخذ النبي ﷺ مارية سرية له، وهي التي ولدت له إبراهيم، وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصاري.

٢ ـ الكتاب إلى كسرى ملك فارس :

كتب النبي ﷺ إلى كسرى ملك فارس :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه ، فدفعه السهمي إلى عظيم البحرين، ولا ندري هل بعث به عظيم البحرين رجلاً من رجالاته، أو بعث عبد الله

(١)أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٣٤، ٢٦٠) عن عبدالحميد بن جعفر عن أبيه والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٩٦)، عن يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب عن أبيه عن جده حاطب بن أبي بلتعة . وانظر: زاد المعاد لابن القيم (١/ ١٢٢، ٣/ ٦٩١) .

(٢)انظر : المرجع السابق .

السهمي، وأيّا ما كان فلما قرئ الكتاب على كسرى مزقه، وقال في غطرسة : «عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي»، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: « مزق الله ملكه» ، وقد كان كما قال، فقد كتب كسرى إلى بَاذَان عامله على اليمن : ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به. فاختار باذان رجلين ممن عنده:

أحدهما : قهرمانه بانويه، وكان حاسبًا كاتبًا بكتاب فارس.

وثانيهما : خرخسرو من الفرس، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، فلما قدما المدينة، وقابلا النبي ﷺ .

قال أحدهما : إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره بأن يبعث إليك من يأتيه بك، وبعثني إليك لتنطلق معي، وقال قولاً توعده فيه، فأمرهما النبي ﷺ أن يلاقياه غدًا، وفي ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله، وأخذ الـمُلك لنفسه، وكان ذلك في ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحي، فلما غَدَوَا عليه أخبرهما بذلك. فقالا : هل تدري ما تقول ؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر، أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك. قال : « نعم أخبراه ذلك عني، وقولا له : إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى! وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له : إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك من الأبناء »[1] .

فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه، وقال له شيرويه في كتابه : انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك، فلا تهجه حتى يأتيك أمري. وكان ذلك سببًا في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه (٢/ ١٣٣، ١٣٤)، عن يزيد بن حبيب مرسلاً، وأخرجه البخاري (٦٤) عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مختصرًا.

٣ ـ الكتاب إلى قيصر ملك الروم :

روى البخاري [١] ـ ضمن حديث طويل ـ نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى ملك الروم هرقل، وهو هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [٢] ».

واختار لحمل هذا الكتاب دَحْيَة بن خليفة الكلبي رضي الله عنه وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر [٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما .

(٢) آل عمران : ٦٤ .

(٣) روى البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، كانوا تجارًا بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ معاهدًا فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسبًا، فقال : أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عليه. ثم قال: أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم ؟ فقلت: هو فينا ذو نسب، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت: لا. قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم. قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت: بل يزيدون. قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه : قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت: لا. قال : فهل يغدر ؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها . قال : ولم تمكنني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة ـ قال : فهل قاتلتموه؟ قلت : نعم. قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : (اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم)، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله ؟ فذكرت أن لا. قلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله =

ثـم دعـا قيـصر بكتـاب رسـول الله ﷺ فقـرأه، فلـما فـرغ مـن قـراءة الكتـاب ارتفعـت الأصوات عنده وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنـا، قـال : فقلـت لأصـحابي حـين أخرجنـا : «لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كَبْشَة، إنه ليخافه ملك بني الأصفر»، فما زلتُ موقناً بأمر رسـول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام.

هذا ما رآه أبو سفيان من أثر هذا الكتاب على قيصر، وقد كان من أثـره عليـه أنـه أجـاز دحية بن خليفة الكلبي، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وكسوة.

ثم تَبِعَتْ ذلك مراسلات إلى أتباع مملكتي فارس والروم[١] .

=لقلت : رجل يأتسي بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا. فقلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قـال ؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب عـلى النـاس، ويكـذب عـلى الله. وسـألتك : أشراف النـاس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهـم أتبـاع الرسـل. وسـألتك : أيزيـدون أم ينقـصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه بعـد أن يـدخل فيـه ؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك : هـل يغـدر ؟ فـذكرت أن لا، وكـذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: بماذا يأمر ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبـدوا الله، ولا تـشركوا بـه شـيئًا وينهـاكم عـن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًـا فـسيملك موضـع قـدمي هـاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقـاءه، ولـو كنـت عنده لغسلت عن قدميه.

(١) راجع : زاد المعاد (٣/ ٦٠٠)، وسبل الهدى والرشاد (١١/ ٣٥٤)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٥٠١).

الفصل الثاني
القيـادة عند أبطال الإسـلام الظـافـريـن

المبحث الأول
الجناية على هارون الرشيد

هو أكثر من تعرض تاريخه للتشويه والتزوير من خلفاء الإسلام، مع أنه من أكثر خلفاء الدولة العباسية جهادًا وغزوًا واهتمامًا بالعلم والعلماء، و بالرغم من هذا أشاعوا عنه الأكاذيب وأنه لا هَمَّ له سوى الجواري والخمر والسُّكر، ونسجوا في ذلك القصص الخرافية ومن هنا كان إنصاف هذا الخليفة واجب على كل مؤرخ مسلم.

من المؤرخين الذين أنصفوا الرشيد: أحمد بن خلكان الذي قال عنه في كتابه وفيات الأعيان: « كان من أنبل الخلفاء ، وأحشم الملوك ، ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي»[١].

وكتب التاريخ مليئة بمواقف رائعة للرشيد في نصرة الحق وحب النصيحة وتقريب العلماء ، لا ينكرها إلا جاحد أو مزور، ويكفيه أنه عرف بالخليفة الذي يحج عامًا ويغزو عامًا.

نسبه ومولده:

هو أبو جعفر هارون بن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي، كان مولده بالري حين كان أبوه أميرًا عليها وعلى خرا سان في سنة ثمان وأربعين ومئة وأمه أم ولد تسمى الخيزران، وهي أم الهادي، وفيها يقول مروان بن أبي حفصة:

يا خيزران هَنَاكِ ثم هَنَاكِ   أمسى يسوس العالمين ابناك

وبويع له بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي في ربيع الأول سنة سبعين ومئة، بعهد من أبيه المهدي[٢]،وروى الحديث عن أبيه وجده.

---

(١)انظر : سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٨٧)، ط.مؤسسة الرسالة، بيروت، ووفيات الأعيان لابن خلكان (ترجمة هارون الرشيد) ط.مصر.

(٢)وكان عمر الرشيد يومئذ اثنتين وعشرين سنة، فبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك فأخرجه من السجن، وكان=

وكان الرشيد أبيض طويلاً سمينًا جميلاً، وقد غزا الصائفة [١] في حياة أبيه مرارًا، وعقد الهدنة بين المسلمين والروم بعد محاصرته القسطنطينية، وقد لقي المسلمون من ذلك جهدًا جهيدًا وخوفًا شديدًا، وكان الصلح مع امرأة ليون وهي الملقبة «بأغسطه» على حمل كثير تبذله للمسلمين في كل عام، ففرح المسلمون بذلك، وكان هذا هو الذي شجع أباه على البيعة له بعد أخيه في سنة ست وستين ومئة. ثم لما أفضت إليه الخلافة في سنة سبعين كان من أحسن الناس سيرة وأكثرهم غزوًا وحجًا، ولهذا قال فيه أبو السعلي:

فَمَنْ يَطْلُبْ لِقَاءَكَ أَوْ يُرِدْهُ ... فَبِالحَرَمَيْنِ أَوْ أَقْصَى الثُّغُورِ

فَفِي أَرْضِ العَدُوِّ عَلَى طِمِرٍّ [٢] ... وفي أَرْضِ التَّرَفُّهِ فَوْقَ كُورِ [٣]

وَمَا حَازَ الثُّغُورَ سِوَاكَ خَلْقٌ ... مِنَ المُتَخَلِّفِينَ عَلَى الأُمُورِ

وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم، وإذا حج أحج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلاث مئة بالنفقة السابغة والكسوة التامة، وكان يحب التشبه بجده أبي جعفر المنصور إلا في العطاء، فإنه كان سريع العطاء جزيله، وكان يحب الفقهاء والشعراء ويعطيهم، ولا يضيع لديه بر ومعروف، وكان نقش خاتمه« لاإله إلا الله» وكان يصلي في كل يوم مئة ركعة تطوعًا، إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة.

=هو الذي قام خطيباً بين يديه حتى أخذت البيعة له على المنبر.ويقال: إنه لما مات الهادي في الليل جاء يحيى بن خالد بن برمك إلى الرشيد فوجده نائماً فقال: قم يا أمير المؤمنين.

(١)الصائفة: يقال: صافوا بمكان كذا واصطافوا وتصيفوا، وهذا مصيفهم ومصطفاهم ومتصيفهم، وأصافوا: دخلوا في الصيف، وهم مصيفون، وهذا بيت صيفي، وسقاهم الصيف: مطر الصيف، وهم يمتارون الصائفة ويغزون الصائفة، وهي الغزوة بالصيف، وقيل لغزو الروم: الصائفة، لأنهم كانوا يغزونهم صيفًا. [أساس البلاغة للزمخشري، مادة ص.ي.ف رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢)طمر : طمر نفسه إذا خبأها حيث لا يدري، والطمر الثوب الخَلِقُ، والجمع الأطمار، ومتاع مطمر: مرصوص بعضه على بعض، وأطمرت الفرس: إذا ركبتها من غير ركاب، وانصب عليه من طمار: أي من مكان مرتفع، والمطامر الأماكن المرتفعة، ومكان طمر ورقبة طمرة: أي عالية مرتفعة، وطمر الشيء تطميرًا: أي رفع فارتفع. [المحيط في اللغة، مادة طمر رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣)الكُور بالضم: الرحل بأداته، والكورة بوزن الصورة هي المدينة والصقع، والجمع: كُوَر. [مختار الصحاح، ص ٢٧٦ رَحِمَهُ اللَّهُ.

٧ ـ حدث
عـزة الإســلام
الرشـيد وكلـب الـروم « نقفـور »

تَبَصَّـرْ عزة الإسلام بالأمس، وذلتنا اليــوم. والرشيد يخاطب قائد أوربا الأعظم حينئذ بقولته: « من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم !».

في سنة تسعين ومئة جاء للرشيد كتاب من ملك الروم نقفور بنقض الهدنة التي كانت عقدت بين المسلمين وبين الملكة ريني ملكة الروم وصورة الكتاب:

«من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ [١] وأقامت نفسها مقام البيدق [٢] فحملت إليك من أموالها أحمالاً وذلك لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قِبَلَكَ من أموالها وإلا فالسيف بيننا وبينك».

فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبًا حتى ما تمكن أحد أن ينظر إلى وجهه فضلاً عن أن يخاطبه، وتفرق جلساؤه من الخوف، واستعجم الرأي على الوزير، فدعا الرشيد بدواة وكتب على ظهر كتابه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأتُ كتابك يا بن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ».

ثم سار ليومه فلم يزل حتى نزل مدينة هرقلة ، وكانت غزوة مشهورة وفتحًا مبينًا، فطلب نقفور الموادعة والتزم بخراج يحمله كل سنة.

---

(١) الرخ : طائر خرافي بالغ القدامى في وصفه، وقطعة من قطع الشطرنج، والجمع: رخاخ. والمراد به الملك في لعبة الشطرنج. [المعجم الوسيط، مادة «رخخ»] ﷺ.

(٢) البيدق : الدليل في السفر، والجندي الراجل، والجمع: بيادق، وبيادقة، ومنه بيدق الشطرنج، والبيدق العلم الكبير [المعجم الوسيط، مادة «باد»] ﷺ.

من أعماله في الخلافة:

حج غير مرة، وله فتوحات ومواقف مشهودة، ومنها فتح مدينة هرقلة.

خرج الرشيد في السنة التي ولي الخلافة فيها حتى غزا أطراف الروم وانصرف في شعبان فحج بالناس آخر السنة وفرَّق بالحرمين مالاً كثيرًا، وكان قد رأى النبي ﷺ في النوم فقال له: «إن هذا الأمر صائر إليك في هذا الشهر فاغز وحج ووسع على أهل الحرمين ففعل هذا كله»[١].

غزو الزنادقة:

وفي سنة سبعين ومئة تتبع الرشيد خلقًا من الزنادقة فقتل منهم طائفة كثيرة[٢]. وفي ذلك يقول داود بن رزين الشاعر:

بِهَارُونَ لاحَ النُّورُ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ   وَقَامَ بِهِ فِي عَدْلِ سِيرَتِهِ النَّهْجُ

إِمَامٌ بِذَاتِ اللهِ أَصْبَحَ شُغْلُهُ   وَأَكْثَرُ مَا يُعْنَى بِهِ الْغَزْوُ وَالْحَجُّ

تَضِيقُ عُيُونُ النَّاسِ عَنْ نُورِ وَجْهِهِ   إِذَا مَا بَدَا لِلنَّاسِ مَنْظَرُهُ البَلْجُ

وإن أَمِينَ اللهِ هَارُونَ ذَا النَّدَا   يُنِيلُ الذِي يَرْجُوهُ أَضْعَافَ مَا يَرْجُو

انتصاره لرسول الله ﷺ من عمه:

حدثه أبو معاوية يومـًا، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه بحديث احتجاج آدم وموسى، فقال عم الرشيد: أين التقيا يا أبا معاوية؟ فغضب الرشيد من ذلك غضبًا شديدًا، وقال: أتعترض على الحديث؟ وقال: عليَّ بالنطع والسيف، فأحضر ذلك فقام الناس إليه يشفعون فيه، فقال الرشيد: هذه زندقة، ثم أمر بسجنه ، وأقسم ألا يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا، فأقسم عمه بالأيمان المغلظة ما قال هذا له أحد، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني وأنا أستغفر الله وأتوب إليه منها، فأطلقه[٣].

---

(١)تاريخ الخلفاء، للسيوطي ، ص ١١٩ .

(٢)انظر: البداية والنهاية ١٠/ ١٦١ .

(٣)المرجع السابق ١٠/ ٢٣٣ .

حبه لأهل السنة :

قال بعض أهل العلم: يا أمير المؤمنين ! انظر هؤلاء الذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونهما فأكرمهم بعز سلطانك، فقال الرشيد: «أولست كذلك؟ أنا ــ والله ــ كذلك أحبهما وأحب من يحبهما وأعاقب من يبغضهما».

وقال له ابن السماك: «إن الله لم يجعل أحدًا فوقك، فاجتهد ألا يكون فيهم أحد أطوع إلى الله منك». فقال هارون: « لئن كنت أقصرت في الكلام لقد أبلغت في الموعظة» [(١)].

سماعه الوعظ :

ودخل عليه ابن السماك يومًا فاستسقى الرشيد فأتي بقلة فيها ماء بارد فقال لابن السماك: عظني، فقال: يا أمير المؤمنين ! بكم كنت مشتريًا هذه الشربة لو منعتها؟ فقال: بنصف ملكي، فقال: اشرب هنيئًا. فلما شرب قال: أرأيت لو منعت خروجها من بدنك بكم كنت تشتري ذلك؟ قال: بنصف ملكي الآخر، فقال: إن ملكًا قيمة نصفه شربة ماء، وقيمة نصفه الآخر بولة، لخليق ألا يتنافس فيه. فبكى هارون[(٢)].

قالوا في هارون الرشيد :

وقال عمرو بن بحر الجاحظ: « اجتمع للرشيد من الجد والهزل ما لم يجتمع لغيره من بعده، كان أبو يوسف قاضيه، والبرامكة وزراءه، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأشدهم تعاظمًا، ونديمه عمر بن العباس بن محمد صاحب العباسية، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ومضحكه ابن أبي مريم، وزوجته أم جعفر ـ يعني: زبيدة ـ وكانت أرغب الناس في كل خير، وأسرعهم إلى كل بر ومعروف، أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك، وأشياء غير ذلك من المعروف أجراها الله على يدها»[(٣)].

---

(١)البداية والنهاية ١٠/ ٢٣٤ ، ومختصر تاريخ دمشق ٨/ ١٠٩ .

(٢)البداية والنهاية ١٠/ ٢٣٤ .

(٣)تاريخ الخلفاء ، ص ١١٧، والبداية والنهاية ١٠/ ٢٣٥ .

حكمة الرشيد :

وبينما الرشيد يطوف يومًا بالبيت إذ عرض له رجل فقال: يا أمير المؤمنين ! إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة. فقال: لا ! قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني فأمره أن يقول له قولاً لينًا[١].

الرشيد يقبل الموعظة الغليظة :

وعن شعيب بن حرب قال: «رأيت الرشيد في طريق مكة فقلت في نفسي: قد وجب عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فخوفتني فقالت: إنه الآن يضرب عنقك. فقلت: لا بد من ذلك، فناديته فقلت: يا هارون ! قد أتعبت الأمة والبهائم. فقال: خذوه. فأدخلت عليه وفي يده لتٌّ [٢] من حديد يلعب به، وهو جالس على كرسي، فقال: ممن الرجل؟ فقلت: رجل من المسلمين. فقال: ثكلتك أمك ممن أنت؟ فقلت: من الأنبار. فقال: ما حملك على أن دعوتني باسمي؟ قال: فخطر ببالي شيء لم يخطر قبل ذلك؟ فقلت: أنا أدعو الله باسمه يا الله، أفلا أدعوك باسمك؟ وهذا الله سبحانه قد دعا أحب خلقه إليه بأسمائهم: يا آدم، يا نوح، يا هود، يا صالح، يا إبراهيم، يا موسى، يا عيسى، يا محمد، وكنى أبغض خلقه إليه فقال: تبت يدا أبي لهب. فقال الرشيد: أخرجوه أخرجوه»[٣].

زهادة الرشيد، وسماعه الوعظ :

قال له ابن السماك يومًا: «إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدي الله عز وجل، والوقوف بين الجنة والنار، حين يؤخذ بالكظم وتزل القدم، ويقع الندم، فلا توبة تقبل، ولا عثرة تقال، ولا يقبل فداء بمال». فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته. فقال يحيى بن خالد له: « يا بن السماك لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة»، فقام فخرج من عنده وهو يبكي.

---

(١)انظر: البداية والنهاية ١٠/ ٢١٧ .

(٢)اللَّتُّ : مصدر ، وهي القدوم والفأس العظيمة، وهي فارسية [انظر: محيط المحيط ﷺ.

(٣)انظر: البداية والنهاية ١٠/ ٢١٧ .

وقال له الفضيل بن عياض ــ في كلام كثير ليلة وَعَظَهُ بمكة ـ : «يا صبيح الوجه، إنك مسؤول عن هؤلاء كلهم»، وقد قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾[1]، فبكى حتى جعل يشهق.

وقال الفضل: استدعاني الرشيد يومًا وقد زخرف منازله، وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها، ثم استدعى أبا العتاهية فقال له: صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم، فقال:

عِــشْ ما بَدَا لَــكَ سَالِـمًـا ... فِي ظِــلِّ شَـاهِـقَـةِ الْقُصُــورِ
تَسْعَى عَلَيْكَ بِمَا اشْـتَـهَيْـ ... ـتَ لَـدَىْ الـرَّوَاحِ إلى الْبُكُــورِ
فَــإِذَا النُّفُوسُ تَقَعْقَـعَــتْ ... عَنْ ضَيـقِ حَشْرَجَةِ الصُّـدُورِ
فَـهُـنَـاكَ تَعْـلَـمُ مُـوقِـنًـا ... مَــا كُـنْـتَ إلاَّ فِـي غَـرُورِ

قال: فبكى الرشيد بكاءً كثيرًا شديدًا.

فقال له الفضل بن يحيى: دعاك أمير المؤمنين تسره فأحزنته؟

فقال له الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى، فَكَـرِهَ أن يزيدنا عمى[2].

ومن وجه آخر قال الرشيد لأبي العتاهية: عظني بأبيات من الشعر وأوجز، فقال:

لاَ تَأمَنْ الْمَوْتَ فِي طَرْفٍ ولا نَفْسٍ ... وَلَوْ تَمَنَّعْتَ بِالْحُجَّابِ وَالْحَرَسِ
وَاعْلَمْ بِأنَّ سِهَـامَ الْمَوْتِ صَائِبَــةٌ ... لِكُلِّ مُدَّرِعٍ مِـنْـهَــا وَمُـتَّـرِسِ
تَرْجُو النَّجَـاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَـا ... إنَّ السَّفِينَةَ لا تَجْرِي عَلَى الْيَبَــسِ

قال: فخر الرشيد مغشيًا عليه[3].

وقد حبس الرشيد مرة أبا العتاهية وأرصد عليه من يأتيه بما يقول، فكتب مرة على

---

(١) البقرة: ١٦٦.
(٢) البداية والنهاية ١٠/ ٢١٧.
(٣) البداية والنهاية ١٠/ ٢١٧.

جدار الحبس:

أَمَـا واللَّـهِ إنَّ الظُّلْـمَ شُـؤْمٌ وَمَازالَ المُسِيءُ هُـوَ الظَّلُـومُ

إلى دَيَّـانِ يَومِ الـدِّينِ نَمْضِي وَعِنْدَ اللَّـهِ تَجْتَمِعُ الخُصُـومُ

قال : فاستدعاه واستعجله في حل ووهبه ألف دينار وأطلقه[١].

الرشيد والأدباء :

قال الرشيد مرة للمفضل الضبي: «ما أحسن ما قيل في الذئب»؟

فأنشد قول الشاعر:

يَنَـامُ بِإِحْـدَى مُقْلَتَيْـهِ وَيَتَّـقِـي بِأُخْرَى الرَّزَايَا فَهُوَ يَقْظَانُ نَائِمُ

وقال الرشيد يومًا للعباس بن الأحنف: «أي بيت قالت العرب أرق؟».

فقال: قول جميل في بثينة:

ألا لَيْتَنِي أَعْمَـى أَصَمُّ تَقُودُنِي بُثَيْنَـةُ لا يَخْفَـى عَلَيَّ كَلامُـهَـا

فقال له الرشيد: «أرق منه قولك في مثل هذا»:

طَافَ الْهَوَى فِي عِبَادِ اللهِ كُلِّهِـم حَتَّى إذَا مَرَّ بِي مِنْ بَيْنِهِـمْ وَقَفَا

فقال له العباس: « فقولك يا أمير المؤمنين أرق من هذا كله».:

أَمَا يَكْفِيكِ أَنَّكِ تَمْلِكِينِي وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَبِيـدِي

وَأَنَّكِ لَوْ قَطَعْتِ يَدِي وَرِجْلِي لَقُلْتُ مِنَ الْهَوَى أَحْسَنْتِ زِيدِي

قال : فضحك الرشيد ، وأعجبه ذلك[٢].

وفاة الرشيد وثناء الأئمة عليه:

وقد كان الفضيل بن عياض يقول: ليس موت أحد أعز علينا من موت الرشيد، لما

(١)المرجع السابق .

(٢)البداية والنهاية ١٠/ ٢١٩ .

أتخوف بعده من الحوادث، وإني لأدعو الله أن يزيد في عمره من عمري، قالوا: فلما مات الرشيد وظهرت تلك الفتن والحوادث والاختلافات، وظهر القول بخلق القرآن، فعرفنا ما كان تخوفه الفضيل من ذلك.

وقيل: إنه لـما احتضر قال:« اللهم انفعنا بالإحسان، واغفر لنا الإساءة، يا من لا يموت ارحم من يموت».

وكان مرضه بالدم، وقيل بالسل، وجبريل الطبيب يكتم ما به من العلة، فأمر الرشيد رجلاً أن يأخذ ماءه في قارورة ويذهب به إلى جبريل فيريه إياه، ولا يذكر له بول من هو، فإن سأله قال: هو بول مريض عندنا. فلما رآه جبريل قال لرجل عنده، هذا مثل ماء ذلك الرجل، ففهم صاحب القارورة من عني به، فقال له: ـ بالله عليك ـ أخبرني عن حال صاحب هذا الماء فإن لي عليه مالاً، فإن كان به رجاء وإلا أخذت مالي منه. فقال: اذهب فتخلص منه فإنه لا يعيش إلا أيامًا. فلما جاء وأخبر الرشيد بعث إلى جبريل فتغيب حتى مات الرشيد، وقد قال الرشيد وهو في هذه الحال:

إِنِّي بِطَوْسٍ مُقِيمُ مَا لِي بِطُوسٍ حَمِيمُ
أَرْجُو إِلَهِي لِمَا بِي فَإِنَّهُ بِي رَحِيمُ
لَقَدْ أَتَى بِي طَوْسًا قَضَاؤُهُ الْمُحْتُومُ
وَلَيْسَ إِلاَّ رِضَائِي وَالصَّبْرُ وَالتَّسْلِيمُ

ومات بطوس يوم السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة، سنة ثلاث وتسعين ومئة، وقيل: إنه توفي في جمادى الأولى، وقيل: في ربيع الأول. وله من العمر خمس، وقيل: سبع، وقيل: ثمان وأربعون سنة، ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة وشهر وثمانية عشر يومًا، وقيل: ثلاثة أشهر.

وصلى عليه ابنه صالح، ودفن بقرية من قرى طوس يقال لها: سناباذ، وقال بعضهم: قرأت على خيام الرشيد بسناباذ والناس منصرفون من طوس من بعد موته:

مَنَازِلُ الْعَسْكَرِ مَعْمُـــورَةٌ وَالْمُنْزِلُ الأعْظَـــمُ مَهْجُـورُ

خَلِيفَةُ اللَّــهِ بِـدَار الْبِلَـى تَسْعَى عَلَى أَجْدَاثِـهِ الْمُـــورُ

أَقْبَلَتْ الْعِيرُ تُبَاهِـي بِــهِ وَانْصَرَفَــتْ تَنْدُبُــهُ الْعِـيرُ

ومما رثاه به الناس :

غَرَبَتْ فِي الشَّــرْقِ شَمْسٌ فَلَــهَا عَـيْنِـي تَـدْمَـعُ

مَارَأَيْنا قَـطُّ شَـمْـسًـا غَــرَبَــتْ مِنْ حَـيْثُ تَطْـلُعُ

المبحث الثاني
عمـــاد الـدين زنـكـي
«٥٢١ ـ ٥٤١ هـ»

كان من طليعة القادة السادة الذين سعوا لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين ، فسن بهذا سنن الجهاد لخلفائه : نور الدين ، وصلاح الدين .

٨ ــ حدث
جهـاد عمـاد الـدين زنكـي

توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين [(١)]:

انفتحت صفحة جديدة لجهاد الصليبيين بظهور عماد الدين زنكي بن أقسنقر وبدء عهد الدولة الزنكية في الموصل وحلب، فقد كانت الموصل هي أكثر المدن التي أخرجت الأبطال الذين يقاتلون ضد الصليبيين من الشرق العربي. فها هو عماد الدين زنكي يحكم الموصل ويصل إلى النتيجة المنطقية التي تفيد بأن هزيمة العدو لن تأتى قبل توحيد قوى الإمارات الإسلامية، ولهذا نراه يتقرب من روان أمير حلب فيتزوج ابنته، ومن ثم يوحد المدينة مع الموصل، ثم نراه ـ مرة أخرى ـ يستخدم الحيل ليضم حماة ثم حمص إلى حلفه، وسرعان ما أصبح يسيطر على مساحة كبيرة من الأرض أحاطت بمملكة الرها الصليبية من الشرق والجنوب الغربي[(٢)].

وهكذا تولى عماد الدين زنكي أمر ولاية الموصل وأعمالها سنة ٥٢١هـ بعد أن ظهرت

---

(١) انظر: الجهادالإسلامي ضد الصليبيين، الفصل الثالث انتصارات إسلامية وهزائم الصليبيين، د.فايد حماد محمد عاشور، ط. دار الاعتصام، القاهرة ، وانظر: تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، ص ١٨٣ وما بعدها ، د.فاروق عمر فوزي، ط.دار الشروق، الأردن، ١٩٩٩م.

(٢) انظر: موسوعة ألف حدث إسلامي، لعبدالحكيم العفيفي، الدار العربية للكتاب، القاهرة، حدث رقم ٤٣٧ ، ص٢١٣ .

كفاءته في حكم البصرة وواسط وتولَّى شحنكية العراق، وفي محرم سنة ٥٢٢هـ تمت له السيطرة على حلب. وأخذ عماد الدين يخوض المعارك تلو المعارك ويحقق الانتصارات على الصليبيين. وعلق ابن الأثير بعد أن تحدث عن انتصار عماد الدين على الفرنج في معركة كبيرة وملكه حصن الأثارب وحصاره حارم سنة ٥٢٤هـ:

«وضعفت قوى الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب، وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع».

واستمرت جهود زنكي في توحيد قوى المسلمين في غزو الصليبيين، فملك زنكي حماة وحمص وبعلبك، وسرجي، ودارا، والمعرة، وكفر طاب، وقلعة الصور في ديار بكر، وقلاع الأكراد الحميدية، وقلعة بعرين، وشهرزور، والحديثة، وقلعة أشب وغيرها من الأكراد الهكارية.

عماد الدين زنكي يتوسع في فتوحاته [(١)]:

وفي سنة ٥٣٤هـ حاول زنكي الاستيلاء على دمشق مرتين دون جدوى، فقد كانت دمشق المفتاح الحقيقي لاسترداد فلسطين من جهة الشام، غير أن القائم بأمر الحكم هناك «معين الدين أَنَـر » راسل الصليبيين للتحالف ضد زنكي ووعدهم بأن يحاصر بانياس ويسلمها لهم ووافقوا، ولكن زنكي ذهب إليهم قبل قدومهم لدمشق فلما سمعوا ذلك لم يخرجوا. ومع ذلك فإن معين الدين حاصر بانياس بمساعدة جماعة من الفرنج ثم استولى عليها وسلمها للفرنج !!

تحرير إمارة الـرُّها [(٢)]:

إن أشهر ما يذكر من الفتوح لزنكي هو فتحه للرها وإسقاطه للمملكة الصليبية التي قامت بها، فقد كانت إمارة الرها الصليبية أول إمارة تتأسس للكيان الصليبي، كما أنها كانت أول إمارة يتم تحريرها منهم. وقد بدأت جهود عماد الدين زنكي لتحرير الرها

---

(١)موسوعة ألف حدث إسلامي، حدث رقم ٤٤٤ ، ص ٢١٦ .

(٢)الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي ، ص ١٨٣ وما بعدها.

عندما حدث نزاع بين حاكمها جوسلين الثاني، وبين حاكم إمارة أنطاكية الصليبية ريموند ديبوتيه، تطور هذا النزاع إلى اضطراب أخذ يضعف الكيان المعنوى للإمارة، فسارع عماد الدين زنكي بجيشه الضخم وفرض الحصار عليها لمدة تقرب من الشهر، سقطت بعده الإمارة وما حولها من القلاع والحصون في أيدي المسلمين. ويعتبر نجاح عماد الدين زنكي في تحرير إمارة الرها من الوجود الصليبي نصرًا مؤزرًا كبيرًا اعتبر بداية لتحطيم الكيانات الصليبية الثلاثة الأخرى. وقد أحدث ذلك التحرير فرحة عارمة في العالم الإسلامي ونكسة كبيرة لمشاعر الأوربيين، وبعد أن فتح إمارة الرها قام بفتح ما يتبع هذه المملكة من أعمال في منطقة الجزيرة، وفتح سروج وسائر الأماكن التي كانت للفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة.

اغتيال عماد الدين زنكي :

لم يمض عامان على تحرير إمارة الرها من الصليبيين، إلا وقام أحد غلمان عماد الدين زنكي بقتله، ولا يكاد يعرف السبب من وراء ذلك، فعماد الدين زنكي ظل يحكم لمدة عشرين عامًا بدون أن يتعرض لمحاولات للاغتيال من جماعة الحشاشين المتطرفة. ولكن قيام غلام له بقتله يفسره البعض على أنه ليس سببًا سياسيًا، فربما يكون قد انتهر الغلام أو عاقبه على بعض أخطائه فانتقم منه بقتله، ومع ذلك فإن ذلك لا يعتبر سببًا قويًا للقتل مما يوحي لنا بأن بعض أعدائه ربما من قبل الحشاشين أو الصليبيين أو من حاكم دمشق «معين الدين»، قد يكون وراء الاغتيال.

وعلى أي حال فقد أدَّى عماد الدين زنكي دوره السياسي كاملاً وأخلص لأمانة الحكم وهزم أعداءً وحرر أرضًا إسلامية ، وضرب المثل القوي على أن العرب والمسلمين إذا ما اتحدوا فإنهم قادرون على هزيمة أعدائهم، وهذا المثل هو ما طبقه صلاح الدين الأيوبى فيما بعد.

واشتهر عماد الدين بعد مقتله بلقب «الشهيد» فلقد عمل عماد الدين زنكي في أجواء صعبة من نزاع بين أمراء وزعماء السلاجقة أنفسهم، وبينهم وبين الخليفة العباسي في

أحيان أخرى، ومن أجواء الحكم الوراثي، ونزعة الكثيرين للسيطرة والزعامة حتى ولو على مدينة أو قلعة واحدة، كما عاش فترة كانت القوى الصليبية لا تزال تملك الكثير من القوة والحيوية، ومع ذلك فقد استطاع عماد الدين أن يضع الأسس لانطلاق قاعدة جهادية كبيرة وقوية تمتد من شمال الشام إلى شمال العراق، كما كسر شوكة الصليبيين في مواقع كثيرة، ويسر سبل الجهاد والعمل الجاد لتحرير الأرض، وقدم نموذجًا للحاكم المجاهد تحت راية الإسلام، وقَوَّى الأمل باسترجاع المقدسات، غير أن أفضل أثر تركه ـ على ما يظهر لنا ـ هو ابنه نور الدين محمود.

المبحث الثالث
نـور الـديـن مـحـمـود
« ٥٤١ هـ ــ ٥٦٩ هـ »

نعم والله لقد نور الله به درب الجهاد في سبيل نصرة الدين، وهو والله بحق مجدد وقته، وقائد أمته، وقاهر أوربا الصليبية، وممهد الفتح الكبير لحطين على يد صلاح الدين، ولتسمع معي دعاءَه وهو يقول: «اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودًا، مَنْ محمود الكلب حتى يُنْصَر؟ !!»

٩ ــ حدث
جهاد نور الدين محمود

نور الدين يبسط نفوذه على دمشق [(١)]:

بعد استشهاد زنكي، وحسب الأعراف الوراثية في ذلك الزمان، انقسمت دولته بين ابنيه: نور الدين محمود الذي تولى حلب وما يتبعها، وسيف الدين غازي الذي تولى الموصل وما يتبعها.

وُلِدَ نور الدين محمود ـ بعد حوالي عشرين عامًا من سقوط القدس في أيدي الصليبيين ـ في ١٧ شوال سنة ٥١١هـ ـ فبراير ١١١٨م، وكان أسمر طويل القامة، حسن الصورة، ذا لحية خفيفة، وعليه هيبة ووقار. تزوج سنة ٥٤١هـ من ابنة معين الدين أَنَـر، وَرُزِقَ ببنت وولدين، وتوفي ـ رحمه الله ـ في ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ ـ ١٥ مايو ١١٧٤م.

بعد مصرع القائد الكبير عماد الدين زنكى أخذ الصليبيون يحاولون الضغط على مدن الشام وخاصة مدينة حلب القوية، مما دفع نور الدين زنكي « الذي خلف أباه » إلى تقوية

---

(١) وثائق الحروب الصليبية والغزو الصليبي للعالم الإسلامي، ص٣٢ وما بعدها، د.محمد ماهر حمادة، ط. مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م.

جيوشه للتصدي لهم. وسرعان ما تمكن نور الدين زنكي من حماية مدينة حمص من الصليبيين ثم ضمها لسلطانه وأخذ فيما بعد يقاتل الجيوش الأوربية « الحملة الصليبية الثانية» عند دمشق، فلما رجعت تلك الجيوش إلى أوربا وجد نور الدين نفسه أمام دمشق وحاكمها الخائن مجير الدين الذي تحالف مع العدو ضد المسلمين « مثله في ذلك مثل أبيه معين الدين » فسارع نور الدين بدخولها، وبذلك أصبحت القوى الإسلامية في المشرق العربي متحدة في جبهة واحدة قوية لأول مرة منذ نجاح الصليبيين في تأسيس إمارتهم بشرق الشام وفلسطين(١).

صفحة جديدة من صفحات الجهاد الإسلامي (٢):

بحكم نور الدين محمود انفتحت صفحة جديدة رائعة من صفحات الجهاد الإسلامي في بلاد الشام، وطوال ثمانية وعشرين عامًا من حكم نور الدين كان واضحًا في ذهنه هدفه الأساسي في تحرير واسترداد بلاد المسلمين، وتوحيدها تحت راية الإسلام.

ومنذ تلك اللحظة أخذ يبذل الأسباب، ويعد العدة والعتاد، ويوحد جهود المسلمين، ويرتقي بهم في جوانب الحياة المختلفة، وذلك وفق تصور إسلامي متكامل لإعادة أمجاد المسلمين وطرد الاحتلال الصليبي من بلادهم، ودخل المعركة وفق فهم إسلامي شامل سليم، يؤكد على عقائدية المعركة مع الصليبيين، فهي صراع بين حق وباطل وبين إسلام وكفر، وأن المعركة تعني كل المسلمين دون نظر إلى قوميات وعصبيات وجنسيات، وأنه لا سلام نهائيًا حتى يسترجع المسلمون كل شبر من أراضيهم، وأنه لا بد من الإعداد المتكامل للأمة حتى تكون على مستوى الجهاد : إيمانيًا وثقافيًا وتربويًا واجتماعيًا وجهاديًا وعسكريًا، وأنه لا بد من توحيد الجهود تحت راية الإسلام في مواجهة العدو الصليبي.

---

(١) موسوعة ألف حدث إسلامي، حدث رقم ٤٥٧ ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين (جهاد نور الدين)، د. محمد فايد.

وسائل النَّصر عند نور الدين محمود [١]:

أولاً: جهود الوحدة الإسلامية:

حرص نور الدين محمود على تحقيقها بقدر كبير من الصبر والحكمة والأناة، وحرص على عدم إراقة دماء المسلمين، وعلى استمالة القوى الإسلامية المتعددة في الشمال وشمال العراق وكسب صداقتها، كما كان يكشف بطريقة عاقلة واعية حقيقة أولئك الزعماء والحكام ـ الذين يقفون حجر عثرة أمام الوحدة الإسلامية ـ أمام رعيتهم، وكان الناس يقارنون بين جهاده وبين تخاذل حكامهم، وبين إصلاحاته وبين إفساد حكامهم، وبين ولائه لله سبحانه ولرسوله وللمؤمنين وبين ولاء حكامهم لمصالحهم وشهواتهم وللصليبيين!!، فأخذ الناس يتمنون حكمه عليهم... ولذلك فقد وجد كل ترحيب شعبي عند انضمام أي من بلاد المسلمين إليه.

ثانيًا : مواجهة نور الدين محمود للصليبيين [٢]:

ضم نور الدين محمود حمص إليه سنة ٥٤٤هـ ـ ١١٤٩م، غير أنه كان يتوق لضم دمشق التي كانت تقف بينه وبين الصليبيين في فلسطين، وكان الحكم ـ أي الخليفة ـ في دمشق يسعى بالدرجة الأولى للحفاظ على نفسه؛ فمرة يجاهد الفرنج، ومرة يصانعهم ويهادنهم، ومرة يتحالف معهم إذا خاف من قوة إسلامية ما، ووفق تخطيط متأنٍ يهدف إلى السيطرة على دمشق دون إراقة الدماء، وإلى كسب أهل دمشق إلى صفه، وإلى منع نظام الحكم من الاستعانة بالفرنج عليه إذا قصدهم.

استطاع نور الدين محمود أن يفتح دمشق في صفر سنة ٥٤٩ هـ ـ ٢٥من أبريل ١١٥٤م، وقد جاء هذا الفتح بعد أن توفي معين الدين أنَر سنة ١١٤٩م، وبعد أن ضعف الحكم بدمشق، ووقع تحت النفوذ الصليبي الذي فرض الإتاوات على دمشق.

---

(١)هكذا ظهر جيل صلاح الدين، للدكتور كامل عرسان، ط.المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، أمريكا وانظر: مقالته عن ذلك على موقع إسلام أون لاين.

(٢)وثائق الحروب الصليبية، ص٣٢ وما بعدها.

ثالثًا : نور الدين محمود يهزم الصليبيين في موقعة أرتاج [(١)] :

بالرغم من توحد الجبهة الشرقيــة أمام الصليبيين، إلا أن الدولة الفاطميـة كانـت ـ كـما رأينا ـ تمر بمرحلة الاحتضار، مما شجع الصليبيين على غـزو مـصر. ولـما تطـورت الأمـور تمكن نور الدين محمود زنكي من السير بجيش إسـلامي مـع حلفائـه مـن مـاردين وشـمال الشام لمهاجمة إمارة إنطاكية لتخفيف الضغط الصليبي على مصر، ولقد دارت معركة كبيرة مجيدة انتصر فيهـا المـسلمون عنـد سـهل «أرتـاج» وتمكنـوا مـن أسر أمـيرين صـليبيين همـا: ديموند الثالث أمير مملكة طرابلس، وبوهيمند الثالث أمير مملكة إنطاكية.

رابعًا : حملة نور الدين محمود على مصر :

بعد فشل حملة عموري الأول على مصر استطاع الوزير الفاطمي شاور الذي رحل إلى الشام « بعد مطاردة الوزير الفاطمي ضرغام له في مصر » من إقناع نور الـدين زنكـي بـأن يجهز جيشه ويسيطر على مصر، شريطة أن يجعله وزيرًا له.

وفى الحقيقة فإن شاور كان لا يقصد توحيد صفوف المسلمين بدعوته تلك لنور الدين، بل سعى إلى هزيمة عدوه ضرغام والارتقاء إلى الوزارة الفاطمية في مصر.

وخرجت حملة نور الدين محمود زنكي إلى مصر بالفعل تحت قيادة أسد الدين شـيركوه الذي ضم ابن شقيقه صلاح الدين الأيوبى إلى قواته.

وتوالت سيطرة نور الدين على مدن وقلاع الشام حتى خضعت معظمهـا لـه، غـير أنـه كان يدرك أن السبيل الفعال لتحرير فلسطين واقتلاع الحكـم الـصليبي منهـا لا يكـون إلا بالسيطرة على مصر ودخولها ضمن الجبهة الإسلامية المتحدة، ووضع الصليبيين بين فكـي الكماشة.

أرسل نورُ الدين محمود جيشه بقيادة أسد الـدين شـيركوه الـذي هـزم ضرغـام وقتلـه، ولكن شاور غدر بشيركوه واستعان بالفرنج لإخراجـه، فجـاؤوا وحـاصروا أسـد الـدين

(١)يوم القدس، ص ٦١، ٦٢، عبدالسلام العشري، ط نهضة مصر ، القاهرة ٢٠٠٢م .

شيركوه ورفاقه في بلبيس ثلاثة أشهر حتى جاءتهم أخبار انتصارات نور الدين وسيطرته على «حارم» فعرضوا عليه الصلح والعودة إلى الشام فوافق[1]، واشتد التنافس بين نور الدين محمود وبين الصليبيين على مصر، وخصوصًا أن الدولة الفاطمية كانت في ضعف شديد وفي طور الاحتضار، فأرسل نور الدين محمود أسَد الدين شيركوه إلى مصر في ألفي فارس في حملة ثانية في ربيع الآخر سنة ٥٦٢هـ، واستطاع هزيمة الفرنج وجيش مصر بالصعيد، وملك الإسكندرية بمساعدة أهلها، وذهب للصعيد فملكه، غير أنه اضطر للعودة إلى دمشق في ذي القعدة بعد أن اشترط على الفرنج ألا يأخذوا ولو قرية واحدة من مصر فوافقوا.

(١) الموسوعة الإسلامية على موقع إسلام أون لاين، وانظر: ألف حدث إسلامي، ص ٢٢٥.

١٠ ـ حدث
تحول مصر عن الباطنية إلى مـذهب السنة والجماعة

وتمت السيطرة لنور الدين محمود على مصر في الحملة الثالثة التي قادها أيضًا أسد الدين شيركوه في ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ[١]، ففي ذلك الوقت كان الفرنج بسبب تحالف «شاور» معهم قد تمكنوا من البلاد المصرية وأصبح لهم نفوذ كبير، وتسلموا أبواب القاهرة وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم «وحكموا على المسلمين حكمًا جائرًا وركبوهم بالأذى العظيم» وطمع الفرنج بملك مصر فجاءت حملة بقيادة ملك بيت المقدس احتلت بلبيس عنوة فقتلت وأسرت ثم حاصرت القاهرة.

وأرسل الخليفة الفاطمي العاضد إلى نور الدين يستغيثه وأرسل في الكتاب شعور النساء وقال: هذه شعور ـ جمع شَعْر ـ نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج. فأرسل نور الدين محمود حملته الثالثة، فلما قارب أسد الدين مصر خرج الفرنج خائبين، وانتهت الحملة بسيطرة أسد الدين شيركوه على مصر وقتل الوزير شاور، وتولى أسد الدين شيركوه الوزارة مكانه في يناير ١٧ ربيع الآخر، سنة ٥٦٤هـ ـ ١١٦٩م، غير أن أسد الدين توفي بعد شهرين في ٢٢ جمادى الآخرة فولي صلاح الدين يوسف الأيوبي الوزارة مكانه[٢].

وبأمر من نور الدين محمود أسقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية، وتمت الخطبة للخليفة العباسي المستضيء في ثاني جمعة من محرم سنة ٥٦٧ هـ ـ ١٠ سبتمبر ١١٧١م «فلم ينتطح في ذلك عنزان»، ومات الخليفة الفاطمي العاضد في ١٠ محرم دون أن يعلم أحد بذلك.

وهكذا، ضمت مصر رسميًا للخلافة العباسية وأصبحت تحت القيادة الفعلية لنور

(١) ألف حدث إسلامي، حدث رقم ٤٧٠ ، ص ٢٢٧ .
(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٧ .

الدين محمود في ٥٦٦هـ ـ ١١٧٠م، ولقد ضم الموصل والمناطق التي تتبعها إلى حكمه، كما ضم اليمن إلى حكمه سنة ٥٦٩هـ ـ ١١٧٣م عندما أذن لصلاح الدين بفتحها فأرسل إليها أخاه توران شاه بن أيوب حيث تمت له السيطرة عليها، وبذلك امتدت الجبهة الإسلامية المتحدة من العراق إلى الشام فمصر واليمن، مما أنذر بقرب القضاء على الصليبيين.

تحطيم القوى الصليبية:

خلال فترة حكمه التي امتدت من سنة ١١٤٦ ـ ١١٧٤م لم تتوقف المعارك وحروب الجهاد بين نور الدين محمود والصليبيين، وفي الوقت الذي كان يدعم فيه حكمه ويوحد جهود المسلمين كان يقوم بالاستيلاء التدريجي على الممالك الصليبية ويضعف قوتها يومًا بعد يوم وهو يعد للمعركة الفاصلة معهم، وخلال تلك الفترة استطاع نور الدين محمود في جهاده الإسلامي استرجاع وتحرير حوالي ٥٠ مدينة وقلعة مما كان تحت سيطرة الصليبيين.

فمنذ بداية حكمه أحكم السيطرة على منطقة الرها وصفَّى الأملاك التي كانت تتبعها «تل باشر، سميساط، قلعة الروم، دلوك، الراوندان، قورس، مرعش، إعزاز، عينتاب، البيرة..» وذلك خلال الفترة بين سنة ١١٤٦ ـ ١١٥١م. كما استعاد وحرر جميع الأراضي التي كانت تتبع إمارة أنطاكية شرقي نهر العاصي سنة ١١٤٧ ـ ١١٤٩م وقتل في إحدى معاركها أمير إنطاكية ريموند، وزعيم الباطنية المتعامل معهم ضد المسلمين عليّ بن وفا.

صور من بطولة وشجاعة نور الدين محمود[1] :

في سنة ٥٥٨هـ كان نور الدين محمود قد انهزم من الفرنج تحت حصن الأكراد، وهي المعركة التي عرفت بـ «البقيعة»، حيث كبسهم الفرنج فجأة وأكثروا فيهم القتل والأسر، ونجا نور الدين محمود في اللحظة الحاسمة وهرب، ونزل قرب حمص وهناك أقسم قائلاً:

---

(١)القدس تاريخ وحضارة، ص١٧٩ وما بعدها ، د.عبلة المهتدي الزبدة، دار نعمة للطباعة، بيروت ٢٠٠٠م.

«والله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام» ثم أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والثياب والخيل والسلاح فأعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه وعاد العسكر «كأن لم تصبهم هزيمة».

ولما رأى أصحاب نور الدين محمود كثرة خروجه للجهاد وإنفاقه عليه قال له بعضهم: «إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح» فغضب من ذلك وقال: «والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنّما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها على من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم»؟!

وعرض الفرنج الصلح، لكن نور الدين محمود رفض. واجتمع جيشا المسلمين والفرنج بعد أن حشدا حشودًا ضخمة عند حارم، وقبيل القتال انفرد نور الدين محمود بنفسه تحت تل حارم وسجد لله ومرَّغ وجهه وتضرع قائلاً: «يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك»، «إيش فضول محمود في الوسط» وقال: «اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودًا. مَنْ محمود الكلب حتى يُنصر»؟!! يحقر نفسه ويتذلل إلى الله سبحانه. والتحم الفريقان في ١١ أغسطس سنة ١١٦٤م، وانكشفت المعركة الكبرى عن كارثة هائلة حلت بالصليبيين؛ إذ قتل منهم عشرة آلاف وأسر عشرة آلاف أو أكثر، وكان من بين الأسرى أمير أنطاكية وأمير طرابلس وحاكم قيلقلية البيزنطي وأسر جميع الأمراء عدا أمير الأرمن، وفي اليوم التالي استولى نور الدين محمود على حارم، وكان ذلك فتحًا كبيرًا[١].

وفي عام ٥٦٩هـ ـ ١١٧٣م كان نور الدين محمود قد أعد عدته للهجوم النهائي على

(١)موسوعة ألف حدث إسلامي، ص ٢٢٥.

بيت المقدس وتحرير أرض الإسراء من النفوذ الصليبي، حتى أنه قد جهز منبرًا جديدًا رائعًا للمسجد الأقصى يوضع فيه بعد الانتصار على الصليبيين بإذن الله، وراسل في ذلك عامله على مصر صلاح الدين الذي تلكأ بسبب الظروف الخاصة التي تواجهه في مصر والتي يرى أنها تحتاج إلى صبر وأناة وإعداد، ولم يرض نور الدين محمود بذلك التأخر فقرر الذهاب إلى مصر وترتيب أمورها بنفسه إلا أن المنيَّة عاجلته، فتوفي رحمه الله في ١١ من شوال سنة ٥٦٩هـ الموافق ١٥ من مايو ١١٧٤م.

وهكذا انطوت صفحة رائعة من صفحات الجهاد أيام الحروب الصليبية ، إلا أن الصفحة التي تلتها كانت مشرقة ومؤثرة في مسار التاريخ ، تلك هي صفحة صلاح الدين الأيوبي.

١١ ـ حدث
إحياء النهضة الإسلامية على يد نور الدين محمود

قامت في عهد نور الدين محمود نهضة إسلامية شاملة يمكن إبراز جوانبها فيما يلي :

١ ـ القيادة الإسلامية الصادقة:

وتمثلت في شخصه وأشخاص من حوله من القادة والمسؤولين والعلماء. فقد كان للتكوين النفسي والشخصية المميزة لنور الدين محمود أثرهما الكبير في وجود قيادة إسلامية واعية، جادة، مجاهدة.

قال ابن الأثير: «طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام، وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين» فلقد كان «ذكيًا، ألمعيًا، فطنًا، لا تشتبه عليه الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال»، ولم يتقدم لديه إلا ذوو الفضل، والقدرة على الإنجاز الأمين المسؤول في العمل، ولم ينظر في تقديمه للرجال إلى المكانة الاجتماعية أو للجنس والبلد. كما عرف نور الدين بتقواه وورعه، فقد كان حريصًا على أداء السنن وقيام الليل بالأسحار. فكان ينام بعد صلاة العشاء ثم يستيقظ في منتصف الليل فيصلي ويتبتل إلى الله بالدعاء حتى يؤذن للفجر. كما كان كثير الصيام[(١)].

٢ ـ التزام أحكام الإسلام وتطبيقها:

حرص نور الدين محمود على تطبيق أحكام الإسلام على الجميع، وكان قدوة في الالتزام بها، وطبقها على مسؤولي الدولة وقادتها، كما حرص على رد الحقوق إلى أصحاب المظالم وكان يقول: «حرام على كل من صحبني ألا يرفع قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليَّ» ، وفي توحيده لبلاد المسلمين كان يحرص على عدم إراقة دماء المسلمين، ولذلك كان ذا صبر

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، د.كامل عرسان، وانظر: وثائق الحروب الصليبية، ص٣٢ وما بعدها، والوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، ص ١٨٣ وما بعدها.

وحكمة وتأنٍ في ذلك، لقد كان ـ رحمه الله ـ يحفظ الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها.

٣ـ البناء الإيماني والتربوي والثقافي [١]:

وفي هذا المجال استقدم العلماء العاملين وأفسح لهم مجال العمل والدعوة، وسعى في بناء المدارس والمساجد وأوقف عليها الأوقاف، وحارب البدع والضلالات، فانتشر نور الإيمان والعلم بين الرعية، وأحيا سمت احترام العلماء وتوقيرهم، فرغم أن الأمراء والقادة لم يكونوا يجرؤون على الجلوس في مجلسه دون أمره وإذنه، فإنه كان إذا دخل العالم الفقيه أو الرجل الصالح قام هو إليه وأجلسه وأقبل عليه مظهرًا كل احترام وتوقير.

٤ـ البناء الاقتصادي:

رتب نور الدين محمود ديوان الزكاة في عهده ونظم جبايتها وتوزيعها وفق الأسس الشرعية، وشجع التجارة بتأمين طرق المواصلات، ورفع الضرائب التي تثقل حركة التجارة، وسعى في كل ما يقوي الدولة ويدعم بنيانها الاقتصادي.

٥ـ البناء الجهادي العسكري:

لقد سعى في إحياء المعاني الجهادية في النفوس وتربية الأمة على معانيها وتكريس عزة المسلمين ومنعتهم وقوتهم، وبذل الجهد في توفير العدة والعتاد واختيار القادة المناسبين، وحماية المدن وبناء الأسوار والحفاظ على أرواح المسلمين، وتميز بحزمه وقوته في ذلك، وكان رده عنيفًا جدًا على الأعداء إذا انتهكت حرمات المسلمين، ومن ذلك أنه لم يكد يمر على استلامه للحكم شهر واحد حتى هاجم الصليبيون الرها ظانين أن الحاكم الجديد ضعيف، ولكن نور الدين محمود هاجم الصليبيين وقتل ثلاثة أرباع جيشهم الذي هربت فلوله وقد عرفت من يكون هذا القائد الجديد.

---

(١) المرجع السابق.

المبحث الرابع
صلاح الدين الأيوبي
« ٥٦٩ ـ ٥٨٩هـ »

حسبنا أن أعداءَه وصفوه بالقائد النبيل الشجاع ، والحق ما شهدت به الأعداء.. أما الأحبة فقد لقبوه بكل وصف حميد مجيد.

وأقول : إنه رمز الجهاد للصليبيين والمعتدين على الأمة على مر العصور، إنه صلاح الدين وكفى أنه صلاح الدين!!

صلاح الدين الأيوبى وجهاده:

لعلنا في حاجة ملحة إلى تعريف شخصية بطولية مثل شخصية صلاح الدين، وإذا كان التغيير يبدأ من الداخل، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١) ، فإن أول مراتب التغيير هي المعرفة، وها نحن ذا بصدد التعرف إلى هذا البطل الرمز والرقم الصعب في مسيرة الحضارة الإسلامية، وفى جانبها العسكري بالنظر إلى سلوكه الإسلامي وتخطيطه الحربى، وتعامله العسكري مع خصوم الأمة القدماء المحدثين من الغرب حيث أوربا الحملات الصليبية في ذلك الوقت وأوربا الحضارة والغزو في وقتنا هذا..

فإلى صفحات مطويات ومنشورات من حياة هذا البطل الفذ الذي نحن بحاجة إلى النهل من معينه والإفادة من تراثه(٢) .

---

(١)الرعد : ١١ .

(٢)اعتمدنا في ترجمة صلاح الدين على عدة مراجع منها : كتاب نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، لموسى بن محمد اليوسفي، تحقيق: أحمد حطيط، ط عالم الكتب، بيروت ١٩٨٦م،وكتاب: صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه، لشاكر مصطفى، ط.دار العلم، دمشق ١٩٩٨م، وكتاب: الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين للدكتور فايد حماد عاشور، ط دار الاعتصام، القاهرة، وكتاب: هكذا ظهر جيل صلاح الدين، لكامل عرسان والأستاذ أحمد تمام على موقع إسلام أون لاين وغيرها.

عُرِفَ صلاح الدين في كتب التاريخ في الشرق والغرب بأنه فارس نبيل، وبطل شجاع، وقائد من أفضل من عرفتهم البشرية، وشهد بأخلاقه أعداؤه من الصليبيين قبل أصدقائه، وكتبوا سيرته، إنه نموذج فذ لشخصية عملاقة من صنع الإسلام، إنه البطل صلاح الدين الأيوبي محرر القدس من الصليبيين وبطل معركة حطين.

فإلى سيرته ومواقف من حياته كما يرويها صاحب وفيات الأعيان أحمد بن خلكان، والقاضي بهاء الدين بن شداد صاحب كتاب «سيرة صلاح الدين» وابن الأثير في كتابه : «الكامل».

ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢هـ ـ ١١٣٧م بقلعة تكريت ، وكان أبوه واليًا عليها، دخل هو وأبوه وعمه في خدمة نور الدين محمود، وشارك عمه أسد الدين شيركوه في حملاته الثلاث على مصر، وولي الوزارة في مصر وعمره اثنتان وثلاثون سنة.

وكان صلاح الدين عادلاً رؤوفًا رحيمًا، ناصرًا للضعيف على القوي، وكان كريمًا، حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طاهر المجلس، لا يُذكر أحد بين يديه إلا بخير، طاهر السمع، طاهر اللسان، طاهر القلم، فما كتب إيذاء لمسلم قط.

وكان شجاعًا، شديد البأس والمواظبة على الجهاد، عالي الهمة، قال يومًا وهو قرب عكا: «في نفسي أنه متى ما يَسَّرَ الله تعالى فتح بقية السواحل قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت» ومات صلاح الدين ولم يكن لديه من الأموال ما تجب فيه الزكاة، واستنفدت صدقة النفل جميع ما ملكه، ولم يخلف في خزائنه من الفضة والذهب إلا سبعة وأربعين درهمًا ناصرية، ودينارًا واحدًا ذهبيًا، ولم يخلف ملكًا ولا دارًا ولا عقارًا ولا مزرعة، عزم على الحج في السنة التي توفي فيها ولكنه تعوق بسبب ضيق ذات اليد وضيق الوقت.

جهود صلاح الدين لتوحيد الأمة [١] :

ظل صلاح الدين الأيوبي يصارع في سبيل توحيد الأمة مدة عقد من الزمان، حيث نجح سنة ٥٧٠ هـ في ضم دمشق سلمًا، ثم ضم حمص دون قلعتها في ١٠ ديسمبر سنة ١١٧٤م، ثم ملك حماة وقلعتها في ٢٨ ديسمبر ١١٧٤م، ثم عاد فسيطر على قلعة حمص، ثم ضم إليه بعلبك في رمضان من نفس العام فصار أكثر الشام بيده.

وكان صلاح الدين طوال ذلك الوقت محافظًا على ولائه الظاهر للصالح بن نور الدين والدعوة له في المساجد وسك العملة باسمه، ولكن بعد أن وقعت معركة بين صلاح الدين من جهة وبين جند حلب والموصل الزنكيين من جهة أخرى وانتصر فيها صلاح الدين، قطع حينئذ صلاح الدين الخطبة وسك العملة للملك الصالح، وتسمَّى هو بملك مصر والشام وأقره الخليفة على ذلك. ثم ضم صلاح الدين في نفس العام «٥٧٠هـ» قلعة بعرين.

وفي السنة التالية ٥٧١هـ استولى صلاح الدين على بزاعة ومنبج وإعزاز.

وفي سنة ٥٧٧هـ توفي الملك الصالح إسماعيل في حلب.

وفي عام ٥٧٨هـ عبر صلاح الدين الفرات وملك منطقة الجزيرة «الرها ـ حران ـ الرقة...» وملك سنجار.

وفي ٥٧٩هـ ملك صلاح الدين آمد وتل خالد وعينتاب، وملك حلب في شهر صَفَر من العام نفسه، حيث نزل عنها عماد الدين بن مودود بن زنكي مقابل سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، وبملك صلاح الدين حلب ـ بعد حصارها مرات عديدة ـ «استقر ملك صلاح الدين بملكها وكان مزلزلاً فثبت قدمه بتسلمها..»،كما فتح صلاح الدين قلعة حارم.

وفي سنة ٥٨١هـ ملك صلاح الدين ميافارقين، واستلم شهرزور وولاية القرابلي وجميع ما وراء نهر الزاب.

---

(١)هكذا ظهر جيل صلاح الدين، لكامل عرسان، وانظر: موقع إسلام أون لاين.

وأخيرًا دخلت الموصل وما يتبعها في حكم صلاح الدين في عام ٥٨٢هـ - ١١٨٦م[١].

(١) المرجع السابق.

١٢ ـ حدث
جهاد صلاح الدين « ٥٦٩ ـ ٥٨٢هـ »

ولم تخل هذه المرحلة من معارك عنيفة مع الصليبيين أسهمت في المحافظة على هيبة المسلمين، والتعرف إلى إمكانات العدو ونقاط ضعفه، واستدراك جوانب النقص عند المسلمين، وعدم إعطاء العدو فرصة للتقوِّي والتمدد والانتشار، إلا أن صلاح الدين لم يدخل في معركة فاصلة مع الصليبيين.

أما عن أهم الوقائع مع الصليبيين في تلك الفترة [(١)]:

م	السنة	الحدث
١	٥٧٠ هـ	هَزَمَ المسلمون الأسطولَ الصليبي القادم من صقلية والذي هاجم الإسكندرية بخمسين ألف رجل هزيمة كبيرة.
٢	٥٧٣ هـ	هاجم صلاح الدين الفرنج من جهة مصر، حتى وصل عسقلان وفتحها، وأسر وقتل وأحرق، ثم انساح جندُ صلاح الدين لما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر، وسار صلاح الدين للرملة وهناك فاجأهم الفرنج وهزموهم، ورجع صلاح الدين في نفر يسير ومشقّة شديدة وكان درساً قاسياً له، وفي نفس العام حاصر الفرنج حماة وحارم وفشلوا، وهزم الفرنج في العام التالي عند حماة.
٣	٥٧٥ هـ	أغار صلاح الدين على مناطق سيطرة الفرنج وخرب الحصن الذي أقاموه بمخاضة الأحزان قرب بانياس، ووقعت معركة

(١)انظر عن هذه الحوادث: يوم القدس، ص١٠٢ وما بعدها، والقدس تاريخ وحضارة ، للأستاذة عبلة المهتدي الزبدة، ص١٧٩ ومابعدها، ط.دار نعمة للطباعة، بيروت، ١٩٩٨م، ووثائق الحروب الصليبية ص ١١٨، والوسيط في تاريخ فلسطين، ص ١٨٩ .

		شديدة انتصر فيها المسلمون ونجا ملك الفرنج وَأُسِرَ عددٌ من قادتهم منهم: ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلاً عند الملك، وَأُسِرَ أخوه صاحب جبيل، كما أُسِرَ صاحب طبرية ومقدم الداوية وصاحب جنين.
٤	٥٧٨ هـ	قام صلاحُ الدين بغارات على أطراف مناطق سيطرة الفرنج مُركِّزاً على الشوبك والكرك، وفتح المسلمون الشقيف من أعمال طبرية على يد فرخشاه «والي دمشق»، واقتحم فرخشاه بيسان وغنم ما فيها، وسارت العرب فأغارت على جنين واللجون حتى قاربوا عكا.
٥	٥٧٨ هـ	هزم أسطول صلاح الدين الأسطول الذي سيره أرناط «رونالد دي شاتيون» حاكم الكرك في البحر الأحمر للتخريب في سواحل المسلمين ومهاجمة مكة والمدينة، وأرسل بعض أسرى الفرنج إلى منى ليُنحروا عقوبة لمن رام إخافة حرم الله.
٦	٥٧٩ هـ	عبر صلاح الدين نهر الأردن في ١٩ جمادى الآخرة فقصد بيسان وأحرقها وخرَّبها «وأغار المسلمون على تلك الأعمال يميناً وشمالاً ووصلوا فيها إلى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول إليه والإقدام عليه»، كما غزا صلاحُ الدين الكَرَك، وعاد فحاصرها في السنة التالية دون جدوى، ثم سار سنة ٥٨٠هـ إلى نابلس ونهب كل ما على طريقه من البلاد، فلما وصل نابلس أحرقها وخربها وقتل فيها وسبى وأسر، وسار إلى سبسطية فاستنقذ جماعة من أسرى المسلمين، ووصل إلى جنين فنهبها وخربها وعاد إلى دمشق وهو يبث السرايا عن

		يمينه وشماله يغنمون ويخربون أملاك الفرنج.
٧	٥٨٢ هـ	مات ملكُ الفرنج في بيت المقدس، وتولى مكانه طفلٌ صغيرٌ، وحدث خلافٌ وطمعٌ في السلطة بين الفرنج، جعل صاحب طرابلس يراسل صلاح الدين ويتحالف معه ضد أقرانه من الفرنج، وفي السنة نفسها غدر صاحب الكرك أرياط بقافلة عظيمة للمسلمين؛ فأخذها عن آخرها وغنمها، ولم يستجب لطلب صلاح الدين ووعيده بإطلاقها، فأقسم صلاح الدين ليقتلنه إن ظفر به.

وهكذا دخلت سنة ٥٨٣هـ وقد نضجت ظروف الإعداد للمعركة الفاصلة من توحيد لقوى المسلمين، ومن كسر لهيبة الصليبيين وخبرة أوسع في فن التعامل معهم، وبهذا دخل صلاح الدين معركة حطين، وقبل الإشارة إلى معركة حطين نقف قليلاً عند إستراتيجية العمل لدى صلاح الدين.

استراتيجية العمل والإعداد لدى صلاح الدين [(١)]:

حقق صلاح الدين بقدرة فائقة المبادئ الإستراتيجية الصالحة للانتصار ، كما يسميها القادة العسكريون المعاصرون على ما يذكر الدكتور عرسان ويمكن الإشارة إلى أهمها في التالي :

١ ـ إعادة الوحدة وتقويتها، وبناء الإنسان المسلم المقاتل، وبناء الاقتصاد الحربي.

٢ ـ إعداد المجتمع للحرب: وفي هذا حرص على إشاعة العدل وإزالة الأحقاد بين إمارات المسلمين وتوجيه العداء ضد الصليبيين.

٣ ـ وضوح الهدف: الذي تمثل في قيادة الأمة الإسلامية لطرد الصليبيين.

٤ ـ الحرص على المسلمين: فهو «يحرص على المسلمين لتحقيق هدف الحرب، ويحرص

---

(١)انظر المراجع السابقة نفسها .

على الحرب للمحافظة على المسلمين»، وقد اعتاد على رد العدوان بأقوى منه حفاظًا على الروح المعنوية، والهجوم على جهة لتخفيف الضغط على جهة أخرى، وإستراتيجية الحرب التشتيتية كتشتيت الجيش المعادي داخل المعركة «فصل الفرسان عن المشاة مثلاً»، واستغلال النزاعات السياسية وضرب فريق بآخر وتحييد الأعداء، وإستراتيجية الهجمات الوقائية التي تضعف قدرة العدو القتالية قبل هجومه أو استكمال استعداده.

٥ ـ حقق صلاح الدين في حروبه المبادئ الأساسية للحرب بكفاءة كبيرة مثل: مبدأ المباغتة، مبدأ أمن العمل: بما تمثل له من شبكة أمنية جاسوسية قوية ودقيقة، مبدأ القدرة الحركية: بما تعنيه من سرعة تحرك الجيش وتجمعه وانتقاله، مبدأ المبادأة والقوة الهجومية: الذي تمثل في تحويل الروح الدفاعية إلى هجومية، مبدأ الاقتصاد بالقوى: فلكل معركة ما يناسبها، مبدأ المحافظة على الهدف: فكان يهتم بتدمير القوى البشرية للصليبيين بالدرجة الأولى، وحرمانهم من مواردهم الاقتصادية وتحويلهم إلى عبء على الغرب، وتحرير الأرض من الداخل باتجاه الساحل. وبالنسبة للجيش الإسلامي فإن صلاح الدين رسخ الاستعدد الدائم للقتال، ورفع الروح الإيمانية والجهادية في النفوس، كما نمى الكفاءة البدنية الجسدية، وأكد على الانضباط وكمال الطاعة «في غير معصية».

من مواقف صلاح الدين [(١)]:

لما فتح الله تعالى عليه بنصره في حطين جلس صلاح الدين في دهليز الخيمة؛ لأنها لم تكن نصبت بعد وعرض عليه الأسارى، وسار الناس يتقربون إليه بما في أيديهم، وهو فرح بما فتح الله تعالى على يده للمسلمين، ونصبت له الخيمة فجلس فيها شاكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليه. واستحضر الملك جفري وأخاه وإرياط وناول السلطان جفري شربة من جلاب وثلج فشرب منها وكان على أشد حال من العطش، ثم ناولها لإرياط، وقال السلطان للترجمان: قل للملك: أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته، وكان من جميل عادة

---

(١) نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر (والكتاب كله يسرد ويحلل ويوضح مواقف صلاح الدين ومعاركه)، وانظر: صلاح الدين الفارس المجاهد، ص٣٠ ـ ٨٥ .

العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن، فقصد السلطان بقوله ذلك ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عَيَّنَهُ لهم فمضوا بهم إليه فأكلوا شيئًا ثم عادوا بهم ولم يبق عنده سوى بعض الخدم فاستحضرهم وأقعد الملك في دهليز الخيمة.

وأحضر صلاح الدين إرياط وأوقفه بين يديه وقال له: « ها أنا أنتصر لمحمد منك»، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل، فسل سيفه، فضربه به فحل كتفه وتمم قتله من حضر وأخرجت جثته ورميت على باب الخيمة،فلما رآه الملك على تلك الحال لم يشك في أنه يُلْحِقُهُ به فاستحضره وطيب قلبه وقال له: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه تجاوز الحد، وتجرأ على الأنبياء صلوات الله عليهم»، وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور ترتفع أصواتهم بحمد الله وشكره وتهليله وتكبيره، حتى طلع الفجر، ثم نزل السلطان على طبرية يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر وتسلم قلعتها في ذلك النهار وأقام عليها إلى يوم الثلاثاء.

تحرير عكا وما حولها [(١)]:

ورحل صلاح الدين طالبًا عكا فكان نزوله بها يوم الأربعاء، وقاتل الصليبيين بها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ ، فأخذها واستنقذ من كان بها من أسارى المسلمين، وكانوا أكثر من أربعة آلاف نفس، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع؛ لأنها كانت مظنة التجار، وتفرق العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة؛ فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة، وكان ذلك لخلوها من الرجال؛ لأن القتل والأسر أفنى كثيرًا منهم، ولما استقرت قواعد عكا وقسم أموالها وأساراها، سار يطلب تَبْنِينِ، فنزل عليها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى وهي قلعة منيعة فنصب عليها المنجنيق وضيق بالزحف الخناق على من فيها، فقاتلوا قتالاً شديدًا ونصره الله ـ سبحانه ـ عليهم، فتسلمها منهم يوم الأحد ثامن عشر

(١)انظر: وثائق الحروب الصليبية ص١٢٠، ويوم القدس ص٢٠٠، وصلاح الدين الفارس المجاهد ص٣٥٩، والجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ص١٤٢، ١٥٠ .

عنوة وأسر من بقي فيها بعد القتل، ثم رحل عنها إلى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غدِ يومِ نزوله فيها وهو يوم الأربعاء العشرون من جمادى الأولى، وأقام عليها ريثما قرر قواعدها، وسار حتى أتى بيروت فنزلها ليلة الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى، وركَّبَ عليها المنجنيق وداوم الزحف والقتال حتى أخذها في يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر المذكور، وتسلم أصحابُه جبيل وهو على بيروت، ولما فرغ من هذا الجانب رأى أن قصده عسقلان أولى؛ لأنها أيسر من صور، فأتى عسقلان ونزل عليها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة من السنة وتسلم في طريقه إليها مواضع كثيرة كالرملة والداروم ونَصَبَ في عسقلان المنجنيق وقاتلها قتالاً شديدًا وتسلمها في يوم السبت نهاية جمادى الآخرة من السنة نفسها، ونصب عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون بغير قتال. وكان بين فتح عسقلان وأخذ الإفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإنهم كانوا أخذوها من المسلمين في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٤٨هـ.

١٣ ـ حدث
تحرير القدس[(١)]

قال ابن شداد : لـما تسلم صلاح الدين عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصد القدس المبارك، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل فسار نحوه، معتمدًا على الله تعالى، مفوضًا أمره إليه، منتهزًا الفرصة في فتح باب الخير الذي حث على انتهازه بقوله: «مَن فُتِحَ له بابُ خير فلينتهزه، فإنه لا يعلم متى يُغْلَق دونه».

وكان نزوله عليه في يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ٥٨٣هـ ، وكان نزوله بالجانب الغربي، وكان معه من كان مشحونًا بالمقاتلة من الـخَيَّالة والرجَّالة[(٢)]، وحزر أهل الخبرة ممن كان معه ومن كان فيه من المقاتلة فكانوا يزيدون على ستين ألفًا خارجًا عن النساء والصبيان، ثم انتقل لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب المنجنيق وضايق البلد بالزحف والقتال حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم، ولما رأى أعداء الله الصليبيون ما نزل بهم من الأمر الذي لا مدفع له عنهم، وظهرت لهم أمارات فتح المدينة وظهور المسلمين عليهم ـ وكان قد اشتد روعهم لما جرى على أبطالهم وحماتهم من القتل والأسر، وعلى حصونهم من التخريب والهدم ـ وتحققوا أنهم صائرون إلى ما صار أولئك إليه استكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان واستقرت الأمور بالمراسلة من الطائفتين.

وكان تسلمه في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن الكريم، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يَسَّرَ الله ـ تعالى ـ عَوْدَهُ إلى المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله

---

(١)الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ص١٤٢، والقدس تاريخ وحضارة، ص ١٧٩ ومابعدها.

(٢)الرَّجَّالة : الذين يقاتلون على أرجلهم، والـخَيَّالة: الذين يركبون الخيل.

تعالى، وكان فتحه عظيمًا شهده من أهل العلم خلق، ومن أرباب الخرق[1] والزهد عَالَـمٌ، وذلك أن الناس لَـمَّا بلغهم ما يَسَّرَهُ الله ـ تعالى ــ على يده من فتوح الساحل وقصده القدس، قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف أحد منهم، وارتفعت الأصوات بالضجيج بالدعاء والتهليل والتكبير، وصليت فيه الجمعة يوم فتحه، وخطب القاضي محيي الدين محمد بن علي المعروف بابن الزكي.

وقد كتب عماد الدين الأصبهاني رسالة في فتح القدس ، وجمع كتابًا سماه الفتح القسي في الفتح القدسي وهو في مجلدين ذكر فيه جميع ما جرى في هذه الواقعة.

وكان قد حضر الرشيد أبو محمد النابلسي الشاعر المشهور هذا الفتح ، فأنشد السلطان صلاح الدين قصيدته التي أولها:

هَــذَا الَّذِي كَانَتْ الآمَــالُ تَنْتَظِــرُ فَلْيُــوفِّ لِلَّــهِ أَقْــوَامٌ بِمَــا نَــذَرُوا

وهي طويلة تزيد على مئة بيت يمدحه فيهما ويهنيه بالفتح.

يقول بهاء الدين بن شداد في السيرة الصلاحية : نَكَّسَ الصليب الذي كان على قبة الصخرة وكان شكلاً عظيمًا، ونصر الله الإسلام على يده نصرًا عزيزًا.

وفاة صلاح الدين [2]:

قال ابن شداد : وصلني كتاب صلاح الدين يستدعيني لخدمته وكان شتاء شديدًا ووحلاً عظيمًا، فخرجتُ من القدس في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة ٥٨٩هـ ، وكان الوصول إلى دمشق في يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر من السنة، وركب السلطان لملتقى الحاج يوم الجمعة خامس عشر صفر وكان ذلك آخر ركوبه، ولما كان ليلة السبت وَجَدَ كسلاً عظيمًا، وما انتصف الليل حتى غشيته حُـمَّى صفراوية، وكانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت متكاسلاً، عليه أثر الْـحُـمَّى، ولم يظهر ذلك

---

(١) هم الصوفية المنقطعون للعبادة.

(٢) نزهة الناظر، (فصل وفاة صلاح الدين).

للناس لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولده الملك الأفضل، وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو قلقه في الليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ثم انصرفنا وقلوبنا عنده، وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلاً لجلوس ولده في موضعه، ثم أخذ المرض يتزايد من حينئذ، ونحن نلازم التردد طرفي النهار، وندخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مرارًا، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سفرًا وحضًرا، ورأى الأطباء فصده ففصدوه فاشتد مرضه وقلَّت رطوبات بدنه وكان يغلب عليه اليبس، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف، واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن، ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه، ولما كان التاسع حدثت له غشيةٌ وامتنع من تناول المشروب، واشتد الخوف في البلد وخاف الناس ونقلوا أقمشتهم من الأسواق وعلا الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته، ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وحصل من الحقن بعض الراحة وفرح الناس بذلك، ثم اشتد مرضه وأيس منه الأطباء ثم شرع الملك الأفضل في تحليف الناس، ثم إنه توفي بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ، وكان يومُ موته يومًا لم يُصَب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فَقْدِ الخلفاء الراشدين ــ رضي الله عنهم ــ وَغَشِيَ القلعة والملكَ والدنيا وحشةٌ لا يعلمها إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهم أن هذا الحديث على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالأنفس.

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء وغَسَّلَهُ، وأُخْرِجَ بعد صلاة الظهر ـ رحمه الله ـ في تابوت مسجىً بثوب فوط فارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج وأخذ الناس في البكاء والعويل وَصَلُّوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان وهي التي كان متمارضًا بها ودفن في الضفة الغربية منها وكان نزوله في حفرته قريبًا من صلاة العصر.

وأنشد ابن شداد في آخر السيرة بيت أبي تمام الطائي وهو :

ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السُّنُونَ وأَهْلُها　　فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أحْلامُ

وفي ساعة موته كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1]، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ ﴾[2].

كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه، وجبر مصابه، وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة وقد زُلْزِلَ المسلمون زلزالاً شديدًا، وقد حفرت الدموعُ المحاجر، وبلغت القلوبُ الحناجر، وقد ودعتُ أباك ومخدومي وداعًا لا تلاقي بعده، وقد قبلت وجهه عني وعنك وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضيًا عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبالباب من الجنود المجندة والأسلحة المعدة ما لم يدفع البلاء، ولا ملك يرد القضاء، وتدمع العين، ويخشعُ القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا عليك لمحزونون يا يوسف، وأما الوصايا فما تحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المصاب عنها، وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصَه الكريمَ، وإن كان غيرُه فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم والسلام.

---

(١) الأحزاب: ٢١ .

(٢) الحج : ١ .

المبحث الخامس
سيف الدين قطز
هازم التتار .. وصاحب نصر عين جالوت

قائد مغوار، جمع الله به شتات الأمة المُهَدَّمَةِ المُمَزَّقَة، فَالْتَفَّتْ حوله، وبرق لائح نصره من مصر التي تسلطن عليها، وكان صاحب المجد الأول في انتصار الإسلام على التتار وأوقف زحفهم ، لا على الإسلام فحسب ، بل على العالم أجمع، ودوت صيحات الله أكبر، وا إسلاماه، وا إسلاماه !!

التتار [1]:

التتار شعب بدوي يعيش على أطراف صحراء غوبي - شمال شرق منغوليا ، وهم سكان براري كانوا مشهورين بالشر والغدر، كانت حياتهم رعوية ونظامهم قبليًا، يطيعون رؤساءهم طاعة كبيرة، ويحبون الحرب والسلب، يعبدون الكواكب، ويسجدون للشمس أثناء شروقها، يأكلون لحوم الحيوانات جميعها حتى الكلاب، وتنتشر عندهم الإباحية، وتعرف ديانتهم القديمة بالشامانية، يقدمون الأضاحي لبعض الحيوانات الشريرة، ويقدسون أرواح الأجداد، والتتار هم أصل القبائل المتفرعة عنهم جميعًا من مغول، وترك، وسلاجقة وغيرهم، وقد كان لسيطرة قبيلة المغول على التتار في مراحل تاريخها هو الذي جعل اسم المغول يطلق على الجميع.

جمع جنكيزخان قبائل التتار حوله ، وانطلق نحو الشمال الشرقي في بلاد الصين يضم البلاد إليه، بدأ التحريض من قبل الصليبيين على بلاد المسلمين فاتجه جنكيزخان نحو الغرب، وظهرت جماعة التتار حوالي سنة ٦٠٦هـ في بلاد فرغانة، فخرَّب خوارزم شاه محمد تكش فرغانة، والشاش وكاسان، خوفًا من أن يستولي عليها التتار، وأرسل جنكيزخان رسلاً للمهادنة بينه وبين خوارزم شاه محمد تكش، وليسير التجار بين

---

(١) الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ص٦١، وموسوعة الحضارة الإسلامية على النت.

المملكتين، فأجابه خوارزم شاه إلى ذلك، ولكن خوارزم شاه أمر نائبه بقتل التجار في مملكته ففعل ذلك، وكان جنكيزخان في تركستان بعدما استولوا على تركستان بدؤوا يغيرون على بلاد ما وراء النهر للحصول على حاجتهم، ولكن جنكيزخان عندما علم بقتل تجاره أرسل رسولاً إلى خوارزم شاه يهدده بقتاله، إلا أن خوارزم شاه قتل رسوله، وحلق لحى من معه، وأعادهم إلى جنكيزخان ليعلموه، وسار خوارزم شاه إلى التتار، وكانوا غائبين عنها ومشغولين بقتال أحد أمرائهم، فقتل من وجد وسبى النساء، وعاد التتار وعلموا فجددوا السير إلى خوارزم شاه وأدركوه، فوقعت معركة رهيبة كادت تفنيهما، ورجع خوارزم شاه إلى بخارى وأمّن سمرقند.

جاء التتار وخوارزم شاه غائب فدخلوا مدينة بخارى، وعملوا بأهلها العجائب والموبقات، ثم اتجهوا إلى سمرقند وفعلوا بها ما فعلوا ببخارى، وأرسل جيشًا في إثر خوارزم شاه، فانطلق إلى مازندران ومنها إلى همدان، ثم رجع إليها، ومات في بحر الخزر. وسار التتار إلى مازندران فأخذوها، ثم اتجهوا إلى الري، وهمدان، ثم ساروا إلى أذربيجان وأخذوها، وانتصر على الأكراد، والتركمان، والكرج، ودخلوا باب الأبواب دربند، وانطلقوا إلى بلاد القفقاس فقاتلوا اللان والجراكسة وانتصروا عليهم، وانطلقوا عام «٦٢٠هـ» إلى بلاد روسيا فدخلوها ونهبوها حتى قاتلهم البلغار وقضوا عليهم وعاد الباقي إلى جنكيزخان. وبقي جنكيزخان في سمرقند، وأرسل قسمًا ممن بقي معه إلى فرغانة وأخذها، وآخر إلى ترمذ ودخلها وفعل بهما فعل التتار، وأرسل جيشًا عظيمًا إلى خوارزم، ووجه جيشًا إلى خراسان التي دخلوها بعد نيسابور، وطوس، وهراه، ورجعوا إلى جنكيزخان. والجيش الذي صار إلى خوارزم شاه دخلها، ثم عاد إلى جنكيزخان.

واجتمعت الجيوش لديه فجهز جيشًا قويًا وسيره إلى غزنة وعليها جلال الدين ابن خوارزم شاه، فانتصر المسلمون، وفر التتار عائدين إلى الطالقان، والتقى المسلمون ثانية مع التتار في كابل، وانتصر المسلمون مرة أخرى، ثم اختلفوا ففارقهم سيف الدين الحلجي الذي اتجه إلى الهند وملكها، وشعر جلال الدين بالضعف، فساروا إلى السند، فعلم

جنكيزخان فلاحقه، ودارت معركة انتصر فيها التتار وأخذوا غزنة، ووجه جنكيزخان جماعة من جنده إلى الري وهمدان فقتلوا من فيها وخربوها. ومات جنكيز خان وخلفه ابنه أوجتاي الذي اتجه إلى شمال الصين، ثم التفت إلى الغرب فأراد مملكة خوارزم التي تمنعت عليه بفضل قيادة جلال الدين الذي حقق عدة انتصارات على التتار.

وجاء التتار إلى أذربيجان عام ٦٢٨هـ فملكوها، واتجهوا إلى ديار بكر، والجزيرة، ووصل جماعة منهم إلى أربيل وحاصروها إلا أنها تمنعت عليهم.

التتار يغيرون على الشرق والغرب [(١)]:

وجه أوجتاي عام «٦٣٧هـ» ثلاثة جيوش، أحدها إلى كوريا، والثاني إلى إمبراطورية سونغ جنوب الصين، والثالث إلى شرقي أوروبا فدخل ابن أخيه بلاد البلغار قازان، ثم دخلوا موسكو، وكذلك كييف فأبادوها. ومات أوجتاي وخلفه ابنه كيوك الذي مات وخلفه ابن عمه مانجو بن تولوي الذي وجه أخاه كوبيلاي إلى الصين، والآخر أخوه الأكبر وسيره إلى غزو بلاد العراق، وبلاد الشام، وهو هولاكو ومات مانجو بن تولوي وخلفه أخوه كوبيلاي فأخضع الصين وأصبحت بكين عاصمته.

ووصل التتار إلى أذربيجان واتجهت فرقة منهم إلى أربيل سنة ٦٣٤هـ التي تمنعت منهم. وفي سنة ٦٣٨هـ كتب أوجتاي خان التتار الأعظم إلى ملوك المسلمين يدعوهم فيها إلى الطاعة، ولما تولى مانجو قيادة التتار جهز حملة بقيادة أخيه هولاكو للاتجاه نحو الغرب «فارس والعراق والشام». ولما تم إعداد الحملة انطلق نحو بلاد ماوراء النهر فجاءه الأمراء يعلنون طاعتهم.

ثم سار إلى فارس وطلب من الأمراء معاونته للقضاء على الإسماعيلية، وجاءه زعماء من خراسان وأذربيجان وجورجيا، وتمكن من هزيمة الإسماعيلية، وكتب إلى الخليفة المستعصم يعاتبه على عدم مساعدته في قتال الإسماعيلية، ويأمره بهدم الحصون، وبردم

---

(١) المرجع السابق.

الخنادق، إلا أن المستعصم أرسل إليه رسالة توحي بالقوة والاستعداد لقتاله، فكانت العراق هي الاتجاه، وسقوط بغداد النتيجة، وزحفوا إلى سوريا، وحلب، وحماه، ودمشق، وانهزموا في مصر في عين جالوت وبذلك تم القضاء على أخطر قوة مدمرة.

قطز [(١)]:

تدور هذه السطور حول قائد عظيم مغوار من أبرز القادة المسلمين الذين كان لهم دور عظيم في الحفاظ على وحدة جبهة الأمة الإسلامية ضد التتار أعداء الحضارة والمدنية.

هو قطز بن عبد الله المعزّي، سيف الدين، ثالث ملوك الترك المماليك بمصر والشام، ولد في القرن السابع الهجري. وكان مملوكًا للمعز أيبك التركماني، وترقى إلى أن صار في دولة المنصور بن المعز أتابك العساكر وبعد اغتيال عز الدين أيبك في القلعة، خلفه ابنه المنصور عليّ الذي كان أحمق صغير السن فلما هدد المغول الديار المصرية رأى المماليك بقيادة سيف الدين قطز « نائب السلطنة » عزله، فاعتقلوه بإحدى القلاع بمدينة دمياط، واختير الملك المظفر سيف الدين قطز سلطانًا للدولة المملوكية في مصر. والسلطان قطز هو ثالث ملوك المماليك في مصر، وكان من المقربين لعز الدين أيبك.

وفي سنة «٦٥٧هـ» سبع وخمسين وستمائة من الهجرة خَلَعَ قطزُ «المنصور عليّ» وتسلْطن مكانه، وخلع على الأمير «ركن الدين بيبرس البندقداري» وجعله أتابك العساكر، وفوض إليه جميع أمور المملكة.

بدأت الحشود المغولية في الزحف نحو الشام بعد تدمير بغداد وإنهاء الخلافة العباسية، ولقد كان هناك تحالف بين الصليبيين في الغرب وبين هولاكو في الشرق «حيث كانت زوجة هولاكو مسيحية أوربية » وبارك أحد الأساقفة الأوربيين حملة هولاكو على ديار المسلمين قائلاً : إن الغرب يأمل بها القضاء على أعدائه المسلمين العرب.

وسرعان ما اقترب المغول من مدينة حلب وحاصروها ثم اقتحموها وقتلوا من أهلها

(١)الشرق الإسلامي من الغزو المغولي إلى الفتح العثماني، ص٦١، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٨/ ٦٣ .

خمسين ألف مسلم، أما مدينة دمشق ـ التي فشل الصليبيون في احتلالها ـ فقد سادها الذعر وفرَّ حاكمها الأيوبي السلطان الناصر يوسف وتركها تعلن استسلامها فدخلها خليفة هولاكو « كتبغا » بعد أن سافر هولاكو إلى بلاده «قراقورم» لاختيار خليفة مغولي جديد خلفًا لمنكوخان زعيمهم الذي مات. وعندما سيطر المغول على دمشق خضعت بقية مدن الشام الأخرى للمغول حتى شارفت جحافلهم على مدينة غزة، وبالتالي كانت مصر الهدف التالي لهم.

المبحث السادس
الظاهـر بيبرس

قائد عـمل على إظـهار دين الله وطرد الصـليبيين من الشام، وهـو فاتح مدينة أنطاكيـة بعد طول أسر لها في يد الصليبيين.

المماليك والحروب الصليبية [1]:

كان أول نجاح أحرزه المماليك في وجـه الـصليبيين هـو انتـصارهم في معركـة المنـصورة المعروفة، وإيقاعهم بالملك الفرنسي «لويس التاسع»، زعيم الحملة الصليبية السابعة أسيرًا، ولم يفرج عنه إلا بعد أن تعهد بألا يقصد شواطئ الإسلام مرة أخرى.

وواصل «الظاهر بيبرس» الجهاد ضد الصليبيين، ووضع برنامجًا طموحًا للقضاء عليهم وطردهم من الشام، وبدأت هجماته وحملاتـه في وقـت مبكـر مـن توليـه الـسلطنة؛ فهـاجم إمارة أنطاكية سنة «٦٦٠هـ ـ ١٢٦٢م» وكاد يفتحها، ثم بدأ حربه الشاملة ضد الصليبيين منذ عام «٦٦٣هـ ـ ١٢٦٥م» ودخل في عمليات حربية ضد إمارات الـساحل الـصليبي، وتوج أعماله العظيمة بفتح مدينة أنطاكية سنة «٦٦٦هـ ـ ١٢٦٨م»، بعد أن ظلـت رهينـة الأسر الصليبي على مـدى أكثـر مـن مئـة وخمسين عامًـا، وكـان ذلـك أكـبر انتـصار حققـه المسلمون على الصليبيين منذ أيام حطين واسترداد بيت المقدس.

وواصل المماليك جهادهم ضد الصليبيين في عهد السلطان «المنصور قلاوون»، الـذي تولى السلطنة في سنة «٦٧٨هـ ـ ١٢٧٩م»، فاستولى على «حصن المرقب» سنة «٦٨٤هـ ـ ١٢٨٥م»، واسترد «اللاذقية» سنة «٦٨٦هـ ـ ١٢٨٧م»، وفتح «طرابلس» بعد حصار دام شهرين في عام «٦٨٨هـ ـ ١٢٨٩م» ثم تلتها «بـيروت» و«جبلـة»، ولم يبـق للـصليبيين في الشام سوى «عكا» و«صيدا» و«عتليت» وبعض المدن الصغيرة، وتجهز لفتح «عكا»، غـير

---

(١) فلسطين في خمسة قـرون، ص ٢٤٨، ٢٤٩، ووثـائق الحـروب الـصليبية، ص ٢٥٢، والـشرق الإسـلامي مـن الغزو المغولي إلى الفتح العثماني، ص٦٣ .

أن الـمنيـة كانت أسبق مـن إنجـاز حلمـه؛ فتـوفي في «ذي القعـدة سـنة ٦٨٩هـ ـ نـوفمبر ١٢٩٠م».

المبحث السابع
السلطان الأشــرف خليـل

شاءت الأقدار أن تكون دولة المماليك التي خرجت من رحم الأخطار العاتية التي أحدقت بالعالم الإسلامي هي التي تحمل على كاهلها تصفية الوجود الصليبي، ووقف الزحف المغولي المدمر الذي سحق في طريقه كل شيء، وزرع الفزع والهلع في نفوس الناس، وكاد يهلك ويدمر معالم الحضارة الإسلامية، ولو لم يكن لهذه الدولة من المفاخر سوى هذا لكفاها فخرًا، فما بالك وقد أحيت الخلافة العباسية في القاهرة، وازدهرت في ربوعها الفنون والعلوم والعمارة.

الأشرف خليل:

وبعد وفاة السلطان قلاوون خلفه على السلطنة ابنه «الأشرف خليل»، وشاء الله تعالى أن يطوي آخر صفحة للحروب الصليبية على يديه، وأن ينهي الفصل الأخير من القصة الدامية للحروب الصليبية في بلاد الشام.

لم يكن «الأشرف خليل» محبوبًا من أمراء المماليك، حتى أن أباه لم يكتب له ولاية العهد؛ بسبب شدته وصرامته واستهانته بأمراء المماليك، لكنه كما يقول «ابن إياس» في «بدائع الزهور»: «كان بطلاً لا يكل من الحروب ليلاً ونهارًا، ولا يعرف في أبناء الملوك من كان يناظره في العزم والشجاعة والإقدام».

معركة عكا ونهاية الوجود الصليبي [١]:

استهل «الأشرف» حكمه بالتخلص من بعض رجال الدولة البارزين، الذين كانت لهم السطوة والنفوذ في عهد أبيه، وبإحلال الأمن في جميع ربوع البلاد، وبدأ في الاستعداد لمواصلة الجهاد ضد الصليبيين، وإتمام ما كان أبوه قد بدأه، وهو فتح عكا، وإنهاء الوجود الصليبي.

---

(١) الشرق الإسلامي من الغزو المغولي إلى الفتح العثماني، ص٨٩، والقدس تاريخ وحضارة، ص٢٥٣ .

الاستعداد للمعركة [(١)]:

خرج الأشرف خليل من القاهرة في «صفر سنة ٦٩٠هـ ـ ١٢٩١م» قاصدًا «عكا»، وأرسل في الوقت نفسه إلى كل ولاته بالشام بإمداده بالجنود والعتاد، ونودي في الجامع الأموي بدمشق بالاستعداد لغزو «عكا» وتطهير الشام نهائيًا من الصليبيين، واشترك الأهالي مع الجند في جر المجانيق.

وخرج الأمير «حسام الدين لاجين» نائب الشام بجيشه من «دمشق»، وخرج الملك المظفر بجيشه من «حماه»، وخرج الأمير «سيف الدين بلبان» بجيشه من «طرابلس»، وخرج الأمير «بيبرس الدوادار» بجيشه من «الكرك»، وتجمعت كل هذه الجيوش الجرارة عند أسوار عكا، وقدر عددها بنحو ستين ألف فارس، ومائة وستين ألفًا من المشاة؛ مجهزين بالأسلحة وعدد كبير من آلات الحصار، وبدأت في فرض حصارها على «عكا» في «ربيع الآخر سنة٦٩٠هـ ـ ٥ من إبريل ١٢٩١م»، ومهاجمة أسوارها وضربها بالمجانيق؛ وهو ما مكنهم من إحداث ثقوب في سور المدينة.

اشتد الحصار الذي دام ثلاثة وأربعين يومًا، وعجز الصليبيون عن الاستمرار في المقاومة، ودب اليأس في قلوبهم؛ فخارت قواهم، وشق المسلمون طريقهم إلى القلعة، وأجبروا حاميتها على التراجع؛ فدخلوا المدينة التي استسلمت، وشاعت الفوضى في المدينة، بعد أن زلزلت صيحات جنود المماليك جنبات المدينة، وهز الرعب والفزع قلوب الجنود والسكان؛ فاندفعوا إلى الميناء في غير نظام يطلبون النجاة بقواربهم إلى السفن الراسية قبالة الشاطئ؛ فغرق بعضهم بسبب التدافع وثقل حمولة القوارب.

انهارت المدينة ووقع عدد كبير من سكانها أسرى في قبضة المماليك، وسقطت في يد الأشرف خليل في «١٧ من جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ ـ ١٨ مايو ١٢٩١م»، ثم واصل سعيه لإسقاط بقية المعاقل الصليبية في الشام؛ فاسترد مدينة «صور» دون مقاومة،

---

(١)القدس تاريخ وحضارة، ص ٢٣٥، والشرق الإسلامي ،ص ٨٩ .

و«صيدا» ودمرت قواته قلعتها، وفتح «حيفا» دون مقاومة، و«طرسوس» في «٥ من شعبان سنة ٦٩٠هـ ــ ٣ من أغسطس ١٢٩١م»، و«عتليت» في «١٦ من شعبان عام ٦٩٠هـ».

ظلت الجيوش المملوكية تجوب الساحل الشامي بعد جلاء الصليبيين من أقصاه إلى أقصاه بضعة أشهر تدمر كل ما تعتبره صالحًا لنزول الصليبيين إلى البر مرة أخرى، وبهذا وضع «الأشرف خليل» بشجاعته وإقدامه خاتمة الحروب الصليبية.

عاد السلطان إلى القاهرة يحمل أكاليل النصر، وسار موكبه في الشوارع يسوق أمامه عددًا كبيرًا من الأسرى، وخلفهم جنوده البواسل يحملون أعلام الأعداء منكسة، ورؤوس قتلاهم على أسنة الرماح.

ولم تطل مدة حكم الأشرف خليل أكثر من ثلاث سنوات وشهرين وأربعة أيام؛ فقد كان الود مفقودًا بينه وبين كبار المماليك، وحل التربص وانتظار الفرصة، وكانت يد الأمراء المماليك أسرع في التخلص من السلطان، ولم يشفع عندهم جهاد الرجل في محاربة الصليبيين؛ فكانت روح الانتقام والتشفي أقوى بأسًا من روح التسامح والمسالمة؛ فدبروا له مؤامرة وهو في رحلة صيد خارج القاهرة ـ كما فعل بقطز بعد انتصاره على التتار في عين جالوت ـ وتمكنوا من قتله في «١٢ من المحرم سنة ٦٩٣هـ ــ ديسمبر ١٢٩٣م» وبقيت جثته ملقاة في الصحراء أيامًا إلى أن نُقلت إلى القاهرة؛ حيث دفنت بالمدرسة التي أنشأها لنفسه بالقرب من ضريح السيدة نفيسة.

الباب الثاني

المعارك والوقائع

الفصل الأول : قهر الفرس والروم .

الفصل الثاني : فتوح الأندلس .

الفصل الثالث : أحداث الصليبيين والتتار.

الفصل الرابع : أحداث مأساة القدس وفلسطين.

تمهيد

أنهينا في الباب الأول الحديث عن القادة والتعريف بهم، والإشارة إلى جهودهم وأدوارهم في توحيد الأمة، كما ألمحنا إلى أهم المعارك أو الأعمال العظيمة التي ارتبطت بكل منهم، ولم يكن ثم مقام لتفصيل هاتيك الوقائع وتلك المعارك.

وها نحن ذا في هذا الباب نسعى حثيثًا لرصد أهم الوقائع والمعارك التي رسمت نسيجًا واحدًا ودربًا فذًا لنصرة الإسلام والمسلمين، وغيرت خارطة العالم الوثني والكتابي إلى عالم إسلامي مترامي الأطراف يسوده العدل ويعمه الخير.

وأسأل الله التوفيق والتحقيق فيما صبونا نحوه ، آمين .

الفصل الأول
قهـر الفرس والروم

١٤ ـ حدث
معركة اليرموك وهزيمة الروم
« ١٣ هـ ـ ٦٣٤ م »[(١)]

تُعد معركة اليرموك واحدة من المعارك الكبرى التي خاضها المسلمون ضد الروم «البيزنطيين » إن لم تكن أهمها على الإطلاق.

فقد جاءت وجيش الروم يفوق في العدد جيش المسلمين بمعدل خمسة إلى واحد تقريبًا، « كان جيش الروم تعداده حوالي ٢٤٠ ألف مقاتل وجيش المسلمين حوالي ٤٥ ألفًا ». ولقد كان اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه لخالد بن الوليد رضي الله عنه لقيادة الجيش خطوة بالغة التوفيق.

اجتمع الجيشان في جمادى الآخرة عام ١٣ هـ ودارت المعركة التي لم ينته يومها الأول إلا وكان الروم قد دُحِرُوا وفقدوا نصف جنودهم، بينما استشهد من المسلمين حوالي ثلاثة آلاف شهيد، ولا شك أن تلك المعركة كان قد تم الإعداد لها من قبل أبي بكر الصديق رضي الله عنه،ولكنه توفي قبل أن تبدأ ، ولما جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخلافة أكمل مسيرتها وتم النصر للمسلمين بفضل الله[(٢)].

وعن يوم اليرموك قالوا :

جمع هرقل جموعًا كثيرة من الروم، وأهل الشام، وأهل الجزيرة وأرمينية، وولى عليهم رجلاً من خاصته اسمه تيدور، وعزم على محاربة المسلمين، فإن انتصروا على المسلمين وإلا دخل هرقل بلاد الروم فأقام بالقسطنطينية.

---

(١) موسوعة ألف حدث، ص ٢٩ .

(٢) أرسل عمر لخالد بن الوليد قرارًا بعزله عن قيادة الجيش، ولكن خالد أخفى نبأ عزله عن جنده خشية أن يؤثر ذلك على ثباتهم في القتال، فبقي خالد يقود جنوده أثناء المعركة حتى انتصر المسلمون ثم تنازل عن القيادة لأبي عبيدة بن الجراح.

واجتمع المسلمون في اليرموك ـ وهو اسم نهر ـ تنفيذًا لأمر الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ ، وتحركت جيوش الروم، ونزلت في مكانٍ واسع الطعن، واسع المطرد، ضيق المهرب، وسارت حشود الروم حتى نزلوا الواقوصة قريبًا من اليرموك، وكان المسلمون قد خرجوا بأسلوب جديد في الحرب لم تستخدمه العرب من قبل هو أسلوب الكراديس، والمراد بها تقسيم الجند إلى وحدات، لكل وحدة قائد، وكان عددهم من ستة وثلاثين إلى أربعين كردوسًا[١]، فكان هيكل الجيش الإسلامي على النحو التالي:

الجيش مُقسم إلى فرق خمسة، تضم كل فرقة من عشرة إلى عشرين كردوسًا ولها قائد وأمير، والكردوس عُدَّتُهُ ألف مقاتل، وله قائد وأمير، وهي كما يلي:

< فرقة القلب : مؤلفة من ثمانية عشر كردوسًا بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، ومعه عكرمة بن أبي جهل، والقعقاع بن عمرو.

< فرقة الميمنة : مؤلفة من عشرة كراديس بقيادة عمرو بن العاص، ومعه شرحبيل بن حسنة.

< فرقة الميسرة : مؤلفة من عشرة كراديس بقيادة يزيد بن أبي سفيان.

< فرقة الطليعة «المقدمة» : من الخيالة والمخافر الأمامية، ومهمتها الاستطلاع والحفاظ على التماس مع العدو، ولذلك كانت فرقة صغيرة وخفيفة.

< فرقة المؤخرة : مؤلفة من خمسة كراديس ، بقيادة سعيد بن زيد، ومهمتها: قيادة الظعن «الأمور الإدارية»، وكان القاضي هو أبا الدرداء، وعلى الأقباض عبدالله بن مسعود، ومهمته تأمين الأمور الإدارية، والإعاشة، وجمع الغنائم، والقارئ المقداد بن الأسود، وكان يدور على الناس ويقرأ سورة الأنفال وآيات الجهاد لرفع المعنويات، وخطيب الجيش: أبو سفيان ابن حرب، وهو يطوف على الصفوف[٢].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري، ص ١٨٤، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

(٢) البداية والنهاية ٧/ ٨ .

ولما تراءى الجمعان وعظ أبو عبيدة المسلمين، وخرج معاذ بن جبل يذكرهم، ووعظ كذلك أبو هريرة ـ رضي الله عنهم جميعًا، وجعل معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كلما سمع أصوات القسيسين والرهبان يقول: «اللهم زلزل أقدامهم، وارعب قلوبهم، وأنزل علينا السكينة، وألزمنا كلمة التقوى، وحبب إلينا اللقاء، وأرضنا بالقضاء»(١).

وأقبل الروم بخيلهم وخُيلائهم، واتبعوا في قتالهم الترتيب التالي :

ـ الرماة في المقدمة، وواجبهم أن ينشبوا القتال ثم الانسحاب إلى الوراء.

ـ الخيالة بالجناحين، وواجبهم حماية الرماة حتى انسحابهم من الخلف.

ـ الكراديس «المشاة» وواجبهم الاقتحام.

ـ وكان قائد المقدمة: جرجة، وقائد الجناحين: ماهان، والدّراقص(٢).

المفاوضات قبل القتال :

لما تقارب الجمعان تقدم أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان نحو الجيش ومعهما ضرار بن الأزور والحارث بن هشام، ونادوا على الروم، إنما نريد أميركم لنجتمع به، فأذن لهم، وتفاوضوا على الصلح، ودعوهم إلى الله عز وجل، فلم يتم ذلك.

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية (٣) أن باهان طلب خالد بن الوليد ليبرز له فيما بين الصفين فيجتمعا في مصلحة لهم، فقال باهان: «إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهد والجوع، فهلموا إلى أن أعطي كل رجل منكم عشرة دنانير وكسوة وطعامًا وترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها»، فقال خالد : «إنه لم يُخْرِجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنَّا قومٌ نشرب الدماء، وأنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم، فجئنا لذلك»، فقال أصحاب باهان: «هذا والله ما كنا نحدث به عن العرب».

---

(١)الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، د.علي محمد محمد الصلابي، ص٣٩٢.

(٢)المرجع السابق ، ص ٣٩٢ .

(٣)البداية والنهاية ٧/ ١٠ .

وليس معنى كلام خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على حقيقته، وإنما تم بعد حوار طويل، وأراد من وراء هذا القول أن يلقي الرعب في قلوب الرومان قبل المعركة، وَشَاهِدُ هذا ما ورد عن إسلام أحد قادة الروم في ميدان المعركة، فقد خرج جَرْجَة وهو أحد الأمراء الكبار من الصف واستدعى خالد بن الوليد فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما فقال جرجة:

« يا خالد، أخبرني فاصدقني ولا تكذبني، فإن الحُرَّ لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخدع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسله على أحد إلا هزمتهم؟».

قال: لا. قال: فبم سُمِّيتَ سيف الله؟

قال: إن الله بعث فينا نبيه فدعانا، فنفرنا منه، ونأينا عنه جميعًا، ثم إن بعضنا صدّقه وتابعه، وبعضنا كذبه وباعده، فكنتُ فيمن كذّبه وباعده، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه، فقال لي: «أنت سيفٌ من سيوف الله سلَّهُ على المشركين»، ودعا لي بالنصر، فسُمِّيتُ سيف الله بذلك، فأنا أشد المسلمين على المشركين.

فقال جرجة : يا خالد إلى ما تدعون ؟

قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله عز وجل.

قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم.

قال: فإن لم يعطها ؟ قال : نؤذنه بالحرب، ثم نقاتله.

قال: فما منزلة من يجيبكم ويدخل في هذا الأمر اليوم؟

قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا.

قال جرجة : فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذخر؟

قال: نعم، وأفضل.

قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟

فقال خالد : إنا قبلنا هذا الأمر عنوة وبايعنا نبينا وهو حيٌّ بين أظهرنا، تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتاب ، ويرينا الآيات، وحُقَّ لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحُجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية، كان أفضل منا.

فقال جرجة : بالله لقد صدقتني ولم تخادعني؟

قال: تا لله لقد صدقتك وأن الله وليُّ ما سألتَ عنه.

فعند ذلك قلب جرجة الترس ومال مع خالد وقال: علمني الإسلام، فمال به خالد إلى فسطاطة فَسَنَّ [1] عليه قِربَةً من ماء، ثم صلى به ركعتين، وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد وهم يرون أنها منه حملة فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية، عليهم عكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام [2] .

وتقدمت صفوف الرومان وأقبلت بهجوم عام على المسلمين واستطاعوا إحداث ثغرة في صفوف المسلمين، فقال معاذ بن جبل: يا عباد الله المسلمين، إن هؤلاء شدوا عليكم، ولا والله لا يردهم إلا صِدْقُ اللقاء، والصبر في البلاء، ثم نزل عن فرسه وقال: من أراد أن يأخذ فرسي ويقاتل عليه فليأخذه، وآثر بذلك أن يقاتل راجِلاً مع المشاة، وثبت عدد كبير من المسلمين، ثم تنادوا فتراجعوا حتى نهنهوا الروم من أمامهم [3] .

وقال عكرمة بن أبي جهل : قاتلتُ رسول الله ﷺ في مواطن وأفرّ منكم اليوم؟ ثم نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربع مئة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أُثْبتوا جميعًا جراحًا، وقُتِلَ منهم خَلْقٌ، منهم ضرار بن الأزور رضي الله عنه .

وذكر الواقدي وغيره أن بعض المسلمين لما صُرِعُوا من الجراح استسقوا ماء،

---

(١) سَنَّ: صَبَّ.

(٢) البداية والنهاية ٧/ ١٣ .

(٣) فتوح الشام للأزدي ، ص ٢٢٢ .

فجيء إليهم بشربة ماء فلما قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه، فتدافعوا كلهم من واحد إلى واحد، حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحدٌ منهم ــ رضي الله عنهم أجمعين، ولا يخفى ما في هذه المواقف من الإيثار والأخوَّة في أعظم المواطن وأشدها:

جَادُوا بالرُوحِ وَمَا بَخِلُوا بِالْمَالِ فَـأَكْرِمْ بِالْجُودِ

وتوالت المواقف حتى قيل: إن أول من قُتِل من المسلمين يومئذٍ شهيدًا، رجلٌ جاء إلى أبي عبيدة فقال: إني قد تهيأتُ لأمري، فهل لك حاجة إلى رسول الله ﷺ، قال: نعم، تقرئه عني السلام، وتقول: «يا رسول الله، إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا»، قال: فتقدم هذا الرجل حتى قُتِلَ - رحمه الله، وثبت كل قوم على رايتهم حتى صارت الروم تدور كأنها الرحا، فلم ترَ يوم اليرموك إلا مُخًّا ساقطًا، ومِعْصَمًا نادرًا، وكفًا طائرة من ذلك الموطن[1].

وحمل المسلمون على الروم بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه فَقَتَلَ منهم ستة آلاف، ثم قال: والذي نفسي بيده لم يبق عندهم من الصبر والجلد غير ما رأيتم، وإني لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم، ثم اعترضهم فحمل بمئة فارس معه على نحو مئة ألف فما وصل إليهم حتى انفض جمعهم، وحمل المسلمون عليهم حملة رجلٍ واحد، فانكشفوا وتبعهم المسلمون لا يمتنعون منهم، وأبلى المسلمون بها بلاءً حسنًا، واستطاع المسلمون أن يفصلوا فرسان الروم عن مشاتهم، وركبوا أكتافهم حتى أرهقوهم، وهرب فرسان الروم بأمر من خالد بن الوليد لعمرو بن العاص، وأخَّرَ الناس صلاتي العشاءين حتى استقر النصر، وكان عدد شهداء المسلمين ثلاثة آلاف، وقتلى الروم مئة وعشرين ألفًا، وهناك ثمانون ألف مقيد بالسلاسل، وأربعون ألف مطلق سقطوا جميعهم في الوادي.

وفرح المسلمون بهذا النصر، غير أن خبر وفاة الصديق لم يتم فرحتهم، لحزنهم عليه، وعوضهم الله تعالى به ثاني الراشدين عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ١٢ .

ومما قيل من الشعر في يوم اليرموك ، قول القعقاع بن عمرو :

ألم ترنا على اليرموك فزنا كما فزنا بأيام العراق

وعذراء المدائن قد فتحنا ومرج الصفر بالجرد العتاق [١]

فتحنا قبلها بصري وكانت محرمة الجناب لدي النعاق [٢]

قتلنا من أقام لنا وفينا نهابهم بأسياف رقاق

قتلنا الروم حتى ما تساوى على اليرموك معروق الوراق

فضضنا جمعهم لما استجالوا على الواقوص بالبتر الرقاق [٣]

غداة تهافتوا فيها فصاروا إلى أمر يعضل بالذواق [٤]

وأصاب هرقل هَمّ وحزن لِما أصاب جيشه في اليرموك، حتى أنه قال لهم: أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشرًا مثلكم؟ قالوا: بلى.

قال : فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن.

قال: فما بالكم تنهزمون؟

فقال شيخٌ منهم: «من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنَّا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونَغْصِب، ونظلم، ونأمر بالسخط، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض، فقال: أنتَ صدقتني»[٥].

---

(١)العِتاق : الخيول .

(٢)النعاق : صوت الغراب .

(٣)الواقوص : اسم موضع. والبتر الرقاق : السيوف القاطعة.

(٤)البداية والنهاية ٧ / ١٥ ، وفتوح البلدان للبلاذري ، ص ١٧١ .

(٥)البداية والنهاية ٧/ ١٥ ، ١٦ .

١٥ ـ حــدث
انتصار المسلمين الكبير في القادسية
« ١٤ هـ ـ ٦٣٤ م »[(١)]

يبدو أن الفرس حاولوا ـ ربما للمرة الأخيرة ـ جمع شملهم وتوحيد صفوفهم، آملين أن تبقى إمبراطوريتهم على قيد الحياة ، وساعد على ذلك أن تولى حكمهم يزدجرد صغير كسرى الذي لم يكن يعلم أن زوال دولته قد حان.

ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تمسك بأسس الإسلام والتزم بالشورى، وأخذ يستفتي الناس في أمر قتال الفرس فساندوه، وأخذ المسلمون من أنحاء الجزيرة العربية كافة يتجمعون حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفًا ، ووافق عمر رأي مستشاريه في أن يتولى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قيادة الجيش، فتحرك المسلمون تجاه فارس، وخرج الفرس لملاقاتهم وكان عددهم يماثل أربعة أضعاف جيش المسلمين.

والتقى الجمعان، جيش مسلح بنور الإيمان والاستعداد للشهادة، وجيش غلبته الأطماع وسيطرت عليه رغبات النفس، ودارت معركة كبرى استمرت ثلاثة أيام انتهت بانتصار المسلمين وهزيمة الفرس ومقتل قائد جيشهم رستم.

وتعد معركة القادسية إحدى أهم المعارك الكبرى في تاريخ الفتوحات الإسلامية والمعركة التي قضت تقريبـًا على الإمبراطورية الفارسية.

وبداية أحداث المعركة كانت مع هزيمة الفرس في معركة البُوَيِّب، فدفعتهم هزيمتهم إلى توحيد كلمتهم وتجميع صفوفهم ليتمكنوا من دفع المسلمين الذين أصبحوا يهددون عاصمتهم، وألقى الفُرْسُ باللائمة على قوادهم، وقالوا: والله ما جرَّ هذا الوهن علينا غيركم يا معاشر القوَّاد!! لقد فرّقتم بين أهل فارس، وثبطتموهم عن عدوهم، والله لولا

---

(١)موسوعة ألف حدث ، ص ٣٠ .

أن في قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم القتل الساعة، ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك، وقد اشتفينا منكم، فاستقر رأيهم على أن يكون الملك عليهم يزدجرد، وهو من ولد شهريار بن كسرى، وكان شابًا في الواحدة والعشرين من عمره، فاجتمعوا عليه، وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته، وعزم على حماية ملكه وطرد المسلمين منه، وأعدَّ العدة، وسلَّح الجنود بكل مسلحة وثغر، وكوَّن جيشًا تعداده مائة وعشرين ألف مقاتل، أسند قيادته إلى رستم أعظم قواد فارس في ذلك الوقت.

وعلى الناحية الأخرى فقد كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد وانضموا إلى الفرس، مما أدى إلى ضعف قوة المسلمين، وانحسب المثنى بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ذي قار بعد أن كتب إلى الخليفة باستعدادات الفرس، وعندما وصل كتاب المثنى إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أجابه بأن يخرج من بين ظهري الأعاجم ويرابط في المياه التي تلي الأعاجم على الحدود، ولا يدع في ربيعة ولا مضر ولا حلفائهم أحدًا من أهل النجدات ولا فارسًا إلا اجتلبتموه، احملوا العرب على الجد إذا جد العجم.

وكتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عمال العرب على الكور والقبائل في ذي الحجة عام ١٣هـ، لا تَدَعُوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجّهتموه إليَّ، والعَجَلَ العَجَلَ.

وتوافدت القبائل بقوادها إلى المدينة، فلما تكامل عددهم خرج بهم عمر في أول المحرَّم سنة ١٤هـ، فَعَسْكَرَ في حرار على ثلاثة أميال من المدينة في طريق العراق، والعامة تقول سِرْ وسِرْ بنا معك، فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرج منه في رفق، وقد أفلح ذوو الرأي من الصحابة الكرام - رضي الله عنهم جميعًا - في حمل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الإقامة في المدينة على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ويمده بالجنود، واستقر رأيهم على تولية سعد بن أبي وقاص قيادة جيش المسلمين الذي بلغ بضعة وثلاثين ألفًا فيهم كثير من صحابة رسول الله ﷺ، ولم يدع عمر رئيسًا، ولا ذا رأي، ولا ذا شرف، ولا ذا سلطة، ولا خطيبًا، ولا شاعرًا إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغُرَرِهم[1].

---

(١)تاريخ الطبري ٣/ ٤٨٧ .

وأوصى عمر سعدًا ـ رضي الله عنهما ـ عندما أمَّره على حرب العراق فقال: «يا سعد ابن وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ، وصاحب رسول الله ﷺ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحدٍ نسب إلا بطاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ منذ بُعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر».

وبعد ذلك توجَّه سعد رضي الله عنه إلى العراق ليقود أكبر جيش توجَّه إلى الفرس، ولم يسعده الحظ بلقاء المثنى الذي لَقِيَ اللَّهَ متأثرًا بجراحه التي أصابته يوم الجسر ـ معركة من معارك المسلمين مع الفُرس ـ ولكنه تقدم إلى سعد ـ رضي الله عنهما، قبل وفاته بوصية بعثها مع أخيه يقول لسعد فيها: «قاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجرٍ من أرض العرب، وأدنى مدرة من أرض العجم، فإن يظهر المسلمون عليهم فلهم ما وراءهم، وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة، ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يَرُدَّ الله الكَرَّةَ عليهم»[1].

نزل سعد رضي الله عنه بالقادسية بعد أن أمَّر أمراء الأجناد، وأمَّر على الرايات رجالاً من أهل السابقة، وجعل على كل عشرة أميرًا، وعين الأطبة، وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ـ ذا النور، وجعل إليه الأفياض، وقسمة الفيء، وجعل داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسي، وكان عمر رضي الله عنه يعلم بكل تحرك للجيش كأنه شاهدٌ معهم.

أقام سعد بالقادسية شهرًا كان يرسل فيه طلائعه للإغارة على أهل السواد وبث الغارات بين كسكر والأنبار فحققوا من الأطعمة ما كانوا يستكفون به زمانًا، كما بعث عيونه إلى أهل الحيرة وإلى صَلُوبَا ليعلموا له الخبر، وتحركات أهل فارس، فرجعوا إليه بنزول رستم بساباط.

---

(١) المرجع السابق ٣/ ٤٩٠ .

فبعث سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأمر عمر لهم رجالاً من أهل الرأي والنظر إلى مَلِكِهِمْ يزدجرد، فأذن لهم.

فجمع يزدجرد وجوه دولته وقال لرسل المسلمين: ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟ أمن أجل أن تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟

فأجابه النعمان بن مقرن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مبينًا بعثة الرسول ﷺ، وتاريخ الدعوة الإسلامية وأهدافها، وموقف العرب منها وانضواءهم تحت لوائها، ودعاه إلى الإسلام، «وأن الرسول ﷺ أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حَسَّن الحسن، وقَبَّحَ القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شرٌ منه الجزاء ـ أي الجزية ـ فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن بذلتم الجزية قبلنا منكم ومنعناكم وإلا قاتلناكم».

فقال يزدجرد : «إني لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى ولا أقل عددًا ولا أسوأ ذات بين منكم، فقد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفونا أمركم، ولا تطمعوا أن تقوموا لفارس، فإن كان غرورٌ لَحِقَكُم فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد فرضنا لكم قوتًا إلى خِصْبِكُمْ، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم، وملكنا عليكم ملكًا يرفق بكم»[1].

فقام قيس بن زرارة فقال: «أما ما ذكرتم من سوء الحال، فكما وصفت وأشد»، ثم ذكر من عيش ورحمة الله بهم بإرسال النبي ﷺ مثل مقالة النعمان.

ثم قال قيس: «اختر إما الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، أو السيف، وإلا فَنَجِّ نفسك بالإسلام».

فقال يزدجرد: «لولا أن الرُّسل لا تُقْتَل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي». ثم استعدى بوقر من تراب وقال: احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن،

(١) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، للخضري، ص ٩١، ٩٢ .

وهددهم بإرسال رستم إليهم ليدفنهم في خندق القادسية[١].

وقد ترددت الرسل بين سعد ورستم رغبة في الصلح، وكان المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هو المتحدث بلسان وفد المسلمين، ولكن رستم ومن ورائه الفرس قالوا: لاصُلح بيننا وبينكم، فقال المغيرة: تعبرون إلينا أو نعبر إليكم، فقال رستم: بل نعبر إليكم، فعبر الفرات.

وعبأ كل من القائدين رجاله، ودارت معركة قاسية بين الفريقين استمرت أربعة أيام، رجحت في اليوم الأول كفة الفرس بسبب ذعر خيول المسلمين من فيلة الفرس، ويسمى هذا اليوم بيوم أرماث لاختلاط أمرهم.

وفي اليوم الثاني ابتدئ بدفن القتلى، ثم حمل الجرحى إلى من يقوم بتمريضهم من النساء، وقد وصل إلى جيش المسلمين مدد من الشام بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، فشد ذلك من أزر المسلمين، وقد ابتكر المسلمون حيلة أخافوا بها خيول الفرس بأن حيلوا الإبل وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس منها ما لقيته خيول المسلمين من الفيلة في اليوم الأول، وقد استمر القتال شديدًا إلى منتصف الليل، وكانت كفة جيش المسلمين أرجح، حيث قتلوا من الفرس عشرة آلاف، واستشهد ألفان من المسلمين، ويُعرف ذلك اليوم بيوم أغواث لورود الغوث فيه.

وفي اليوم الثالث بعد دفن القتلى ونقل الجرحى التقى الجيشان بحنقٍ وغيظ وعادت فيلة الفرس تفعل فعلها في خيول المسلمين فوجَّه جنود المسلمين رماحهم إلى عيونها ومشافرها ـ نزولاً على رأي القعقاع بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ فأحدثت خللاً كبيرًا في صفوف الفرس، إذ نفرت الفيلة وولَّت الأدبار، وأضعف ذلك من قوة جيش الفرس، وأقبل الليل والمعركة حامية الوطيس، ولم يسمع في تلك الليلة إلا صليل السيوف، وهدير الفرسان، حتى أشرقت شمس اليوم الرابع والقتال مستمر إلى انتصاف النهار، فمكَّن الله المسلمين من جيش

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٤٩٨ ـ ٥٠١.

الفرس، واشتدت وطأة المسلمين على قلبه وجناحيه، واستطاع هلال بن علقمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يخلص إلى سرادق رستم فقتله، ونادى: قتلتُ رستم ورب الكعبة، فكبَّر المسلمون، واشتدت حملتهم على الفرس فولوا الأدبار وتبعهم المسلمون حتى أجلوهم إلى ضفة الفرات الشرقية، وسُمِّي هذا اليوم من أيام القادسية بيوم عِمَاس[1] ـ أي الحرب الشديدة ـ وسمِّيت ليلته بليلة الهرير، ولم يخض المسلمون موقعة أشد منها هولاً، لا مع الفرس ولا مع غيرهم، وقد استشهد فيها قرابة ثمانية آلاف من المسلمين، وقُتِلَ من الفُرس ثلاثون ألفًا.

وكتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ قائلاً له: «أما بعد، فإن الله نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بِعِدَّةٍ لم يَرَ الراؤون مثل زهائها، فلم ينفعهم الله بذلك، بل سلبهموها ونقله عنهم إلى المسلمين، وأتبعهم المسلمون على الأنهار، وعلى طفوف الآجام وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارئ، وفلان، وفلان، ورجال من المسلمين لا نعلمهم الله بهم عالم، كانوا يُدَوُّون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل دَوِي النحل، وهم آساد الناس لايشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تُكْتَب لهم».

وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قلقًا يخرج في كل يوم إلى طريق العراق يسأل الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار، ثم يرجع إلى أهله ، وذات يومٍ لقي البشير فسأله عمر من أين؟ فأخبره، قال: يا عبدالله حدثني، قال: هزم الله العدو، وعمر ينحب معه، ويستخبره، والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين، فقال الرجل: فهلا أخبرتني ـ رحمك الله ـ أنك أمير المؤمنين، وعمر يقول: لا عليك يا أخي هات ما عندك؟ فسلمه الكتاب بالنصر وبما أفاء الله على المسلمين[2].

---

(١) ويقال عنه أيضًا: يوم عمواس.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٣ بتصرف يسير.

وبعد تمام الهزيمة للفرس أمر سعد بجمع الأسلاب والغنائم، وكانت شيئًا كثيرًا، فقسَّمها كما أمر الله سبحانه وتعالى، وهنأ جنوده بهذا النصر المبين، وبعث بالْـخُمس والبشارة إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وتُعد هذه الموقعة أعظم وقعات المسلمين مع فارس؛ لأنهم جمعوا فيها كل إمكانياتهم التي تمكن المسلمون من سحقها، بحيث لم يستطع الفرس حشد قوة مماثلة لها، كما أضعفت روحهم المعنوية، وحطمت قوتهم المادية، ورفعت - بلا شك - روح المسلمين المعنوية، فقد قُتِلَ من أهل فارس مشاهيرهم وكبار قوادهم، وقُتِل الكثير منهم غرقًا وقتلاً.

وقال بِشر بن ربيع الخثعمي يصف يوم القادسية:

تذكر – هداك الله – وقع سيوفنا ... بباب قديس والمكر عسير

عشية ود القوم لو أن بعضهم ... يعار جناحي طائر فيطير

إذا ما فرغنا من قراع كتيبة ... دلفنا لأخرى كالجبال تسير

ترى القوم فيها واجمعين كأنهم ... جمال بأحمال لهن زفير [(١)]

---

(١)واجم: من الوجوم، وهو السكوت وكظم الغيظ، انظر: فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، للصلابي، ص ٥٢٠ .

١٦ ـ حدث
هزيمة الروم في موقعة أجنادين
« ١٥ هـ ـ ٦٣٥ م »[(١)]

عندما بعث الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن العاص رضي الله عنه لفتح فلسطين، كان الروم بها على بينة من نوايا عمرو فاستعدوا لمقاتلته، وحشدوا قواتهم ومعداتهم لمقابلته، ودارت معركة كبرى في موقع شرق مدينة القدس يسمى أجنادين. كان المسلمون بقيادة عمرو بن العاص، والروم بقيادة أرطبون . وانتصر المسلمون بعد معارك طاحنة وخسائر شديدة في الجانبين.

يقول البلاذري : يوم أَجْنَادِينَ، وَيُقَالُ: أَجْنَادَيْن، وعنها يحدثنا ـ رحمه الله ـ فيقول: شهدها من الروم زهاء مائة ألف، سرَّب هرقل أكثرهم وتجمَّع باقوهم من النواحي، وهرقل يومئذٍ مقيم بحمص، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديدًا، وأبلى خالد بن الوليد رضي الله عنه يومئذٍ بلاء حسنًا، ثم إن الله هزم أعداءه ومَزَّقَهُم كل ممزق، وقال: إنها كانت يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ١٣هـ[(٢)].

أما غيره من المؤرخين فقد قال: إن فتح أجنادين وبيت المقدس كان سنة ١٥هـ، وذلك عندما توجَّه أبو عبيدة وخالد إلى حمص، وكان عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة يحاولان فتح فلسطين وبيت المقدس، فتمكن معاوية بن أبي سفيان من فتح قيسارية، وصالحت الأردن شرحبيل، وزحف عمرو بن العاص إلى أجنادين وعلى مقدمته شرحبيل، وكان على رأس الروم في أجنادين الأرطبون، وكان أدهى الروم وأبعدهم غورًا، وأنكاهم فعلاً، ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظر عما تنفرج»، وقد أقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة،

---

(١) موسوعة ألف حدث، ص ٣١ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

ثم كانت الحرب بينهم فاقتتلوا قتالاً شديدًا كقتال اليرموك، حتى كثرت القتلى بينهم، ثم انهزم الروم، وأوى الأرطبون إلى إيليا، ونزل عمرو أجنادين[(١)].

وكانت الأحداث أن سار عمرو بن العاص إلى أجنادين لأنها مقدمة لبيت المقدس، وأجنادين موقع قريب من الفالوجة ومكان عبور فلسطين من الجنوب، ولما رابط فيها الأرطبون لأنها قوة للروم في الرملة، إضافة للقوة الأخرى في بيت المقدس، لذا كانت إذا جاءت قوات داعمة إلى عمرو بن العاص أرسل بها تارة إلى الرملة وأخرى إلى بيت المقدس، ليشاغلوا الروم في تلك الجهات خوفًا من دعمهم للأرطبون في أجنادين، وطال تأخر الفتح في أجنادين، وسارت الرسل بين الطرفين، ولم يشف أحدهما غليل عمرو، فسار بنفسه باسم رسول، ودخل على الأرطبون، وجرى الحديث بينهما، استنتج الأرطبون أن هذا الرسول إنما هو عمرو بالذات، أو أنه شخص ذو قيمة وأثر بين المسلمين، وقال في نفسه: ما كنت لأصيب القوم بأمر هو أعظم من قتله، فدعا حارسًا فَسَارَّهُ وأمره بالفتك به، فقال: اذهب فقم في مكان كذا وكذا، فإذا مَرَّ بك فاقتله، ففطن عمرو بن العاص، فقال للأرطبون: أيها الأمير إني قد سمعتُ كلامك وسمعتَ كلامي، وإني واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب لنكون مع هذا الوالي لنشهد أموره، وقد أحببتُ أن آتيك بهم يسمعوا كلامك ويروا ما رأيت، فقال الأرطبون: نعم! فاذهب فائتني بهم، ودعا رجلاً فَسَارَّهُ فقال: اذهب إلى فلان فردّه.

وقام عمرو بن العاص رضي الله عنه فرجع إلى جيشه، ثم تحقق الأرطبون أنه عمرو بن العاص نفسه فقال: «خدعني الرجل، هذا والله أدهى العرب».

وبلغ ذلك عمر بن الخطاب فقال: «لله دَرُّ عمرو».

وحَدَثَ قتالٌ بعد ذلك كقتال يوم اليرموك ــ كما سبق بيانه ــ ثم دخل المسلمون أجنادين منتصرين، وتقدموا نحو بيت المقدس[(٢)].

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٦٠٨، ٦٠٩.

(٢) التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر ٣/ ١٦٢.

وبهذا خطا المسلمون خطوة أخرى نحو بيت المقدس لفتحه ورفع الظلم عن أهله، ونشر الإسلام بين ربوعه، حتى لا تكون فتنة، ويكونَ الدينُ كله لِلَّـه.

١٧ ـ حدث
موقعة نهاوند
« ١٨ هـ ـ ٦٣٩ م » (١)

تعتبر معركة نهاوند « في الشمال الشرقي من نهر الفرات » هي آخر معارك المسلمين ضد الفرس، وفيها كان يزدجرد قد تمكن من جمع جيش قوامه مئة ألف فارس، والتقى جيش المسلمين بقيادة النعمان بن مقرن رضي الله عنه وعدده ثلاثون ألف مقاتل. وبانتهاء المعركة كان الفرس قد دُحِرُوا؛ حيث قُتِلَ ثلث جيشهم وفرّ الباقي منهم إلى الشرق، أما مَلِكُهُمْ فقد هرب إلى إحدى القرى بتركيا وظل متواريًا عن الأنظار حتى اغتاله أحد المقربين منه عام ٣١ هـ.

فبعد هزيمة الفرس في المدائن اجتمعوا في جلولاء ، محاولين استرداد عاصمتهم، ولكن المسلمين تمكنوا من هزيمتهم، ولما علم يزدجرد بالهزيمة ترك حلوان إلى الري، فسار المسلمون على رأسهم القعقاع بن عمرو رضي الله عنه إلى حلوان واحتلوها، وتمكنوا من الاستيلاء على تكريت والموصل من الجزيرة، وقد وقف المسلمون بحركة الفتح شرقًا عند حلوان نهاية العراق العربي، وذلك بأمر من الخليفة بعدم التقدم إلى ما وراءها كي لا يتورط المسلمون فيما لا يعرفون مسالكه من البلاد، وحتى يتمكنوا من توطيد أقدامهم في المناطق التي استولوا عليها من الفرس.

وحاول يزدجرد في سنة ٢١هـ أن يخوض معركة أخرى ضد المسلمين لعله يتمكن من طردهم من الأقاليم التي استولوا عليها، فجمع من الولايات الباقية على طاعته جيشًا كبيرًا تعداده مئة وخمسين ألفًا، وأمَّر عليهم ذا الحاجب الذي تقدم إلى نهاوند وعسكر فيها، وكان تقسيم الجند على النحو التالي: ثلاثون ألفًا من الباب إلى حلوان، وستون ألفًا من خراسان إلى حلوان، ومثلها من سجستان إلى حلوان، وقالوا: بل جعل عليهم

---

(١)انظر : موسوعة ألف حدث ص ٣٤ .

يزدجرد الفيرزان قائدًا[١].

وقد احْتَشَدَ الفرس في هذه المدينة؛ لأنها مدينة منيعة تحيط بها الجبال من كل جانب، ولا يمكن الوصول إليها إلا عبر مسالك وعرة صعبة.

وبلغت أنباء هذه الحشود عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فولَّى النعمان بن مقرن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قيادة الحرب ضد هذه الحشود، وجمع له جيشًا من أهل الكوفة والبصرة والحجاز بلغ تعداده ثلاثين ألف مقاتل، وتحرّك الجيش الإسلامي، وعندما وصلوا إلى نهاوند وجدوا الفرس في حصونٍ قوية ولا يخرجون للقتال إلا إذا شاؤوا؛ فحولها خندق عميق، وأمام الخندق حسك شائك مربع الأضلاع يثبت منه ضلع في الأرض، وتظل الأضلاع الثلاثة الباقية أو اثنان منها على الأقل لتعيق تقدم المهاجمين أو تؤذي خيالتهم بإحداث ثقوب في حوافر جيادهم مما يمنعها من متابعة الجري، وكان جيش الفرس داخل سور المدينة على تعبئة شديدة[٢].

لقد اصطدمت خيول المسلمين بالحسك الشائك ثم بالخندق فلم يستطيعوا اجتيازها، بينما تولى رماة الفرس رمي جند المسلمين الذين تمكنوا من الاقتراب من السور، واستمر الأمر كذلك لمدة يومين، وجمع النعمان أركان الجيش الإسلامي لتدارس الوضع معه، واستطاعوا أن يخرجوا من هذه الحصون بخدعة حربية هي قيام فرقة من المسلمين باستفزاز الفرس، فينشب القتال بينهم، ثم تتراجع كأنهم منهزمون، فيتبعهم الفرس طمعًا في هزيمتهم، وقد قام القعقاع بن عمرو بذلك، فأنشب القتال معهم ثم تقهقر فظنها الفرس هزيمة فاغتنموها وخرجوا يتبعونه، فأمر النعمان المسلمين بالهجوم عليهم بعد أن هز اللواء ثلاث مرات وهو يُكَبِّر، ثم قال: «اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام، وَذُلٍّ يذل به الكفار، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة»، وطلب من المسلمين أن يؤَمِّنُوا على دعائه.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٠٩ .

(٢) فصل الخطاب، ص ٥٣٩ بتصرف.

وقد حمل كل مسلم على من يليه من العدو حملةً واحدة، فما كان من المسلمين أحد يريد أن يرجع إلى أهله حتى يُقتَل أو يظفر، ودارت رحى معركة مريرة قاسية أريق فيها الغزير من الدماء، وثبت الفرس، فما كان يسمع إلا وقع الحديد على الأرض، حتى أصيب المسلمون ولكنهم صبروا ولم يبرحوا أرض المعركة حتى ينتصروا، واستطاع القعقاع بن عمرو رضي الله عنه أن يطارد الفيرزان فلحقه وقضى عليه، ودخل المسلمون بعد هذه المعركة نهاوند وهمذان، وشد المسلمون على الفرس بعد مقتل الفيرزان وحملوا عليهم، فهزموا وكانوا شدوا أنفسهم بالسلاسل لئلا يفروا، فكلما وقع منهم واحد يقع عليه سبعة بعضهم على بعض في قيادٍ فيُقْتَلُون جميعًا.

وقد أصيب النعمان رضي الله عنه بنشابة في خاصرته فقتلته، فأخفى أخوه موته، وحمل اللواء حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، وتابع المسلمون القتال حتى تحققت الهزيمة على الفرس، وكُتِبَ إلى عمر بالفتح مع رجل من المسلمين، فلما أتاه قال له: أَبْشِر يا أمير المؤمنين بفتحٍ أعزّ الله به الإسلام وأهله، وأَذَلَّ به الكفر وأهله.

فحَمِدَ عمر الله عز وجل، ثم قال: النعمان بعثك؟

قال: احتسب النعمان يا أمير المؤمنين.

فبكى عمر واسترجع ، وقال: ومن استشهد أيضًا!

قال: فلان، وفلان، وفلان، حتى عدَّ لـه ناسًا كثيرين، ثم قال: «وآخرون يا أمير المؤمنين لا تعرفهم».

فقال عمر وهو يبكي: «لا يضرهم ألا يعرفهم عمر، ولكن الله يعرفهم»(١).

وقد سُمِّي يوم نهاوند بفتح الفتوح، إذ لم تقم بعدها مواقع كبيرة بين المسلمين والفرس، فكانت موقعة نهاوند هي الفاصلة في الحرب مع الفرس وتبعها استيلاء المسلمين على باقي أراضي فارس.

(١)تاريخ الطبري ٤/ ١٢٠، والبداية والنهاية ٧/ ١١٤ .

وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف.

ومما يستحق الذكر أن المسلمين عثروا في غنائم نهاوند على سفطين مملوءين جوهرًا نفيسًا من ذخائر كسرى، فأرسلهما حذيفة إلى عمر مع السائب بن الأقرع ـ رضي الله عنهم جميعًا ، فلما أوصلهما له قال: ضعهما في بيت المال، والحق بجندك، فركب راحلته ورجع، فأرسل عمر وراءه رسولاً يجب السير في أثره حتى لحقه بالكوفة فأرجعه، فلما رآه عمر قال: ما لي والسائب، ما هو إلا أن نِـمْـتُ الليلة التي خرجتَ فيها، فباتت الملائكة تسحبني إلى السفطين يشتعلان نارًا يتوعدونني الكي إن لم أقسمهما، فخذهما عني وبعهما في أرزاق المسلمين، فبيعا بسوق الكوفة.

فرضي الله عنك يا عمر ، لقد سرتَ بسيرة نبيك، فعززتَ وأَعْـزَزْتَ الإسلام والمسلمين، اللهم ألهمنا الاتباع، واكفنا شر الابتداع[1] .

---

(١)إتمام الوفاء ، ص ١٢٢، والسفط : وعاء من قضبان الشجر.

الفصل الثاني
فـتــوح الأنـدلــس

فتـوح الأنـدلـس

١٨ ـ حـدث

فتـح الأندلـس ٩٢ هـ [١]

وجه عبد العزيز بن مروان، موسى بن نصير مولى بني أمية واليًا على إفريقية، ويقال: بل وليها في زمن الوليد بن عبد الملك سنة تسع وثمانين، ففتح طنجة ونزلها وهو أول من نزلها، ثم ولاها طارق بن زياد مولاه وانصرف إلى القيروان.

طارق بن زياد يفتح الأندلس :

أول من جاهد في غرب أوربا الصليبية كان طارق بن زياد عامل موسى بن نصير، وهو أول من غزاها وذلك في سنة اثنتين وتسعين.

انتصار طارق بن زياد على الإسبان في موقعة وادي لكة « موقعة البحيرة » ٩٢هـ - ٧١١ م :

شعر ملك القوط الإسبان بخطر نزول طارق بن زياد والمسلمين على الأراضي الإسبانية، فقام بالزحف بجيش كبير قوامه مئة ألف مقاتل لملاقاة المسلمين بالجنوب، وسرعان ما استغاث طارق بن زياد بموسى بن نصير فأرسل له خمسة آلاف مقاتل محملين بالمؤن والعتاد.

ثم إن موسى بن نصير كتب إلى طارق كتابًا غليظًا لتغريره بالمسلمين وافتتانه عليه بالرأي في غزوه، وأمره ألا يجاوز قرطبة، وسار موسى إلى قرطبة من الأندلس فترضاه طارق فرضي عنه، فافتتح طارق مدينة طليطلة، وهي مدينة مملكة الأندلس وهي مما يلي فرنجة .

والتقى الجيشان في معركة كبرى في نهاية شهر رمضان، واستمرت ثمانية أيام هُـزِمَ فيها

---

(١)تاريخ الطبري ١١/ ٤ .

القـوط هزيمـة قاسـية، وتبعثـر قـتلاهم في أرض المعركـة، ولاذ النـاجون بـالفرار شـمالاً؛ لِيُبَلِّغُوا بقية ملوك وأمراء القوط بأن عصر طغيانهم قد ولَّى.

ولا شك أن انتصار المسلمين في تلك المعركة قد فتح البلاد الإسبانية على مصراعيها أمام زحف قوات طارق بن زياد[١].

كان هذا موجز الحدث، أما عن تفصيله[٢]: فإن طارق بن زياد واصل السير جنوبًا حتى بلغ الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة الأيبيرية، والتي كانت خاضعة قبل الفتح الإسلامي لحكم القوط، ويتولى أمرها ملكٌ ظالم يدعى: رودريك «لذريق» فأبغضه الناس وفكروا في الثورة عليه وإبعاده عن الحكم بالاستعانة بالمسلمين الذين دانت لهم بلاد الشمال الإفريقي، واتصلوا بطارق بن زياد قائد القوات الإسلامية المعسكرة عند مدينة طنجة بالمغرب الأقصى، والقريبة من مدينة سبتة، وأقبلت الوفود على طارق تدعوه لعبور المضيق المسمى باسمه الآن والوصول إلى الجزيرة، وتصور هؤلاء أن المسلمين سيُنْزِلون ضربة قاصمة بالقوط ثم يعودون إلى بلاد المغرب محملين بالغنائم، وغاب عنهم أن المسلمين حملة رسالة، وأنهم مُكَلَّفُونَ بتبليغها لكل الناس، وأن شغلهم الشاغل هو نشر مبادئ دينهم السمحة وتعريف الشعوب به.

ورحَّبَ القائد المسلم طارق بن زياد بهذا الطلب، وأرسل إلى موسى بن نصير والي الأمويين على المغرب يستأذنه في فتح الأندلس، فنصحه باختبار مدى مقاومة القوط بإرسال بعض السرايا إليهم، وبالتأكد من ولاء هؤلاء وصِدق كلامهم، وأرسل موسى بن نصير إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك يستأذنه في فتح الأندلس، فتردد الخليفة أول الأمر خوفًا على المسلمين من المخاطرة بهم في بلاد لا عهد لهم بها من قبل، لكن موسى نجح في إقناعه بأهمية الفتح.

وفي سنة ٩١هـ = ٧١٠ م أرسل طارق بن زياد بعثة استطلاعية بقيادة طريف بن

---

(١) موسوعة ألف حدث، ص٧١.

(٢) موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي ٨ / ٦ ـ ٩ بتصرف.

زرعة، فنزلت في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة، ولم تلق مقاومة وعادت بغنائم وفيرة، ومنذ ذلك الحين أطلق اسم طريف على إحدى تلك المناطق.

وشجعت نتيجة حملة طريف القائد المسلم طارق بن زياد فعبر المحيط في شعبان سنة ٩٢هـ. الموافق: إبريل، مايو سنة ٧١١م، وتجمَّع المسلمون عند الجبل الذي يُعْرَف منذ ذلك التاريخ بجبل طارق، وأقام طارق بتلك المنطقة عدة أيام، بنى خلالها سورًا أحاط بجيوشه سماه سور العرب، وأقام كذلك قاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل، لحماية ظهره في حالة اضطراره إلى الانسحاب، وهي مدينة الجزيرة الخضراء، أو جزيرة أم حكيم، نسبة إلى جارية كان طارق قد حملها معه، ثم تركها في هذا المكان، وهذا الميناء يسهل اتصاله بميناء سبتة المغربي، على حين يصعب اتصاله بإسبانيا لوجود مرتفعات بينهما، ولم يكتف طارق بذلك، بل أقام قاعدة أمامية أخرى وبنى حصنًا، وطلب من حليفه يوليان ومن معه من الجند حراسة هذا الموقع وحمايته من كل هجوم منتظر.

ثم واصل طارق السير جنوبًا حتى بلغ الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة، ومشى في محاذاته، وعبر نهرًا يسمى وادي لكة، ومن الغرب وادي البرباط، وهي منطقة سهلية واسعة تكثر فيها المدن، مثل قادش على البحر، وإلى جوارها من الداخل مدينة شريش، وفي الشمال على الطريق إلى قرطبة مدينة شذونة «سيدونيان»، وفي ذلك السهل الواسع أخذ طارق ينظم قواته، ويرتب لمعركته انتظارًا للقاء القوط.

علم لذريق بمجيء القوات الإسلامية، وكان مشغولاً بمحاربة أعدائه في شمال شبه الجزيرة، فأصيب بهلع ورعب عظيمين، وجمع جنوده وانحدر بهم لمواجهة المسلمين، ووصلت أنباء تلك الحشود الضخمة إلى طارق بن زياد، فكتب إلى موسى بن نصير يخبره بذلك، فأمده بخمسة آلاف جندي صار بهم مجموع جند المسلمين بالأندلس اثنى عشر ألف جندي، ووصل لذريق إلى بلدة شذونة، وأتمَّ بها استعداداته، ثم اتجه للقاء المسلمين، ودارت بين الفريقين معركة فاصلة في كورة شذونة جنوب غرب إسبانيا، استمرت ثمانية أيام، كانت بدايتها يوم الأحد ٢٨ من رمضان إلى الأحد ٥ من شوال سنة ٩٢هـ، الموافق

١٩ ـ ٢٦ يوليو سنة ٧١١م، وكانت معركة هائلة، اقتتل فيها الطرفان اقتتالاً شديدًا، حتى ظنوا أنه الفناء، وكان النصر في النهاية حليف المسلمين، وفرّ لذريق من أرض المعركة وتبعه المسلمون حتى أدركوه وقتلوه بالقرب من بلدة «لورقة».

وبعد هذا النصر العظيم الذي حققه طارق بن زياد ـ بفضل الله تعالى أولاً، وإخلاص جنده ثانيًا، مع وجود القيادة الحكيمة والشجاعة ثالثًا ـ امتلأت أيدي أصحابه بالغنائم، واتجهوا نحو الشمال فاستولوا على بعض القلاع، ثم عبروا نهر الوادي الكبير قاصدين مدينة «طليطلة» عاصمة «القوط»، وكانت تبعد عن أرض المعركة بنحو ست مئة كيلو متر، وكلها جبال ووديان ومضايق عسرة، وقد تمكن المسلمون ــ بتوفيق الله لهم مع عزيمتهم وإصرارهم وإيمانهم الجيّاش ـ من دخول العاصمة بعد مقاومة عنيفة من القوط. وفي أثناء سير طارق إلى «طليطلة» أرسل جزءًا من قواته لفتح «البيرة» ، كما أرسل مغيث الرومي إلى «قرطبة»، ففتحها بعد حصار دام ثلاثة أشهر، وكانت آنئذٍ معسكرًا رومانيًا قديمًا يقع على ضفة نهر الوادي الكبير، وعندها بنيت قنطرة حجرية على النهر، وأثبت بذلك طارق أنه قائد مسلم على خبرة واسعة بشؤون الحرب وفنون القتال؛ لأن السيطرة على هذه القنطرة تيسر له طريق العودة.

استقر القائد المسلم طارق بن زياد في طليطلة، فهرب منها كبار القوط وكبار رجال الدين الذين حملوا معهم ذخائر كنيستهم، فأدرك المسلمون هؤلاء الفارين عند بلدة صغيرة تسمى «قلعة عبدالسلام» ، وغنموا ما كان معهم من ذخائر بالغة القيمة، وَتَجِلُّ عن الحصر، من بينها مذبح الكنيسة الذي سموه «مائدة سليمان»، ولا صلة لنبي الله سليمان \ بهذه المائدة، التي كانت من الزبرجد الخالص، ومزدانة بالجواهر، وتوضع في صدر الكنيسة، وعليها الصلبان والكؤوس والكتب المقدسة، وبعد أن حلّ الشتاء آثر طارق العودة إلى طليطلة، وكتب إلى قائده موسى ابن نصير أن يحيطه بأنباء الفتح، ويخبره بما أحرزه من نجاح وفتح إسلامي مبين في بلاد الأندلس الرطيب.

الفصل الثالث
أحداث الصليبيين والتتار

أحداث الصليبيين والتتار
الأحداث (١٩ ـ ٢٥)
الحمـلات الصليبيـة
واستمرار الإمارات الصليبية لأكثر من مئتي عام [١]

الحملات الصليبية :

تُعد الحروب الصليبية من أعظم الحوادث في العالم الإسلامي، وهي كذلك من أكبر حوادث التاريخ العالمي؛ لأن الذي فكر في الحروب الصليبية وقام بها هو الغرب المسيحي بتوجيه أولي من البابوية، بغرض الاستيلاء على المقدسات المسيحية في فلسطين وبخاصة مدينة القدس، وقبر المسيح في بيت لحم من القدس، وبدأت الحركة من أواخر القرن الخامس الهجرى إلى القرن التاسع الهجرى.

أسباب الحروب الصليبية :

تكمن أسباب الحروب الصليبية في الخوف من عودة القوة إلى المسلمين بعد الانتصارات التي أحرزها السلاجقة عام «٤٦٣هـ» في معركة ملاذكرد بقيادة ألب أرسلان، والانتصار في معركة الزلاقة في الأندلس عام «٤٧٩هـ» بقيادة يوسف بن تاشفين، والانتصارات التي تلتها، فخافت النصرانية من عودة الروح من جديد لتدب في العالم الإسلامي بالإضافة إلى الحقد النصراني الذي يتضاعف مع كل نصر جديد يحققه الإسلام. فاستغل مبررًا للحروب مايقوم به السلاجقة من مضايقة للحجاج النصارى إلى بيت المقدس.

---

(١) انظر عن الحملات الصليبية ما يلي: الحروب الصليبية، للدكتور علي حبيبة، وصلاح الدين الفارس المجاهد، ص٦٥، ٦٧، ٧١، ٢٨٣ وغيرها، والوسيط في تاريخ فلسطين ص١٤٩ وما بعدها، والقدس تاريخ وحضارة، ص ١١٧ وغيرها، ووثائق الحروب الصليبية والغزو الصليبي للعالم الإسلامي، المقدمة وص٣٠ وما بعدها.

بدء الحملات الصليبية [1]:

م	الحملة	الأحداث
١	الحرب الصليبية الأولى «٥٤٣هـ»	في سنة «٤٨٩هـ» دعا البابا أوربان الثاني في مجمع ديني عقد في مدينة كليرمونت إلى تجنيد جيش مسيحي، وتوجيهه إلى بلاد المسلمين، ودعا وبشر بالحروب الصليبية. وكان لبطرس الناسك دور كبير، فقد سار بالمتطوعين، وسبق جيوش الأمراء النصارى النظامية، وسبب الفوضى والدمار لكل المناطق التي مروا عليها حتى النصرانية منها، وتصدى لهم المسلمون في نيقية سنة «٤٨٩هـ» فأفنوهم عن بكرة أبيهم، وقدم الجيش النظامي الحرب الصليبية الأولى إلى أبواب القسطنطينية، وخاف إمبراطورها منهم، فاتفق مع بعض القادة أن يمدهم بالمؤن والذخيرة على ألايدخلوا المدينة، واخترقت الحملة الأولى بلاد السلاجقة وهزمتهم عند «دور بليوم»، ووصلت إلى أنطاكية وحاصرتها، وكانت الإمارات الساقطة في أيديهم بعد ذلك: إمارة الرها، وإمارة أنطاكية، والقدس، وإمارة طرابلس.
٢	الحرب الصليبية الثانية «٥٤٣هـ» [2]	وصلت بلاد الشام بعد الحملة الأولى حملة ثانية بقيادة لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث ملك ألمانيا، واجتمعت الحملة عند بيت المقدس، ثم ساروا للاستيلاء على دمشق، لكنهم فشلوا في ذلك بسبب نور

(١)موسوعة ألف حدث إسلامي، ص١٩٢ .

(٢)المرجع السابق، ص ٢١٧ .

الدين محمود، وظهرت في تلك الآونة ـ كرد فعل على تلك الحملات ـ موجة سخط وخوف، نتجت عنها حركة جهادية ضد الصليبيين التي استطاعت أن تقض مضاجعهم، وتقلقهم باستمرار منذ بدأها نجم الدين حتى الذروة في عهد صلاح الدين، وكان أول من تشجع على مهاجمة الصليبيين، ومواجهة قواتهم في ميدان القتال هو نجم الدين إيلغازي الذي التقى بقوة صليبية عند بلدة قسطون جنوب حلب سنة «٥١٣هـ» وانتصر عليهم، وبذلك تكون الأسطورة الفرنجية قد كسرت. وتطلع المسلمون لكسب المزيد من النصر، فتشجع عماد الدين زنكي أمير الموصل، الذي ضم إليه حلب، فوحد إمارتي الموصل وحلب، ودعا للجهاد، واستولى على إمارة الرها وما يتبعها من بلاد سنة «٥٣٩هـ»، وصارت لدولة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود السيطرة، حتى تمكن في سنة «٥٤٩هـ» من ضم إمارة دمشق، وتوحيد بلاد المسلمين، وقد تمكن نورالدين من الانتصار على الصليبيين، ومن كان يؤيدهم من الفاطميين ورجالهم، والفوز بمصر بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الذي استطاع أن يوحد صفوف المسلمين بعد موت نورالدين، ويقود سلسلة الجهاد ضد الصليبيين، وكانت حطين عام «٥٨٣هـ» واسترداد بيت المقدس.

٣	الحرب الصليبية الثالثة «٥٨٥هـ»[١]	كان لفتح صلاح الدين للقدس والانتصارات الواسعة التي حققها أثر كبير في أوربا إذ أخذت الصيحات الصليبية تتعالى، ووجه البابا غريغوري الثامن كتبًا لملوك فرنسا وألمانيا وإنجلترا يحثهم على حرب المسلمين، واستجاب هؤلاء، فكانت الحملة الصليبية الثالثة بإمرة ريتشارد قلب الأسد، وفيليب ملك فرنسا، وفردريك إمبراطور ألمانيا سنة «٥٨٥هـ» وانتهت بعودة ملك فرنسا، وصمود ريتشارد، وانتهت بعقد صلح الرملة سنة «٥٨٨»هـ. وبذا تكون الحملة الثالثة قد فشلت، ولم تصل إلى هدفها.
٤	الحرب الصليبية الرابعة «٥٩٤هـ»[٢]	بعد موت صلاح الدين ـ رحمه الله ـ عام «٥٨٩هـ»، رأى البابا أن أمر المسلمين سيفترق لذا يجب الاستعداد لانطلاق حملة صليبية رابعة تسترد القدس، ودعا البابا أنوسنت الثالث أمراء النصارى إلى هذا عام «٥٩٤هـ»، وتولى عدد من الأمراء هذه الدعوة وعلى رأسهم الفرنسيون، ورأوا أن تسير الحملة إلى مصر ومنها تنطلق إلى القدس، والاستعانة بالأسطول البندقي، ولكن حدثت ثورة الأمير إلكسيوس على أبيه الذي يطلب من البابا ومن الصليبيين مساعدته ضد أبيه، ويتعهد بمساعدة الصليبيين في حملتهم، ولقي هذا المطلب هوى

(١)المرجع السابق، ص ٢٣٥ .

(٢)المرجع السابق، ص ٢٤١ .

		في نفس البابا والصليبيين، فساروا برًا نحو القسطنطينية عـام «٦٠٠هـ»، وتمنـى أهلهـا أن يكـون المحتلـون هـم المسلمين لا النصارى لما يجدونه فيهم من رحمة، وبـذلك فشلت الحملة الصليبية الرابعة ولم تؤد غرضها.
٥	الحملة الصليبية الخامسة [1]	دعا البابا أنوسنت الثالث إلى تعبئة جيش صليبي جديـد ليتجـه إلى بـلاد الـشام مباشرة، وسـارت الحملـة بقيـادة دوق النمسا ليوبولد، وملك هنغاريا أندريـه الثـاني، ثـم لحق بهما ملك قبرص بهمايـو، ووصـلت هـذه الحملـة إلى بلاد الشام سنة «٦١٥هـ» واجتمعـت جموعهـا في عكـا، وساروا فاستولوا على بيسان في الغور، ووصلوا إلى بلدة نوى، ولم يتفق ملك هنغاريا مع دوق النمـسا، لـذا قـرر العودة إلى بلاده، وخرج حنا برين بجيشه للهجـوم عـلى دمياط، فاسـتولوا عليهـا وقـرروا الهجـوم عـلى القـاهرة، لكنهم فشلوا بـسبب الفيـضانات التي حـدثت، فطلبـوا الصلح وسلموا رهائن وهم صاغرون حتـى يجلـوا عـن دمياط عام «٦١٨هـ» . وهكذا فشلت الحملـة الـصليبية الخامسة ولم تحقق شيئًا.
٦	الحملة الصليبية السادسة[2]	ضعف مركز الأيوبيين، وبـدأت خلافـاتهم مع بعـضهم البعض تظهر، فقد دب خلاف بين أبناء الملـك العـادل ـ أخو صلاح الدين ـ وتسلم الكامل الـسلطنة، واختلـف

(١)المرجع السابق، ص ٢٤٥ .

(٢)المرجع السابق، ص ٢٥٣ .

		مع أخويه المعظم والأشرف وخاف الكامل على ملكه من أخويه وجيوش الدولة الخوارزمية، لذا استنجد بإمبراطور ألمانيا فريدريك الثاني الذي وافق على أخذ القدس، ولم يكن للحملة أية آثار، إذ إن الإمبراطور فردريك لم يرغب سوى في الحصول على بيت المقدس، وعقد هدنة في يافا عام «٦٢٦هـ».
٧	الحملة الصليبية السابعة«٦٤٦هـ»	قاد ملك فرنسا لويس التاسع حملة صليبية فرنسية في عام «٦٤٦هـ»، ومرت الحملة على قبرص وراسلت المغول، ثم اتجهت إلى مصر فاحتلت دمياط، وجاءت نجدة فرنسية بإمرة ألفونس - أخو لويس التاسع - وتوفي الملك الصالح نجم الدين، وخلفته زوجته شجرة الدر واستدعت ابنه توران شاه ليخلف أباه، وانتصر المسلمون في هذه المعركة، وقتل أخو الملك لويس التاسع وهو روبرت، فانسحب الصليبيون إلى دمياط، وفاوض الملك لويس التاسع توران شاه في أن يسلم دمياط مقابل تسليمهم القدس فرفض، ودارت معركة ثانية انتصر فيها المسلمون نصرًا مؤزرًا، وأسر ملك فرنسا في المنصورة في دار ابن لقمان، واضطر لويس التاسع إلى افتداء نفسه بفدية كبيرة، وأمليت شروط المسلمين على الصليبيين، ورحلوا عن دمياط عام «٦٥٢هـ»، وعاد لويس إلى فرنسا.

٨	الحملة الصليبية الثامنة[1]	على الرغم من هزائم لويس التاسع في مصر إلا أنه ظل يأمل في قيام حرب صليبية جديدة، وفي هذه المرة شعر أنه لايستطيع مواجهة المماليك فوجه حملته نحو بلاد تونس، حاسبًا أنه سيستولي عليها دون مشقة، وبالفعل أعد حملة صليبية جديدة اتجهت نحو تونس سنة «٦٦٨هـ»، وأيده في ذلك أخوه شارل أنجو ـ ملك صقلية ـ ولكن الجيش الصليبي خشي بأس الأعراب بالإضافة إلى قوة جيش السلطان المستنصر سلطان الحفصيين. وبعد ذلك توفي لويس التاسع وبوفاته انتهت الموجات الكبيرة للحروب الصليبية، وبقيام دولة المماليك القوية في مصر والشام، ثم قامت بعد ذلك الدولة العثمانية، وقضت على الدولة البيزنطية، وغزت البلاد المسيحية في شرق أوروبا ووسطها.

(١)المرجع السابق، ص ٢٦٣ .

من نتائج الحملات الصليبية [١]

أولا : تعرف أوربا إلى الحضارتين العربية واليونانية :

خضعت أوربا لنفوذ الكنيسة منذ الاعتراف بها، وراحت الكنيسة تحكم قبضتها على جميع مناحي الحياة بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية كما سبق تفصيل بعض ذلك، وظلت هذه الهيمنة قائمة،حتى خرجت أوربا عنها بأمر من الكنيسة فيما عرف بموجات الحروب الصليبية المقدسة على الشرق الإسلامي بحجة الدفاع عن المقدسات المسيحية، وكان ذلك في هذه الحروب وإن كانت سابقة بقليل على القرن الثالث عشر، حيث ابتدأت على يد البابا أوربان في رسالته التاريخية سنة ١٠٩٥ م.

إلا أن «فكرة الحروب الصليبية لم تصل إلى مرحلة النضج إلا في الأربعينيات من القرن الثاني عشر » [٢] ، حيث تداعت المفاهيم الخاصة بالحروب المقدسة على أيدي الداعين لها من أمثال : البابا أنوسنت الثاني pope innocent، والقديس برنار الكليرفوي st. Bernard of dairvaux والعالم الكنسي جريتان Gration، وبلور هؤلاء فكرة الحرب في مبدأ «أن الكنيسة ممثلة في البابوات تتمتع بالحق الإلهي الذي يخول لها سلطة الدعوة لشن حرب مقدسة» [٣].

وقد وَضَّحَ المفكرون الأوربيون المنصفون أسباب الحرب باستفاضة، وبأنها لم تكن بهدف حماية المسيحيين الغربيين حسب زعم البابوات، أو بهدف نصرة الرب، وإنما كانت

---

(١)انظر: مقدمة دراسات القيم الخلقية بين المنهح الوضعي والمنهج المعياري، حيث الحديث عن تحضر المجتمع الغربي وتأثيرات الفكر الإسلامي عليه وبداياتها منذ الحروب الصليبية وقد اعتمدنا عليها نسبيًا هنا.

(٢)جوناثان ويلي سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحرب الصليبية، ص١٠ ، ترجمة د.محمد فتحي الشاعر، ط ٢١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٩٩م .

(٣)جوناثان ويلي سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحرب الصليبية، ص١٠ ، ترجمة د.محمد فتحي الشاعر، ط ٢١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٩٩م .

بسبب الظروف الاجتماعية التي اجتاحت البابا أوربان في تلك العصور، وعلى حد قول جوناثان ويلي ـ سميث في دعوة أوربان للحرب واستجابة الأوربيين لها «إن دعوته كانت بمثابة تشجيع المطامع العامة المتزايدة»[١]، إضافة إلى الخلفية التاريخية والاجتماعية؛ إذ كانت الحرب هروبًا للكنيسة من حالة الفوضى، بعد أن زاد استياء الشعب منها، وتذمر عليها، ورغبة في توجيه الفرسان الذين تولدت الكراهية ضدهم[٢].

من نتائج هذه الحروب :

لاستطالة هذه الحروب فقد احتك الأوربيون المسيحيون بالحضارة الإسلامية احتكاكًا مباشرًا وتعرفوا من قريب على نظمها الحربية ونظمها الاجتماعية وتياراتها الفكرية.. وظلت هذه العلاقة قائمة حتى بعد رحيلهم، من خلال:الأنشطة التجارية المباشرة،والأندلس الإسلامية، وكان الاتصال فيها سابقًا على غيره من خلال الممالك الإسلامية في صقلية ومملكة نابولي[٣].

ونتج عن هذا : نشاط حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وخاصة لمؤلفات أرسطو؛ حيث عرفت أوربا مؤلفات أرسطو عن طريق المؤلفات المترجمة عن العربية أو العبرية «تلك المؤلفات التي فتحت أمام الفكر الفلسفي حقلاً كان شبه مجهول إلى ذلك الحين »[٤].

ويذكر إميل برهييه أنه «في القرن الثالث عشر قام كل من هنري البراباني وغليوم الموربكي

---

(١)الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، لجوناثان، ص٢٧٤، ٢٧٥ .

(٢)انظر: السابق، ص١٤، ١٥، ومن المثير للانتباه: أن هذه الحروب المدعوة بالحروب المقدسة على عكس ما جاءت به المسيحية من الرحمة والتسامح والعفو. وكم من الآيات في الإنجيل صريحة مطلقًا في الدعوة إلى السلام والمحبة، منها قول المسيح : «كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» [انظر: الكتاب المقدس العهد الجديد، إنجيل متى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،
وانظر: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، د. قاسم عبده قاسم، ص١٣، ١٤ ط٢، مكتبة ذات السلاسل، الكويت ١٩٨٨م.

(٣)تراث العصور الوسطى، ج.كرامب، إ.جاكوب ، ص ٣٤٠، ترجمة د.إبراهيم العدوي، ط.مؤسسة سجل العرب برعاية المجلس الأعلى للفنون والآداب، القاهرة، سنة١٩٦٥م.

(٤)تاريخ الفلسفة ، إميل برهييه ٣/ ١٤٨، ١٤٩ ، و موجز تاريخ الفلسفة، ص١١٠.

«١٢١٥ ـ ١٢٨٦» وهو صديق لتوما الإكويني، وبرت غرمر ستيت وبارتلماوس المسينين، وكلهم من الضليعين باليونانية بنقل مؤلفات أرسطو في جملتها أو بعض منها، وعلى وجه التعيين كتاب السياسة المجهول من قبل الفلاسفة العرب» [١]، ومعلوم كم كان لتوما الإكويني من أثر في فكر هذا العصر! وقد كانت الترجمة في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر عن العربية مباشرة، أما في القرون المتأخرة فقد أصبحت الترجمة عن العبرية [٢].

نجاح الحملة الصليبية في إقامة إمارة لها :

كان هناك ما يعرف بالحملة الصليبية الأولى [٣]، وقد شارك فيها أمراء وفرسان أوربيون محترفون، وبدأت الحملة سيطرتها على مناطق المسلمين منذ صيف ١٠٩٧م، وأسس الصليبيون إمارة الرها في مارس عام ١٠٩٨م بزعامة بلدوين البولوني [٤].

تأسيس إمارة للصليبيين :

وحاصر الصليبيون أنطاكية تسعة أشهر ، وظهر من شجاعة صاحب أنطاكية باغيسيان «وجودة رأيه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره، فهلك أكثر الفرنج ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام».

غير أن أحد الأرمن المستحفظين على أسوار المدينة راسله الصليبيون وبذلوا له «مالاً وإقطاعًا» ففتح للصليبيين الباب من البرج الذي يحرسه فاحتل الصليبيون المدينة، وأسسوا فيها إمارتهم الثانية سنة٤٩١هـ ـ ٣ يونيو ١٠٩٨م، بزعامة بوهيمند النورماني، في الوقت الذي كان السلاجقة يتعرضون فيه للزحف الصليبي شمال بلاد الشام.

الفاطميون يغيرون على المسلمين السنة :

استغل الفاطميون الفرصة فاحتلوا مدينة صور سنة ١٠٩٧م وسيطروا على بيت

---

(١)السابق ٣/ ١٤٩ .

(٢)فلسفة العصور الوسطى، د.عبدالرحمن بدوي، ص ٨٨ وكالة المطبوعات والنشر بالكويت.

(٣)الحرب الصليبية الأولى وفكرة الحرب الصليبية، ص ١١ وما بعدها.

(٤)موسوعة ألف حدث إسلامي، ص ١٩٣، ١٩٤ .

المقدس في فبراير سنة ١٠٩٨م أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية، واستقل بطرابلس القاضي ابن عمار أحد أتباع الفاطميين.

من خيانات العبيديين الفاطميين « الباطنية » :

أرسل الفاطميون للصليبيين أثناء حصارهم لأنطاكية سفارة للتحالف معهم وعرضوا عليهم قتال السلاجقة ، بحيث يكون القسم الشمالي «سوريا» للصليبيين وفلسطين للفاطميين، وأرسل الصليبيون وفدًا إلى مصر ليدللوا على «حسن نيَّاتهم»!! ، وهكذا فأثناء انشغال السلاجقة بحرب الصليبيين كان الفاطميون منشغلين بتوسيع نفوذهم في فلسطين على حساب السلاجقة ، حتى أن حدودهم امتدت حتى نهر الكلب شمالاً ونهر الأردن شرقًا..!!.

الخائنون القدامى يسلمون فلسطين للنصارى :

وظهرت الخيانات ، وانكشف التخاذل من إمارات المدن التي حرصت كل منها على نفوذها وكسب ود الصليبيين أثناء توسعهم . ومن ذلك ما حدث من اتصال صاحب إقليم شيزر بالصليبيين ، حيث تعهد بعدم اعتراضهم وتقديم ما يحتاجون من غذاء ومؤن، بل وأرسل لهم دليلين ليرشداهم على الطريق، وقدمت لهم حمص الهدايا، وعقدت معهم مصياف اتفاقية، أما طرابلس فدفعت لهم الجزية، وأعانتهم بالأدلاء، ودفعت بيروت المال، وعرضت عليهم الدخول في الطاعة إذا نجحوا في احتلال بيت المقدس.

الحملات الصليبية تذبح المسلمين مدة أسبوع كامل :

تابع ريموند دي تولوز «أمير إقليم بروفانس وتولوز بفرنسا» قيادة بقية الصليبيين إلى بيت المقدس وكان عددهم ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة فقط، وفي ربيع سنة ١٠٩٩م دخلوا مناطق فلسطين ؛ فمروا بعكا التي قام حاكمها بتموين الصليبيين، ثم قيسارية، ثم أرسوف، ثم احتلوا الرملة واللد وبيت لحم، وفي ٧ من يونيو سنة ١٠٩٩م بدؤوا حصار بيت المقدس، وكان حاكمها قد نَصَّبَهُ الفاطميون ويدعى افتخار الدولة،

وتم احتلالها في ١٥من يوليو ١٠٩٩م[١] لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢هـ . ولبث الفرنج أسبوعًا يقتلون المسلمين، وقتلوا بالمسجد الأقصى مايزيد على سبعين ألفًا منهم جماعة كثيرة مــن أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم[٢].

استمرار جهاد المسلمين ضد الصليبيين :

استمر جهاد المسلمين ضد الفرنج «الصليبيين» دون توقف، وإن كان هذا الجهاد قد افتقر إلى حسن الإعداد والتنظيم، كما تعدد القادة المسلمون الذين يأتون ويذهبون.

لا تخلو الأمة من أبطال ربانيين :

وظهر عدد من المجاهدين المسلمين الذين كانت قدراتهم محدودة ولــم يتمكنوا من توحيد قوى المسلمين لجهاد الفرنج، غير أنهم حافظوا علــى جذوة الجهاد، وألحقوا بالفرنج خسائر كبيرة وأفقدوهم الاستقرار والأمان وقتلوا وأسروا العديد من قادتهم وزعمائهم.

منهم : معين الدولة سقمان، وشمس الدولة جكرمش حرب [٣]، اللَّذَانِ بذلا نفسيهما لله تعالى وثوابه ، فسارا واجتمعا بالخابور في عشرة آلاف من التركمان والترك والعرب والأكراد فالتقوا بالفرنج عند نهر البليخ، وهُـزِمَ الفرنج وذلك سنة ٤٩٧هـ ، ورجع المسلمون، وعاد مودود بن التونتكين صاحب الموصل مع طغتكين إلى دمشق، وهناك في صحن المسجد في يوم الجمعة وثب عليه باطني فجرحه أربع جراحات وقُتل الباطني[٤]، وأبى مودود أن يموت إلا صائمًا، وكان خَيِّرًا عادلاً كثير الخير. ويقال : إن طغتكين هو

---

(١)موسوعة ألف حدث إسلامي، ص ١٩٤ .

(٢)أما الدولة الفاطمية فقد واجهت الخبر ببرود، كما أن الدولة العباسية لم تحرك ساكنًا. تولى حكم بيت المقدس القائد الصليبي جود فري بوايون، وتسمى تواضعًا بحامي بيت المقدس، واستسلمت نابلس، وتم للصليبيين احتلال الخليل.

(٣)انظر عن أدوار السلاجقة الأتراك في صد حملات الصليبيين ثم ظهور عماد الدين زنكي ونور الدين محمود. موسوعة ألف حدث إسلامي، ص ١٩٢ ـ ٢٣٥ .

(٤)موسوعة ألف حدث إسلامي، ص ٢٠٢، وقد اغتاله الحشاشون الباطنيون لعنهم الله.

الذي تآمر عليه، وكتب ملك الفرنج إلى طغتكين بعد قتل مودود كتابًا جاء فيه: «إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها».

محاولات فاطمية لإنقاذ فلسطين :

على رغم ما كان للدولة الفاطمية من مخازٍ، فإن الحق أحق أن يقال، إنها أيضًا بقيادة وزيرها الأفضل بدر الجمالي أرسلت حملات عديدة إلى فلسطين، وحاولت الدفاع عن مناطق نفوذها على الساحل، غير أن حملاتها لم تكن بمستوى ما تزخر به مصر من قدرات وإمكانات، ويظهر أن حملاتها اتخذت طابعًا استعراضيًا، وافتقرت إلى التنسيق الجاد مع القوى الإسلامية في الشام[(١)] .

وكان الحاكم الفاطمي قد افتقد مصداقيته الجهادية الإسلامية عندما راسل الفرنج وهم يزحفون باتجاه بيت المقدس عارضًا التحالف ضد السلاجقة وتقاسم النفوذ في الشام. ومهما يكن، فإن الدولة الفاطمية كانت في طور الأفول، وكانت تعاني من عوامل الضعف والانهيار[(٢)] .

---

(١)المرجع السابق، ص ١٩٦ .

(٢)المرجع السابق، ص ١٩٣ .

٢٦ ـ حدث
حطين أحداث ونتائج[١]

مقدمات حطين :

أعدَّ صلاح الدين العدة وعبّأ قواته استعدادًا لمنازلة الصليبيين وخوض معركة الجهاد الكبرى التي ظل يعد لها عشر سنوات منتظرًا الفرصة المواتية التي تهيئ له تحقيق هذا الهدف، ولم تكن سياسة أرناط الرعناء سوى سبب ظاهري أشعل فتيل الحرب وأوقد حماس صلاح الدين على الصليبيين.

غادرت قوات صلاح الدين التي تجمعت من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر مدينة دمشق في المحرم سنة «٥٨٣هـ ـ مارس ١١٨٧م» واتجهت بعزم وإصرار إلى حصن الكرك فحاصرته ودمرت ما فيه، ثم اتجهت إلى الشوبك، ففعلت به مثل ذلك، ثم قصدت بانياس بالقرب من طبرية لمراقبة الموقف.

وفي أثناء ذلك تجمعت الجيوش الصليبية تحت قيادة ملك بيت المقدس في مدينة صفورية، وانضمت إلى قوات أخرى تحت إمرة ريموند الثالث أمير طرابلس، ناقضًا بذلك الهدنة التي كانت عقدت بينه وبين صلاح الدين، مفضلاً مناصرة قومه، على الرغم من الخصومة المتأججة التي كانت بينه وبين ملك بيت المقدس.

ولـما كان صلاح الدين يرغب في إجبار جيوش الصليبيين على المسير إليه، ليلقاهم وهم متعبون في الوقت الذي يكون هو فيه مدخرًا قواه، وجهد رجاله،لم يكن أمامه من وسيلة لتحقيق هذا الهدف سوى مهاجمة طبرية، حيث كانت تحتمي بقلعتها زوجة ريموند الثالث.

ولما وصلت أنباء ذلك إلى الصليبيين ثارت ثائرتهم فعقدوا مجلسًا لبحث الأمر، وافترق

---

(١)انظر ما سبق ذكره في: ترجمة وبطولات صلاح الدين، جزء القادة، وانظر كذلك: نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، صلاح الدين الفارس المجاهد، ص ٢٣٣، وتاريخ فلسطين في العصر الإسلامي، ص١٨٩ .

الحاضرون إلى فريقين متنازعين : أحدهما يرى ضرورة الزحف إلى طبرية لضرب صلاح الدين، على حين يرى الفريق الآخر خطورة هذا العمل لصعوبة الطريق وقلة الماء وحرارة الشمس، وكان على رأس هذا الفريق ريموند الثالث رغم أن زوجته كانت تحت الحصار، لكن إرناط اتهم ريموند بالجبن والخوف من لقاء المسلمين، وحمل الملك على الاقتناع بضرورة الزحف على طبرية.

موقعة حطين :

أصدر الملك غي دي لوزينان أوامره للجيوش المحتشدة في صفورية بالتقدم والسير نحو قوات صلاح الدين عند طبرية[١] . وبدأت القوات الصليبية الزحف في ظروف بالغة الصعوبة في «٢١ من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ ــ ١ من يوليو ١١٨٧م» تلفح وجوهها حرارة الشمس، وتعاني قلة الماء ووعورة الطريق الذي يبلغ طوله نحو ٢٧ كيلومترا، في الوقت الذي كان ينعم فيه صلاح الدين وجنوده بالماء الوفير والظل المديد، مدخرين قواهم لساعة الفصل، وعندما سمع صلاح الدين بشروع الصليبيين في الزحف، تقدم بجنده نحو تسعة كيلومترات، ورابط غربي طبرية عند قرية حطين.

وفي صبيحة يوم الجمعة «٢٤ من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ ــ ٣ من يوليو ١١٨٧م» وصل الجيش الصليبي إلى سطح جبل طبرية وهي منطقة على شكل هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ٣٠٠ متر، ولها قمتان كالقرنين، وهو ما جعل العرب يطلقون عليها اسم «قرون حطين». ولما وجد الصليبيون أنهم لا يقوون على متابعة السير لشدة الإنهاك والعطش الشديدين اللذين أصابا جندهم قرروا المبيت فوق هذه الهضبة[٢] .

وقد حرص صلاح الدين على أن يحول بين الصليبيين والوصول إلى الماء في الوقت الذي اشتد فيه ظمؤهم، كما أشعل المسلمون النار في الأعشاب والأشواك التي تغطي الهضبة، وكانت الريح على الصليبيين فحملت حر النار والدخان إليهم، فقضى الصليبيون

(١)القدس تاريخ وحضارة، ص ١٩٠ .
(٢)القدس تاريخ وحضارة، ص ١٩٠ .

ليلة سيئة يعانون العطش والإنهاك، وهم يسمعون تكبيرات المسلمين وتهليلهم الذي يقطع سكون الليل، ويهز أرجاء المكان، ويثير الفزع في قلوبهم[١].

صباح المعركة :

وعندما أشرقت شمس يوم السبت الموافق «٢٤ من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ ــ ٤ من يوليو ١١٨٧م» اكتشف الصليبيون أن صلاح الدين استغل ستر الليل ليضرب نطاقًا حولهم، وبدأ صلاح الدين هجومه الكاسح، وعملت سيوف جنوده في الصليبيين، فاختلت صفوفهم، وحاولت البقية الباقية أن تحتمي بجبل حطين، فأحاط بهم المسلمون، وكلما تراجعوا إلى قمة الجبل، شدد المسلمون عليهم، ولم يستطع النجاة من أمراء الصليبيين سوى ريموند الثالث أمير طرابلس الذي هرب إلى صور مع قلة من رجاله، أما ملك بيت المقدس فقد استسلم ومعه مئة وخمسون من الفرسان، فسيق إلى خيمة صلاح الدين، ومعه إرناط صاحب حصن الكرك وغيره من أكابر الصليبيين ومن بينهم عدد كبير من البارونات وفرسان الداوية والإسبتارية[٢]، فاستقبلهم صلاح الدين أحسن استقبال، وأمر لهم بالماء المثلّج، ولم يعط إرناط، فلما شرب ملك بيت المقدس أعطى ما تبقّى منه إلى إرناط، فغضب صلاح الدين وقال: « إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني»، ثم كلمه وذكّره بجرائمه وقرّعه بذنوبه، ثم قام إليه فضرب عنقه، وقال: «كنت نذرت مرتين أن أقتله إن ظفرت به إحداهما : لما أراد المسير إلى مكة والمدينة، والأخرى : لما نهب القافلة واستولى عليها غدرًا ».

ثم أمر بقتل فرسان الداوية والإسبتارية لسفكهم دماء المسلمين، وبعد انتهاء المعركة أدى صلاح الدين صلاة الشكر لله على نصره له[٣].

---

(١)القدس تاريخ وحضارة، ص ١٩٠ .

(٢)القدس تاريخ وحضارة، ص ١٩١ .

(٣)القدس تاريخ وحضارة، ص ١٩١ .

نتائج حطين :

لم تكن هزيمةُ الصليبيين في حطين هزيمةً طبيعيةً، وإنما كانت كارثةً حلت بهم؛ حيث فقدوا زهرة فرسانهم، وقُتلت منهم أعداد هائلة، ووقع في الأسر عدد كبير منهم، حتى قيل: إن من شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل، كذلك أسر ملكهم في فلسطين، وانكسرت هيبتهم، ومن جهة أخرى، فقد كان لانتصار صلاح الدين صدًى بالغٌ في نفوس المسلمين عامة، وأهالي دمشق خاصة الذين سمعوا بخبر الانتصار العظيم فهللت وجوههم فرحًا وأخذوا يدعون للقائد المظفر صلاح الدين.
وبعد أن مَنَّ الله على صلاح الدين بهذا النصر المظفر أراد تتويج جهاده العظيم بتحرير المدينة المقدسة وطرد الصليبيين منها، إلا أنه لم يتجه نحوها مباشرة، وإنما اختار التوجه لفتح المدن والحصون والقلاع المنتشرة على الساحل ضمن خطة تكفل استنزاف قواتهم وتمنع وصول الإمدادات إليهم من أوربا.

في يوم الأحد ٢٥ من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧م توجَّه صلاح الدين قاصدًا طبرية واستولى على قلعتها، ثم تقدم نحو عكا، وما إن وصلها حتى خرج إليه أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم، فكان لهذه السياسة السمحة التي اتبعها صلاح الدين معهم فوائد كثيرة؛ حيث أسهمت في مهمة فتح المدن الصليبية الأخرى دون مقاومة تذكر، ثم انطلق لفتح المعاقل القريبة مثل: الناصرية، قيسارية، حيفا، صفورية، الشقيف، الفولة، الطور وغيرها من المدن المجاورة منها مدن: صيدا وبيروت ومنطقة جبيل، وقرر صلاح الدين أن يكون فتح مدينة صور بعد فتحه لمدينة بيت المقدس، ولذلك أراد التوجه نحو عسقلان؛ لأن أمرها أيسر وفي طريقه إلى عسقلان استولى على الرملة وحصن تبنين وبيت لحم والخليل، واستسلمت له عسقلان في رجب سنة ٥٨٣ هـ - سبتمبر سنة ١١٨٧م. كما فتح مدن: غزة، والداروم، وأرسوف، واللطرون، وبيت جبريل، كما زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر واستولى على يافا، وبذلك سقطت المدن والحصون الداخلية ما عدا الشوبك والكرك اللتين بقيتا على المقاومة.

وهكذا دخل الساحل برمته تحت إمرة صلاح الدين من بيروت إلى يافا ما عدا مدينة صور التي دخلها المركيز كونراد دي مونتفرلت في ذلك الوقت، وكان شديد القوة كثير الحيلة والمال، فشرع بتحصين المدينة وأمر بتجديد حفر الخندق حولها استعدادًا لملاقاة صلاح الدين، خاصة أن الجيوش الصليبية التي خرجت من مدن الساحل قد تجمعت جميعها في مدينة صور بعد أن ترك لها صلاح الدين حرية الاختيار بين الرحيل إلى بيت المقدس أو مدينة صور، فقصد معظمهم صور[1].

(١)المرجع السابق، ص ١٩٢.

٢٧ ـ حدث
عين جالوت

لقد كان يوم عين جالوت فاصلاً وحاسمًا في تاريخ الإنسانية جمعاء؛ إذ استطاع المسلمون أن ينقذوا العالم من هجمة التتار، وأن يحفظوا له حضارته ومدنيته من أناس لا يعرفون معنى للقيم ولا للمثل ولا للحضارة .

سيف الدين قطز يبدد أحلام هولاكو[(١)]

بعد اغتيال عز الدين أيبك في القلعة، خلفه ابنه منصور عليّ الذي كان أحمق صغير السن، فلما هدد المغول الديار المصرية رأى المماليك ـ كما سبق بيانه ـ بقيادة سيف الدين قطز «نائب السلطنة » عزله، فاعتقلوه بإحدى القلاع بمدينة دمياط، واختاروا الملك المظفر سيف الدين قطز سلطانًا للدولة المملوكية بمصر.

والسلطان قطز هو ثالث ملوك المماليك في مصر، وكان من المقربين لعز الدين أيبك، وقد بدأ حكمه في شهر ذي القعدة من عام ٦٥٧ هـ[(٢)].

أرسل هولاكو إلى مصر يطلب من سيف الدين قطز التسليم، ويهدده بالقضاء على جيوش المسلمين كلها إن لم يسرع بذلك ظنًا منه دخول مصر بسهولة كما دخل بغداد، إلا أن سيف الدين قطز أجبره على أن يفيق من أحلامه بصاعقة لم تكن متوقعة، فقد مزق رسالته وقتل رسله وعلق رؤوسهم على مدخل القاهرة. خرج المظفر قطز في أواخر شهر شعبان سنة «٦٥٨هـ» لملاقاة التتار الذين وصلت طلائعهم إلى غزة بقيادة كتبغا، ودارت رحى المعركة بين الطرفين في عين جالوت بفلسطين في رمضان من سنة «٦٥٨هـ»، وكان بجوار قطز بيبرسُ أعظمُ فرسانِ المماليك.

---

(١)نهاية الأرب ٢٩/ ٤٧٤، ٤٧٥ .

(٢)موسوعة ألف حدث إسلامي، ص ٥٨ .

أحداث المعركة :

ودارت المعركة وحدث ارتباك شديد بين صفوف المسلمين في بداية المعركة، فلما رأى قطز ذلك عمل على رفع معنويات جنده وشد عزيمتهم، وألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصاح بأعلى صوته: وا إسلاماه.. وا إسلاماه، فاستجاب له الجند، ودوت الصيحة في ميدان المعركة، ورفع المسلمون أصواتهم بالتكبير: الله أكبر، وعمدوا إلى قتال عدوهم، وجاهدوا بإخلاص وثقة في سبيل الله للحفاظ على الدين والأرض والمال والولد، فكتب الله لهم النصر المؤزر على جحافل التتار، وقضوا عليهم قضاءً مبْرمًا.

نتائج الانتصار في عين جالوت [1]:

يعد الانتصار الذي حققه المسلمون على التتار في عين جالوت من أعظم الانتصارات في التاريخ الإسلامي على الإطلاق، فلم يكن مجرد انتصار عسكري فحسب ، بل كان انتصارًا للحضارة، وإنقاذًا للمدنية الإسلامية والإنسانية كلها من أمة همجية، لم تكتف بالقتل والذبح والتشريد، بل عملت على الهدم والتخريب والدمار، فقتلت المسلمين بوحشية، وهدمت مكتبات بغداد، وألقت بأعظم المؤلفات العلمية والحضارية في نهري دجلة والفرات، ولولا رحمة الله تعالى بهذه الأمة بأن قيض لها قادة عظماء، ورجالاً يخشون الله تعالى، وفرسانًا يعملون على إعلاء كلمة «لا إله إلا الله»، والحفاظ على وحدة الإسلام، لتغيرت أحداث التاريخ، واختلفت مجريات الأمور، وتباينت صور الحضارة في هذه البلاد، ولكن الله تعالى أراد السلامة لهذه الأمة من خطر التتار وهمجيتهم فردهم على أعقابهم مدحورين خاسرين.

فاللهم أيِّد لهذه الأمة رجلاً عظيمًا، وقائدًا فاتحًا يجمع شتات الدول الإسلامية.

---

(١) المرجع السابق.

٢٨ ـ حدث
فتح القسطنطينية [(١)]

من أعظم الأحداث في مطالع العصر الحديث ، بل يؤرخ التاريخ الحديث به على مذهب كثير من المؤرخين ، حيث كان بداية لدخول أوربا طورًا جديدًا.

محاولات الفتح السابقة :

ولنذكر هنا أن المسلمين حاصروا القسطنطينية إحدى عشرة مرة قبل هذه المرة الأخيرة، منها سبعة في القرنين الأولين للإسلام، فقد حاصرها معاوية في خلافة سيدنا علي سنة ٣٤ هـ ـ ٦٥٤ م، وحاصرها يزيد بن معاوية سنة ٤٧ هـ ـ ٦٦٧ م، وحاصرها سفيان بن أوس في خلافة معاوية سنة ٥٢ هـ ـ ٦٧٢ م، وفي سنة ٩٧ هـ ـ ٧١٥ م حاصرها مسلمة بن عبد الملك في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي، وحوصرت أيضًا في خلافة هشام بن عبدالملك سنة ١٢١ هـ ـ ٧٣٩ م، وفي المرة السابعة حاصرها أحد قواد الخليفة هارون الرشيد سنة ١٨٢ هـ ـ ٧٩٨ م[(٢)].

لقد جرت أحداث هذا الفتح العظيم عام «٨٥٧هـ ـ ١٤٥٣م». وكان ميدان المعركة هو القسطنطينية وما حولها وخليج البسفور، وكان السلطان محمد الفاتح يتطلع لفتح القسطنطينية لأمرين :

أولهما : أن يكون هو المقصود بالحديث النبوي: « لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش» [(٣)].

---

(١) فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ص ١٢، ٢٩، ٥٣ وما بعدها، د. محمد مصطفى صفوت، ط. الفاخرية،الرياض.

(٢) تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد وجدي، وصحوة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد الثاني والخلافة الإسلامية (فتح القسطنطينية) لموفق بن المرجة، ط.مؤسسة صقر الخليج، الكويت ١٩٨٤م.

(٣) أحمد في مسند الكوفيين (١٨١٨٩) من حديث بشر الخثعمي رضي الله عنه .

وثانيهما: أن فتح القسطنطينية يسهل للدولة العثمانية فتوحاتها في منطقة البلقان، ويجعل أراضي الدولة العثمانية متصلة لايتخللها عدو، وقد كانت القسطنطينية تمثل الأرض التي تعترض طريق الفتوحات في أوروبا.

وبدأ السلطان محمد الفاتح استعداده لفتح القسطنطينية ببناء قلعة على الجانب الأوربي من مضيق البسفور تواجه القلعة التي بناها جده بايزيد الملقب بـ«الصاعقة» على الجانب الآسيوي من البسفور، وكان هدفه من ذلك هو التحكم في البسفور تمامًا، وقد وضع السلطان تصميم القلعة بنفسه وبناها ٧ آلاف عامل بإشراف المعماري «مصلح الدين أغا» فأنهوا بِنَاءَهَا في أربعة أشهر.

ولما رأى الإمبراطور «قسطنطين» استعدادات العثمانيين الجادة لفتح القسطنطينية أرسل في طلب معونة من البابا «نيقولا الخامس» بابا الكنيسة الكاثوليكية فأرسل له الكاردينال «إيزودور» الذي أتم المراسم الكنسية عند وصوله في كنيسة آيا صوفيا على الطريقة الكاثوليكية، مما أثار اشمئزاز وقلق البيزنطيين الأرثوذكس نتيجة ما فعله الكاثوليك بهم قبل ذلك من أعمال وحشية [(١)].

ثم حاصر السلطان محمد الفاتح القسطنطينية برًا وبحرًا؛ فاشترك في الحصار البحري عشرون ألف جندي على أربع مئة سفينة، أما القوات البرية فكانت ثمانين ألف جندي والمدفعية مئتي مدفع، وكان على القوات البحرية العثمانية أن تقف على مدخل الخليج الذهبي وتدمر الأسطول البيزنطي المكلف بحماية مدخل الخليج، وكان البيزنطيون قد

---

(١) ولذلك لا نعجب من ميل النصارى الأرثوذكس إلى المسلمين؛ إذ لم يرغب الصرب في مساعدة المجر لهم لاختلاف مذهبهم، حيث كان المجر كاثوليكيين تابعين لبابا روما، والصرب أرثوذكسيين لا يذعنون لسلطة البابا، بل كانوا يفضلون تسلط المسلمين عليهم لما رأوه من عدم تعرضهم للدين مطلقًا، ولذلك أبرم أمير الصرب الصلح مع السلطان محمد الثاني على أن يدفع له سنويًا ثمانين ألف دوكا، وذلك في سنة ١٤٥٤م، وفي السنة التالية أعاد السلطان عليها الكرة بجيش مؤلف من خمسين ألف مقاتل، وثلاث مئة مدفع، ومر بجيوشه من جنوب بلاد الصرب إلى شمالها بدون أن يلقى أقل معارضة حتى وصل إلى مدينة بلجراد. انظر: تاريخ الدولة العلية.

أغلقوا الخليج قبل الحصار بسلسلة حديدية قوية تمنع دخول السفن إلى الخليج، مما أعاق العثمانيين.

وعند ماجاء المدد الكاثوليكي في شكل ثلاث سفن جنوية وسفينة بيزنطية بقيادة «جوستنياني» دارت معركة بينهم وبين العثمانيين وتغلب فيها «جوستنياني» ودخل الخليج بعد أن فتح له البيزنطيون السلسلة ثم أغلقوها في وجه المسلمين.

خطة محمد الفاتح العبقرية للفتح [(١)]:

وتوصل السلطان محمد الفاتح إلى خطة عبقرية للدخول إلى الخليج؛ حيث وضع أخشابًا مطلية بالزيوت على طول المنطقة من «يالطة» إلى داخل الخليج، ثم دفع السفن عليها في جنح الظلام بعد أن جذب انتباه البيزنطيين بعيدًا بإطلاق مدافع الهاون عليهم، فلم يلتفتوا إلى عملية نقل السفن إلى الخليج إلا عندما وجدوها أمامهم في الصباح فأيقنوا بالهزيمة ولكنهم لم يستسلموا.

أرسل السلطان محمد الفاتح لقسطنطين يدعوه إلى تسليم المدينة للمرة الثانية حقنًا للدماء وَيُؤَمِّن أهل القسطنطينية على أموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم، ولكن الإمبراطور رفض، وانتهز ملك المجر الفرصة وأرسل للسلطان محمد الفاتح يهدده بأنه إذا لم يتوصل لاتفاق مع إمبراطور القسطنطينية فسوف يقود حملة لسحق العثمانيين، ولكن هذه الرسالة لم تغير شيئًا من خطط السلطان.

ثم قرر السلطان محمد الفاتح أن يبدأ الهجوم العام، فبدأ بعد صلاة الفجر ودوت المدافع وأحدثت فتحة في الأسوار، ودخل منها الجنود العثمانيون، وتسلق بعضهم حبالاً وضعوها على الأسوار وفتحوا الأبواب، وتدفق الجنود على ثلاث موجات اشتركت الانكشارية في الثالثة منها، واضطر قسطنطين إلى أن يدفع بالقوات الاحتياطية، ثم أصيب «جوستنياني» وانسحب من أرض المعركة رغم توسلات الإمبراطور له أن يبقى.

---

(١) فتح القسطنطينية، ص٧٤.

واستشهد أحد أمراء العثمانيين بعد أن أقام العلم العثماني على أسوار القسطنطينية، فأسرع ١٨ جنديًا لحماية العلم واستطاعوا حمايته واستشهدوا في سبيل ذلك، واستطاع بعض الجنود رفع السلسلة الحديدية من مدخل الخليج، فتدفق الأسطول العثماني إلى الخليج ثم إلى المدينة نفسها، فساد الذعر بين البيزنطيين فقتل منهم من قتل وهرب من هرب. وتحقق النصر بفضل الله سبحانه وتعالى للمسلمين على البيزنطيين، وتحققت بشرى النبي ﷺ، وصلى محمد الفاتح الجمعة في كنيسة آيا صوفيا وأمر بتحويلها إلى مسجد وقد كان بحمد الله[1].

العدل الإسلامي « وحرية الأديان » :

دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود منشغلين بالسلب والنهب وغيره فأصدر أوامره بمنع كل اعتداء، فساد الأمن حالا، ثم زار كنيسة آيا صوفيا وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة؛ إعلانًا بجعلها مسجدًا جامعًا للمسلمين، وبعد تمام الفتح على هذه الصورة أعلن في الجهات كافة بأنه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيين، بل إنه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم، فرجع من هاجر من المسيحيين وأعطاهم نصف الكنائس وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين ، ثم جمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريقًا لهم، فاختاروا جورج سكولاريوس.

واعتمد السلطان هذا الانتخاب وجعله رئيسًا لطائفة الأروام، واحتفل بتثبيته بنفس الأبهة والنظام الذي كان يعمل للبطارقة في أيام ملوك الروم المسيحيين، وأعطاه حرسًا من عساكر الإنكشارية، ومنحه حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية بأنواعها كافة المختصة بالأروام، وعين معه في ذلك مجلسًا مشكلاً من أكبر موظفي الكنيسة، وأعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقسوس، وفي مقابلة هذه المنح فرض عليهم دفع الخراج، مستثنيًا من ذلك أئمة الدين فقط. وبعد إتمام هذه الترتيبات وإعادة بناء ما هدم من أسوار المدينة وتحصينها سافر بجيوشه لفتح بلاد جديدة.

---

(١)موسوعة ألف حدث إسلامي ، ص ٢٨٥ .

الفصل الرابع
أحداث مأساة القدس وفلسطين

أحداث مأساة القدس وفلسطين
٢٩ ـ حدث
مأساة فلسطين الحديثة والمعاصرة
القدس [١]

الموقع الجغرافي :

تقع مدينة القدس في دولة فلسطين التي يحدها من الشمال سوريا ولبنان، ومن الجنوب خليج العقبة، ومن الغرب البحر المتوسط، ومن الجنوب الغربي سيناء، ومن الشرق الأردن.

وتبلغ مساحة القدس ١٩.٣٣١ كم٢، وتحيط بها الأودية والمرتفعات من جميع الجهات.

تاريخ القدس :

كانت تسمى مدينة القدس باسم أورسالم، ثم تحولت إلى أورشليم، وقد دخلها النبي داود ـ عليه السلام ـ حوالي عام ١٠٠٠ق.م، وجعلها عاصمة لملكه، وفي سنة ٩٧٥ق. م بنى فيها النبي سليمان ـ عليه السلام ـ هيكله، وأصبحت تُدعى المدينة المقدسة.

وفى عام ٧٠ م دمَّرها الرومان بقيادة تيطى، ثم أعاد الإمبراطور هادريانوس بناءها سنة ١٣٥م، وفي عام ١٦هـ ـ ٦٣٨ م فتحها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن سلمها له البطريرك صفرونيوس. وقد شهدت القدس في العهود الإسلامية المتعاقبة تطورًا وعدلاً ساد المدينة واطمأن أهلها من المسلمين والنصارى واليهود. وفي العهود الأموية، والعباسية، والفاطمية لقيت مدينة القدس عناية كبيرة، وانتشر فيها بناء المساجد.

---

(١) القدس تاريخ وحضارة للأستاذة عبلة المهتدي الزبدة، ص١٥ ـ ١٧، تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، د. فاروق عمر فوزي، المقدمة وما بعدها ، وانظر: موقع اليهود على شبكة الإنترنت وروابطه المتعددة.

وفي عام ١٠٩٩ م سقطت القدس في يد الصليبيين، واستمرت أسيرة لهم إلى أن قام القائد صلاح الدين الأيوبى بتحريرها عام ٥٨٣هـ ـ ١١٨٧م إثر موقعة حِطِّين.

وفي العهد المملوكي تطورت القدس تطورًا بارزًا في علومها ومعالمها، وقد زارها الظاهر بيبرس سنة ٦٦١هـ ـ ١٢٦٢ م، واهتم بزراعتها ومساجدها، وشجَّع العلم والعلماء فيها. وفي سنة ٩٢٣هـ ـ ١٥١٧ م دخلها العثمانيون بعد موقعة مرج دابق في الشام، وكان للقدس موقع مميز في سياسة الدولة العثمانية[(١)].

وقد تحالفت الدول الأوروبية للسماح لليهود بالهجرة إلى الأراضي المقدسة، غير أن الدولة العثمانية رفضت هجرة اليهود إلى القدس، وكان لموقف السلطان عبدالحميد الثاني شأن عظيم،حيث طردهم من القدس.

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ م خضعت القدس وبلاد فلسطين للاحتلال البريطاني، ونتيجة لهذا الاحتلال تزايدت الهجرة اليهودية إلى القدس، وإلى مدن فلسطين كافة.

وفى سنة ١٩٤٨ م تم إعلان دولة لليهود في فلسطين، وتم تقسيم القدس إلى قسمين: عربية، ويهودية. وفي سنة ١٩٦٧ م استطاع اليهود احتلال القدس العربية، وبذلك باتت المدينة الشريفة كلها خاضعة للاحتلال اليهودي. ولا يزال سكان القدس ومناطق فلسطين كافة يناضلون من أجل تحرير الأرض والشعب من الاحتلال.

أهم آثار ومعالم القدس :

المساجد : حيث يوجد بها ما يقارب ٣٦ مسجدًا من أهمها :

- المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين.
- مسجد قبة الصخرة: الذي أمر ببنائه عبدالملك بن مروان.

---

(١)انظر : المرجع السابق، وفلسطين في خمسة قرون، خليل عثامنة ، ط. مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ٢٠٠٠م.

< مسجد الطور: الذي بناه السلطان العثماني سليم الأول سنة ١٥١٧م.

< والمسجد العمري: الذي أقامه الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي.

< سبيل قايتباي : وبرج الساعة: الذي أنشئ عام ١٩٠٩ م.

ويوجد بالقدس العشرات من المقابر الأثرية التي تضم رفات بعض الصحابة والتابعين والعلماء.

كما يوجد بها العديد من الكنائس منها: كنيسة القيامة، ودير المسكوبية، وكنيسة الرسل الاثنى عشر، ودير يوحنا المعمدان، وكنيسة القديسة حَنَّة.

وفيها أيضًا ضريح النبي داود عليه السلام ، ومن أبرز علماء مدينة القدس: قاضي القضاة عماد الدين أبوحفص القرشي الزهري شارح صحيح مسلم، والفقيه ضياء الدين أبومحمد عيسى الهكاري أحد مستشاري صلاح الدين الأيوبي، والإمام العالم شمس الدين المقدسي، وزين الدين عبدالقادر النواوي الشافعي.

٣٠ ـ حدث في أحداث
فلسطين في أربعين حدثًا

التسلسل الزمني لتاريخ فلسطين ١٩٠٠ ـ ١٩٨٤م :

م	التاريخ	الحدث
١	١٨٤٥-١٩١٤ م	اليهود في فلسطين
٢	١٨٩٦-١٩١٦ م	الحركة الصهيونية
٣	١٩١٦ م	اتفاقية سايكس ـ بيكو
٤	١٩١٧ م	وعد بلفور
٥	١٩١٨ م	الهجرة اليهودية
٦	١٩١٩ م	أول مؤتمر وطني فلسطيني
٧	١٩٢٠ م	مؤتمر سان ريمو
٨	١٩٢٢ م	الانتداب على فلسطين
٩	١٩٢٤ م	سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية
١٠	١٩٢٩ م	الاحتجاجات
١١	١٩٣٦ م	إضراب الستة أشهر
١٢	١٩٣٧ م	لجنة بيل
١٣	١٩٣٩ م	بريطانيا تمنع الهجرة اليهودية
١٤	١٩٤٥ م	المعضلة الفلسطينية البريطانية
١٥	١٩٤٧ م	انسحاب بريطانيا ، وقرار التقسيم
١٦	١٩٤٨ م	أول حرب عربية إسرائيلية
١٧	١٩٤٨ م	إنشاء الكيان الصهيوني

١٨	١٩٤٥ م	عبد الناصر يأخذ السلطة في مصر
١٩	١٩٥٤ م	العدوان الثلاثي على مصر ـ السويس
٢٠	١٩٥٨ م	الوحدة العربية
٢١	٢٨ مايو ١٩٦٤ م	المؤتمر الشعبي الفلسطيني الأول بالقدس لإعلان إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية
٢٢	١٩٦٥ م	بدء تكوين المقاومة الفلسطينية
٢٣	١٩٦٧ م	حرب الأيام الستة
٢٤	أغسطس ١٩٦٩ م	إحراق الصهاينة للمسجد الأقصى
٢٥	٦إبرايل ١٩٧٢ م	المؤتمر الشعبي الفلسطيني الثاني بالقاهرة لتعديل الميثاق القومي الفلسطيني
٢٦	١٩٧٢ م	عملية ميونخ
٢٧	١٩٧٣ م	حرب أكتوبر
٢٨	١٩٧٤ م	منظمة التحرير تمثل الشعب الفلسطيني
٢٩	١٩٧٤ م	اعتراف الأمم المتحدة بالمقاومة الفلسطينية
٣٠	١٩٧٩ م	اتفاقية كامب ديفيد
٣١	١٩٧٩ م	هجرة اليهود الروس
٣٢	٢٣ مارس ١٩٧٩ م	قرار مجلس الأمن بإدانة إسرائيل لإقامة المستوطنات
٣٣	١٩٨١ م	غزو إسرائيل لجنوب لبنان ومجابهة مع منظمة التحرير
٣٤	١٩٨١ م	اتفاق تعاون إستراتيجي بين إسرائيل وأمريكا

٣٥	١٩٨١ م	إعلان العدو ضم الجولان إلى إسرائيل
٣٦	٥ يونيو ١٩٨٢ م	الاجتياح الإسرائيلي للبنان
٣٧	٢٣ أكتوبر ١٩٨٣ م	تدمير مقر القوات البحرية الأمريكية «المارينز» ببيروت
٣٨	١٩٨٣ م	توقيع اتفاق لبناني - إسرائيلي مماثل لكامب ديفيد
٣٩	١٩٨٤ م	انعقاد مؤتمر يهودي بالمغرب
٤٠	يونيو ١٩٨٤ م	المؤتمر الشعبي الفلسطيني الثالث بالجزائر حول الكيان السياسي الفلسطيني

٣١ ـ حدث
أربعين المذابح اليهودية للفلسطينيين

إنها مجرد لمحة على المذابح الإسرائيلية ضد الفلسطينيين..

إنها قليل من كثير ونقطة أسى من بحار دم عديدة ..

م	المكان	التاريخ	المجرمون	عدد القتلى
١	قرية الشيخ	٣١/ ١٢/ ١٩٤٧م	الهاجاناه	٦٠٠
٢	منصورة الخيط	١٨/ ١/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٣	قرية سعسع	١٤/ ٢/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٤	قيسارية	١٥/ ٢/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٥	وادي عاره	٢٧/ ٢/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٦	حواسة	٢٧/ ٢/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٧	قرية أبو كبير	٣١/ ٣/ ١٩٤٨م	الهاجانا	
٨	خربة ناصر الدين	١٢/ ٤/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٩	دير ياسين	١٤/ ٤/ ١٩٤٨م	الأرجون	٢٥٤
١٠	الوعرة السوداء	١٨/ ٤/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	

م	المكان	التاريخ	المجرمون	عدد القتلى
١١	حيفا	٢١/ ٤/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
١٢	الحسينية	٢١/ ٤/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
١٣	بلد الشيخ	٢٥/ ٤/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
١٤	عين الزيتون	٢/ ٥/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
١٥	بيت دراس	١١/ ٥/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
١٦	خبيزة	١٢/ ٥/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
١٧	أبو شوشه	١٤/ ٥/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	٥٠
١٨	الكابري	٢١/ ٥/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
١٩	الطنطورة	٢١/ ٥/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٢٠	قزازة	٩/ ٧/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٢١	اللـد	١١/ ٧/ ١٩٤٨م	موشي دايان	
٢٢	الطيرة	١٦/ ٧/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	٤٢٦
٢٣	أجـزم	٢٤/ ٧/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٢٤	بئر السبع	٢١/ ١٠/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٢٥	الدوايمـة	٢٩/ ١٠/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	

م	المكان	التاريخ	المجرمون	عدد القتلى
٢٦	مجد الكروم	٢٩/ ١٠/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٢٧	صفصاف	٢٩/ ١٠/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٢٨	صالحة	٣٠/ ١٠/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٢٩	عرب السيمنية	٣٠/ ١٠/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٣٠	قرية عيلبون	٣٠/ ١٠/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٣١	دير السد	٣١/ ١٠/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٣٢	الخصاص	١٨/ ١٢/ ١٩٤٨م	جماعات يهودية	
٣٣	القوبية	١٤/ ١٠/ ١٩٥٣م	الجيش الإسرائيلي	٦٧
٣٤	قرية قلقليا	١٠/ ١٠/ ١٩٥٦م	الجيش الإسرائيلي	٧٠
٣٥	كفر قاسم	٢٩/ ١٠/ ١٩٥٦م	الجيش الإسرائيلي	٥٢
٣٦	خان يونس	٣/ ١١/ ١٩٥٦م	الجيش الإسرائيلي	٢٥٠
٣٧	خان يونس	١٢/ ١١/ ١٩٥٦م	الجيش الإسرائيلي	٢٧٥
٣٨	مخيم صبرا وشاتيلا	١٨/ ٩/ ١٩٨٢م	الجيش الإسرائيلي	٣٥٠٠
٣٩	المسجد الأقصى	٨/ ١٠/ ١٩٩٠م	الجيش الإسرائيلي	٢١
٤٠	المسجد الإبراهيمي	٢٥/ ٢/ ١٩٩٤م	باروخ جولد شتاين	٥٠

اليهود في يثرب قديمًا وتوزيعهم في العالم حديثًا [(١)]:

تذكر المصادر التاريخية روايات كثيرة مختلفة لوجود اليهود في يثرب في العصر الجاهلي، وتجمع على أنهم جاؤوا إليها من خارج الجزيرة العربية في عدة هجرات متوالية:

الهجرة الأولى : في سنة ٥٨٩ ق.م عندما اقتحم بختنصر البابلي أورشليم ودمر الهيكل وسبى معظم أهلها، فهرب جماعة منهم وساروا إلى بلاد الحجاز ونزلوا «يثرب».

الهجرة الثانية : ما بين عامي ٦٦ - ٧٠ م عندما هاجم القائد الروماني تيتوس فلسطين ودمر أورشليم ثانية وشتتهم وأغرق عددًا كبيرًا منهم في بحيرة لوط ، ففر الناجون إلى الحجاز ووصلوا «يثرب» وأقاموا فيها مع من سبقهم.

الهجرة الثالثة : عام ١٣٢م عندما أرسل الإمبراطور الروماني هارديان جيشًا إلى فلسطين فأخرجهم منها ومنعهم من دخولها نهائيًا وفر من نجا منهم إلى جزيرة العرب.

وكانت «يثرب» عندما جاءها أشتات اليهود الهاربين عامرة بمجتمع يضم قبائل عربية بعضها بقية من العماليق وبعضها قبائل توافدت من أطراف «يثرب» القريبة والبعيدة، وأول من وصل «يثرب» من اليهود ثلاث قبائل هم: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، ثم تبعتهم قبائل أخرى ونزلت بنو النضير عند وادي «بطحان» وبنوقريظة عند وادي «مهزور» وبنو قينقاع في الوسط، ثم انتشروا في أخصب بقاع المنطقة.

وقد سالموا العرب المقيمين في يثرب أول الأمر وأحسنوا التعامل معهم وانهمكوا في زراعتهم وبعض الصناعات التي كانوا يتقنونها، ودفعوا لرؤساء القبائل المجاورة إتاوة مقابل عدم مهاجمتهم، وأقاموا تجمعات مغلقة وبنوا الحصون والآطام، وجمعوا ثروات كبيرة، وكان أحبارهم يختصون بالأمور الدينية ويحكمون فيما يقع بينهم من خصومات.

وقد اهتموا بزراعة النخل واتسعت زراعتهم وكثرت أطماعهم وانتشرت في الأطراف الشرقية والجنوبية من يثرب، ولم يتحمسوا لنشر عقيدتهم بين القبائل العربية الوثنية،

---

(١)القدس تاريخ وحضارة ، المقدمة.

واكتفوا ببعض الأفراد والأفخاذ التي مالت إليهم، ثم تهودت تدريجيًا، وما لبثوا أن سيطروا على الحركة الاقتصادية وأشاعوا القروض الربوية الفاحشة.

إحصائية بعدد اليهود في العالم[١]

العدد	البلد	العدد	البلد
٤٠,٠٠٠	مولدافيا	٥,٨٠٠,٠٠٠	الولايات المتحدة الأمريكية
٤٠,٠٠٠	المكسيك	٤,٤٢٠,٠٠٠	فلسطين
٣٥,٠٠٠	بلجيكا	٦٠٠,٠٠٠	فرنسا
٣٤,٠٠٠	روسيا البيضاء	٦٠٠,٠٠٠	روسيا
٣١,٠٠٠	إيطاليا	٤٤٦,٠٠٠	أوكرانيا
٣٠,٠٠٠	الأورجواي	٣٦٠,٠٠٠	كندا
٢٥,٠٠٠	هولندا	٣٠٠,٠٠٠	بريطانيا
٢٥,٠٠٠	إيران	٢٥٠,٠٠٠	الأرجنتين
٢٥,٠٠٠	أذربيجان	١١٤,٠٠٠	جنوب إفريقيا
٢٠,٠٠٠	تركيا	١٠٠,٠٠٠	أستراليا
١٩,٠٠٠	سويسرا	١٠٠,٠٠٠	البرازيل
١٨,٠٠٠	فنزويلا	٨٠,٠٠٠	هنجاريا
١٧,٠٠٠	تشيلي	٦٠,٠٠٠	ألمانيا
١٦,٠٠٠	السويد	٤٥,٠٠٠	أوزبكستان
٥,٠٠٠	طاجكستان	١٥,٠٠٠	كازاخستان
٥,٠٠٠	نيوزيلاندا	١٥,٠٠٠	رومانيا
٥,٠٠٠	بيرو	١٥,٠٠٠	إسبانيا

(١) انظر: إياد محمد جابر، موقع المستوطنات اليهودية على شبكة الإنترنت.

العدد	البلد	العدد	البلد
٥,٠٠٠	اليونـان	١٥,٠٠٠	لاتفيا
٤,٥٠٠	بنما	١٣,٠٠٠	جورجيا
٤,٥٠٠	قرغيزسـتان	١٠,٠٠٠	بولندا
٤,٠٠٠	بلغاريا	٨,٠٠٠	النمسا
٣,٠٠٠	استونيا	٨,٠٠٠	كولومبيا
٣,٠٠٠	إثيوبيا	٧,٥٠٠	المغرب
٢,٥٠٠	صربيا ومونتنجرو	٧,٠٠٠	الدنـمارك
٢,٥٠٠	كوستاريكا	٦,٥٠٠	ليتوانيا
٢,٥٠٠	تونس	٦,٠٠٠	سلوفاكيا
٢,٠٠٠	كرواتيا	٦,٠٠٠	التشيك
٢,٠٠٠	هونج كونج	٦,٠٠٠	الهند
١٠٠	الفلبين	٢,٠٠٠	تركمانستان
١٠٠	إندونيسيا	٢,٠٠٠	بورتوريكو
١٠٠	كوريا	١,٨٠٠	أيرلندا
١٠٠	تايوان	١,٣٠٠	فنلندا
١٠٠	مالطا	١,٠٠٠	الإكوادور
١٠٠	الجزائر	١,٠٠٠	النرويج
١٠٠	لبنان	١٠٠	مصر

وأقـل مـن ١٠٠ نـسمة في كـل مـن ٣٨ دولـة أخـرى بمعـدل ١٠٠نـسمة (المجمـوع ١٣.٨٥٦.٦٠٠)

الباب الثالث
الدول.. قياماً وسقوطاً

الفصل الأول : الدولة الأموية .

الفصل الثاني : الدولة العباسية .

الفصل الثالث : الدولة الإسلامية في الأندلس.

الفصل الرابع : الدولة الأيوبيـة .

الفصل الخامس : دولة المماليـك .

الفصل السادس : الدولة العثمانية .

الفصل الأول
الـدولــة الأمـويَّــة

٣٢ ـ حدث
قيام الدولة الأموية

تأسيس الدولة الأموية :

عام الجماعة هو عام التأسيس الفعلي للدولة الأموية :

في عام « ٤١ هـ ـ ٦٦١م » ويسمى عام الجماعة، تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن حرب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه الذي كان واليًا على الشام منذ عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهم جميعًا[١].

وبتنازل الحسن استقر الأمر لمعاوية فأصبح خليفة المسلمين، وقامت دولة بني أمية التي تنتسب إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فحكمت نحو تسعين عاما «٤١ ـ ١٣٢هـ / ٦٦١ ـ ٧٥٠م » ونقلت عاصمة الحكم من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجاز إلى دمشق بالشام. كان نظام الحكم في عهد بني أمية عائليًا، وقد تداول الحكم أربعة عشر خليفة أولهم معاوية وآخرهم مروان بن محمد الذي قتله العباسيون في « أبو صير » من حلوان مصر.

الخلفاء الأمويون :

هذا جدول لتعداد الخلفاء الأمويين حتى آخر واحد منهم :

م	اسم الخليفة	سنة توليه (هجري ـ ميلادي

(١) شهدت نشأة الدولة الأموية خلافات وأزمات بين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وسيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكان من الممكن أن تستمر هذه المحنة طويلاً لولا أن الحسن بن علي الذي بويع بالخلافة بعد أبيه رضي الله عنه تنازل عنها لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه حقناً لدماء المسلمين وتوحيداً لكلمتهم، وقد كان ذلك في عام ٤١ هـ الذي سمي بعام الجماعة، وهو يعد البدء الحقيقي للدولة الأموية التي بدأت بالتحديد حين أُخِذَتْ البيعة لمعاوية بن أبي سفيان بالكوفة في حضور الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ يوم ٢٥ من ربيع الأول عام ٤١هـ. ومنذ ذلك اليوم أخذت شجرة الخلافة الأموية في النمو والازدهار والتفرع.

١	معاوية بن أبي سفيان[١]	٢٥ من ربيع الأول سنة ٤١هـ «يوليو ٦٦١م»
٢	يزيد بن معاوية	رجب سنة ٦٠هـ « أبريل ٦٨٠م »
٣	معاوية بن يزيد	١٥من ربيع الأول سنة ٦٤هـ ـ «نوفمبر ٦٨٣م»
٤	عبد الملك بن مروان	٢٧ من رمضان ٦٥هـ «مارس ٦٨٥م »
٥	الوليد بن عبد الملك	١٤من شوال ٨٦هـ « أكتوبر ٧٠٥م »
٦	سليمان بن عبد الملك	١٥من جمادى الآخرة ٩٦هـ «فبراير ٧١٥م»
٧	عمر بن عبد العزيز[٢]	١٠من صفر ٩٩هـ «سبتمبر ٧١٧م»
٨	يزيد بن عبد الملك	٢٠ رجب ١٠١هـ «فبراير ٧٢٠م»
٩	هشام بن عبد الملك	٢٦ شعبان ١٠٥هـ «يناير ٧٢٤م»

(١)كان معاوية بن أبي سفيان ﵁ أول الخلفاء الأمويين ومؤسس دولتهم، وكان مولده بالخيف من منى قبل الهجرة بخمس عشرة سنة، وأمه: هند بنت عتبة، وأبوه: أبو سفيان بن حرب، وقد أسلموا جميعًا في فتح مكة. وأصبح معاوية من كُتَّاب الوحي لرسول الله ﷺ، واشترك في حروب الردة مع أخيه وأبيه، ثم ولاه عمر جزءا من بلاد الشام، فلما جاء عثمان ﵁ جمع الشام كلها تحت حكمه. وبموت معاوية سنة ٦٠هـ بايع المسلمون ابنه يزيد، وحكم ثلاث سنوات، ثم مات سنة ٦٤هـ، وعمره ثمانية وثلاثون عاما.

(٢)عمر بن عبد العزيز ولي الخلافة فى ١٠ صفر ٩٩هـ (سبتمبر ٧١٧م) هو: أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أحد خلفاء الدولة الأموية بالشام، وخامس الخلفاء الراشدين. ولد عمر بن عبد العزيز ﵁ في المدينة سنة (٦١هـ). وقد استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام، وولي الخلافة بعهد منه سنة (٩٩هـ)، وبويع له في مسجد دمشق وكانت مدة خلافته سنتين ونصفًا،واتسمت خلافته بشيوع العدل والأمن بين الرعية، حتى وصف بأنه الملك العادل، والخليفة الصالح، وكان زاهدًا فى الدنيا حيث جعل كل ما يملكه في سبيل الله، وقال عنه الشافعي: الخلفاء خمسة: أبوبكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز.

وقال عنه ابن سعد في طبقاته: إن عمر بن عبدالعزيز لما استُخلف باع كل ما كان يملكه من عبيد ولباس وكل ما يستغنى عنه، فبلغ (٢٣) ألف دينار، جعل ذلك في سبيل الله. وقال عنه ابن سيرين: هو إمام الهدى .

وقال مالك بن دينار: يقولون: مالك زاهد، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فتركها. وكانت وفاته ﵁ سنة (١٠١هـ). رحم الله عمر بن عبد العزيز، فقد كان مثالاً للخليفة العادل الزاهد فى الدنيا، وله مواقف عديدة تنظر في مظانها من كتب التراجم.

١٠	الوليد بن يزبد بن عبد الملك	ربيع الثاني ١٢٥هـ «فبراير ٧٤٣م»
١١	يزيد بن وليد بن عبد الملك	جمادى الآخر ١٢٦هـ «إبريل ٧٤٤م»
١٢	إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	ذي الحجة ١٢٦هـ «سبتمبر ٧٤٤م»
١٣	مروان بن محمد بن مروان لن الحكم[(١)]	صفر ١٢٧هـ «نوفمبر ٧٤٤م »

فتوحات الدولة الأموية في شرق الأرض ومغربها [(٢)] :

اتسعت فتوحات الدولة الأموية اتساعًا عظيمًا، منذ عهد معاوية الذي لم تكد تستقر له الأوضاع حتى جهز الجيوش وأنشأ الأساطيل، وأرسل قواده إلى أطراف الدولة لتثبيت دعائمها، بعد أن حاول الفرس والروم استغلال فترة الفتنة بين علي ومعاوية ــ رضي الله عنهما.

وقد أخضعت هذه الجيوش ثورة فارسية هدفت إلى الامتناع عن دفع الجزية، ثم توغلت جيوشه شرقًا، فعبرت نهر جيحون، وفتحت بخارى وسمرقند وترمذ، ومن الجهة الرومانية، كان الرومان قد أكثروا من الغارات على حدود الدولة الإسلامية في الناحية الشمالية الغربية، فأعد معاوية لهم الجيوش، وانتصر عليهم في مواقع كثيرة.

وبأسطوله الذي بلغت عدته ١٧٠٠ سفينة، فتح قبرص ورودس وغيرهما من جزر الروم ـ كما قام بالمحاولة الأولى لفتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية سنة ٤٨هـ، فأرسل جيشًا بإمرة ابنه يزيد، وجعل تحت إمرته عددًا من خيرة الصحابة؛ كعبد الله ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وأبي أيوب الأنصاري، لكن المحاولة لم تنجح.

---

(١)آخر خلفاء بني أمية، فقد انتهت الخلافة الأموية بمقتله فى ٢٧ ذي الحجة ١٣٢هـ .

(٢)د. عبدالحليم عويس ، دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية.

ومن الشمال الإفريقي: تونس والجزائر والمغرب الأقصى، امتد الفتح الإسلامي، فأرسل «معاوية» عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ في عشرة آلاف مقاتل، لتثبيت فتحها، وقد عمل عقبة على نشر الإسلام بين البربر، ثم بني مدينة القيروان، وفي عهد الخليفة «يزيد بن معاوية» وصل عقبة في اكتساحه للشمال الإفريقي حتى المحيط الأطلسي غربًا، وقال هناك كلمته المأثورة: والله لو لا هذا البحر لمضيت في سبيل الله مجاهدًا.

وفي الشرق اتجهت جيوش عبد الملك بن مروان ـ الخليفة الأموي الرابع ـ إلى التوسع في بلاد ما وراء النهر، وكانت القيادة في هذا الركن للمهلب بن أبي صفرة وليزيد بن عبد الملك، وكان من أبرز الفتوحات في عهد الوليد بن عبد الملك فتح بلخ، والصفد، ومرو، وبخارى، وسمرقند، وذلك كله على يدي قتيبة بن مسلم الباهلي.

أما محمد بن القاسم الثقفي فقد فتح السند «باكستان»، وفتح مسلمة بن عبد الملك فتوحات كثيرة في آسيا الصغرى، منها فتحه لحصن طوالة وحصن عمورية، وهرقلة، وسبيطة، وقمونية، وطرسوس، كما حاصر القسطنطينية أيام سليمان بن عبد الملك. وفي أوربا فتح موسى بن نصير الأندلس، وبقيت في حوزة المسلمين ثمانية قرون «٩٢ ـ ٨٩٨ هـ».

وقد حاول عنبسة بن سحيم الكلبي غزو جنوب فرنسا وفتح سبتمانية، وبرغونية، وليون ـ ونجح المسلمون في ذلك نجاحًا مؤقتًا، حتى انتهت هذه المحاولات بعيد موقعة بلاط الشهداء التي قادها عبد الرحمن الغافقي بقليل، ولم يكن لهذه الفتوحات صدىً حقيقي؛ لأنها كانت أشبه بحملات جهادية فردية.

٣٣ ـ حدث
سقوط الدولة الأموية

ولماذا سقط هؤلاء العظماء ؟ [(١)]:

كان معاوية رضي الله عنه ـ بلا ريب ـ أحد دهاة العرب القلائل، وكان رجل دولة وخبير سياسة بمعنى الكلمة، بيد أنه كانت هناك حقيقة حضارية ينبغي عليه إدراكها وهي : أن الحضارة حين ينفصل جسدها عن دماغها لا يمكن أن تكون قابلة للبقاء، حين يحدث انشقاق بين روح الأمة وجهاز عملها المادي تحدث الآلية القاتلة وتسير القافلة بلا روح، تماما كما يسير الذي قطع رأسه من جسده، إنه لا بد من أن يسقط بعد خطوات.

ومنذ قامت الدولة الأموية، واعتمد فيها نظام وراثة الخلافة كرهًا عن الأمة، منذ هذا الحدث وثمة انفصال بين جسد الأمة وروحها ذاقت منه الأمة الإسلامية مر الأهوال، وكان أحد الأسباب، بل أهمها.

رأي المؤرخين في سبب سقوط الدولة الأموية :

وقد اختلف المؤرخون في سقوط هذه الدولة العظيمة، دولة الفتوحات، وقد رأى بعضهم أن السبب يكمن في :

١ ـ النزاع بين المضرية واليمانية، الذي ابتدأ منذ أيام مؤسس الدولة الأموية معاوية، فهذا النزاع قد أدى إلى ضياع بني أمية.

٢ ـ ويرى بعضهم أن مصرع الحسين بن علي في كربلاء كان الداء القاتل الذي تفاقم حتى قضى عليها.

٣ ـ ورأى آخرون أن العامل الهام الذي أدى إلى سقوط بني أمية هو تعصب الأمويين للعرب، مما أدى إلى خروج الموالي على الدولة الأموية وهم غير العرب الذين دخلوا في

---

(١) اعتمدنا بصفة رئيسية على التحليل الرائع الذي ساقه الأستاذ الدكتور عبدالحليم عويس في دراسته الجديدة المبدعة عن سقوط ثلاثين دولة، وهو بحث له على موقع الإيمان على الإنترنت.

الإسلام عقب الفتح العربي في فارس ومصر والمغرب، وما لبث هؤلاء أن أصبحوا أعداء للعرب من بني أمية، ولا شك أن سلوك الوليد بن يزيد الذي أدى إلى مصرعه كان من أبرز الأسباب المباشرة في فساد الأحوال، فالاستبداد الفردي عامل من عوامل سقوط الدولة. قال به كثيرون.

السبب الرئيس لسقوط الدولة الأموية :

وقد تكون كل هذه الأسباب صحيحة، بل قد تكون متداخلة، لكننا نميل متابعين للدكتور عبدالحليم عويس إلى أن السبب الجوهري يكمن في العنصرية الأموية التي جعلتهم يرفعون العرب على حساب غيرهم، ويثيرون الأحقاد في بقية الطوائف المسلمة.

نفاذ حكم الله .. وثبات سننه :

لقد كانت حركة التاريخ التي هي من سنة الله قد قالت في الدولة الأموية كلمتها وقد حاول «نصر »[1] أن يستعمل ذكاءه في إنقاذ الدولة، إذ كان يستشف ببصيرته الوقادة أن ثمة أمورًا تُبَيَّتُ للدولة، وأن دولة الأمويين على وشك الرحيل، وكم كاتب الخليفة الأموي الأخير « مروان » في ذلك ولكن دون جدوى، لقد اتسع الخرق على الراقع، ووجب أن ينهار البناء.

وكان مروان مشغولاً بسداد « شيكات » سابقيه من الديون، في بنك الضياع، فلم يمكنه أن يستجيب لا لنصر ولا لضميره الذي كان يحس بقرب الكارثة، هكذا تفعل الدول بنفسها، نتيجة ظلمها وتراكم هذا الظلم.

وعندما سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ، ولقي مروان المسكين مصرعه في حلوان بمصر، كان كتاب التاريخ يطوي إحدى صفحاته، يطويها بعنف؛ لأن أبطالها أرادوا لأنفسهم هذا، حين راحوا ينفصلون عن ضمير الأمة ووجدانها، ويعزلون أنفسهم عن شعوبهم بطبقة من العمال الظالمين الغاشمين وبعنصرية عربية قومية ظالمة، لقد فتحوا كثيرًا

---

(١)نصر بن سيار، والي خراسان في عهد الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

من الأراضي، لكنهم فشلوا في أن يفتحوا القلوب والعقـول.

وأخيرًا : تلك هى سنة الله النافذة في خلقه ... فيا حبذا أن يستفيق حكامنا وأن يبصروا مكانهم في التاريخ ... فطوبى لمن سقى غصنه ما دامت فيه رطوبة.

الفصل الثاني
الـدولــة العباسيـة

٣٤ ـ حدث
قيام الدولة العباسية [(١)]

تنسب الدولة العباسية إلى العباس بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ، وبنو العباس هم الفرع الثاني من بني هاشم، أما الفرع الأول فهم العلويون أبناء الإمام علي بن أبي طالب، وكان لتأسيس الدولة العباسية قصة طويلة، ومن مدينة «الكوفة» بالعراق بدأ العباسيون يخططون لدولتهم.

والحق يقال : إن هناك عدة عوامل ساعدت على قيام الدولة العباسية، فإلى جانب التخطيط الجيد والسرية، أحسن العباسيون اختيار الدعاة والرجال الذين أقاموا الدولة وأذكر من هؤلاء : أبا مسلم الخراساني أبرز الدعاة في خراسان، وأباسلمة الخلال كبير الدعاة بالكوفة. وكان ازدهار الدعوة العباسية وانتشارها في خلافة عمر بن عبد العزيز؛ فقد استقرت الأمور في عهده، ولم يكن يميل إلى القسوة على بني هاشم.

وظل العمل الدؤوب المستمر من قبل الدعاة العباسيين حتى كانت ليلة الخميس الخامس والعشرين من رمضان سنة «١٢٩هـ» إذ ظهر العباسيون براياتهم السوداء وأعلنوا الثورة على الدولة الأموية، وانطلقت الجيوش العباسية بقيادة أبى مسلم الخراسانى وقحطبة بن شبيب تزحف على ولايات الدولة الأموية وتستولي عليها، فقد دانت خراسان كلها لأبي مسلم الخراساني، ودانت الكوفة لقحطبة بن شبيب، وبمرور الوقت دانت كل المدن الأموية للعباسيين من أقصى الشرق حيث كابل، لأقصى الغرب حيث قرطبة وإشبيلية مرورًا بالقدس والخليل والرها وغيرها.

وشهد عام «١٣٢هـ» بالتحديد حدثًا تاريخيًا كبيرًا وهو سقوط دولة بني أمية لتنمو وتزدهر

---

(١) موسوعة الحضارة الإسلامية «موقع إسلام أون لاين»، والدولة العربية الإسلامية منذ العام الأول الهجري وحتى نهاية العصر العباسى الأول، محمد جمال سرور، ص ١ ــ ١٠ ومابعدها، والدولة الأموية نفس المبحث، وموسوعة ألف حدث إسلامي، ص ٨٥ .

على أرضها شجرة الدولة العباسية. وبدأ ذلك بانتقال مؤسس الدولة أبي العباس عبد الله ابن محمد ــ المعروف بالسفاح ــ ومعه الأسرة العباسية إلى «الكوفة» وهناك بايعه النقباء والأمراء بالخلافة في قصر الإمارة، ثم خرج إلى الناس فخطب فيهم وأخذ البيعة، وتم الأمر لبني العباس بمقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ.

تقسيم الدولة العباسية :

فبعضهم قسمها إلى عصور قوة وضعف حسب قوة الدولة وضعفها في كل مرحلة من مراحل تاريخها، وبعضهم الآخر قسمها حسب العوامل المختلفة التي أثرت في سيرة الدولة كسيطرة الجند والقادة على مركز الخلافة، أو تأثير الدول القوية على الخلفاء، وقد أقرّ غالبية المؤرخين هذا التقسيم، فقسموا الدولة العباسية إلى ثلاثة عصور رئيسية هي:

العصر	الفترة الزمنية	صفات العصر
العصر العباسي الأول	«١٣٢هـ- ٢٣٢ هـ»	وكان أقوى عصور الدولة العباسية.
العصر العباسي الثاني	«٢٣٢ هـ- ٥٩٠هـ»	وفي هذا العصر بدأت تضيع السلطة من أيدي الخلفاء، وسيطر العسكريون على الحكم
العصر العباسي الثالث والأخير	«٥٩٠ هـ- ٦٥٦ هـ»	فيقع في الفترة الأخيرة وفيه انحصرت دولة الخلافة في بغداد وما حولها، بينما سيطرت الدول المستقلة على باقي عواصم الخلافة.

ورغم تباعد المسافات بين هذه الدول إلا أنه قد جمعت بينها قيم الحضارة الإسلامية التي قامت على أساس متين من الوحدانية المطلقة في العقيدة والاستقامة في الخلق والوعي

بالزمن، فكانت بحق حضارة إنسانية عالمية ضربت أروع الأمثلة في المساواة العنصرية والتسامح الديني، والأخلاق الحربية والرفق بالحيوان.

وقد كان سقوط بغداد عند الكثير من المؤرخين نهاية الخلافة العباسية برغم أن الخلافة امتدت لفترة طويلة من الزمن بعد ذلك، لكن هذا الامتداد كان ضعيفًا واهنًا تحولت خلاله الخلافة إلى بنيان شكلي ليس له حول ولا قوة، ولم يعد لها جيش قوي يدافع عنها، بل وعرف بلاط العباسيين وزراء خونة ساعدوا التتار وعاونوهم، وكان على رأسهم الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الذي أقنع الخليفة المستعصم آخر خلفاء الدولة العباسية بمهادنة التتار فوقع الخليفة في الفخ وقام بتقديم الهدايا إلى «هولاكو» زعيم التتار الذي قبض على الخليفة وأهل بيته وعدد كبير من العلماء وقتلهم جميعًا.

وفي المحرم من عام «٦٥٦هـ» دخل التتار بغداد وأعملوا فيها القتل والتخريب لمدة أربعين يومًا، وبلغ عدد القتلى أكثر من مليون نسمة، وجمع هولاكو كتب دار الحكمة في بغداد وألقاها في نهر دجلة ليعبر عليها جيشه، فأضاع بذلك تراثًا ضخمًا من العلوم والمعارف، ليس على المسلمين وحسب بل على الإنسانية جمعاء.

٣٥ ـ حدث
سقوط الدولة العباسية

من عوامل سقوط العباسيين [(١)]:

يقول الدكتور عبدالحليم عويس حيث أبدع في مقولته: إنه خمسة قرون وأكثر « ١٣٢ هـ ـ ٦٥٦ هـ » مرت على التاريخ البشري، وهو يحني جبهته لهذه الدولة.

وبالطبع فليس من خصائص المسيرة البشرية أن تظل على وتيرة واحدة، وهكذا كان شأن الدولة العباسية في مسيرتها، يتعاورها المد والجزر، واختلف عليها الحماة بين أتراك وبويهيين وأتراك سلاجقة، لكنها بقيت مع ذلك رمز الهيبة التاريخية التي تفرض نفسها على كل القوى، مستمدة هذه الهيبة من رصيد الخلافة الإسلامية التي مثلت وحدة الوجود الإسلامي إلى فترة قريبة من عمر التاريخ.

كان قيام هذه الدولة حركة سياسية قامت على تخطيط، لعله لم يتوافر للمسلمين في كل تاريخهم دقة وعمقًا، وصبرًا على النتائج، واستغلالاً لكل القوى، وتوافرًا لكل مقومات النجاح.

ثم كان السير التاريخي لهذه الدولة معجزة عجيبة، فوسط بحار متلاطمة الأمواج، وعالم إسلامي فسيح لا يمكن ـ بل يتعذر ـ استمرار تماسكه، وأعداء خارجيين من عناصر متباينة المذاهب والجنس والميول، وسط هذا كله شقت الدولة طريقها، ولا شك في أنها كانت بين الحين والحين تتعرض لحركة تفكك من هنا، وحركة تمرد من هناك، وبروز لحركة خروج في ناحية ثالثة وغلبة عنصر من العناصر في مكان رابع، ولكن مهما يكن، فهذه هي طبيعة المسيرة البشرية، ولم يقدم لنا التاريخ ـ على كثرة ما قدم ـ مدينة فاضلة خلت من كل النوازع البشرية وخلت من الصراع، والمد والجزر.

وعبر القرون الخمسة تقلب في الحكم عشرات من الحكام، بلغوا سبعة وثلاثين خليفة،

---

(١) انظر: دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ، الدولة العباسية، د.عبدالحليم عويس .

أولهم: أبو العباس السفاح ، ثم أبو جعفر المنصور، وقد برز منهم كثيرون كالمأمون والرشيد والمعتصم والواثق والمتوكل والمهدي. وكان آخرهم ــ ومن أشأمهم ــ أبو أحمد المستعصم الذي استسلم للتتار. وظهرت أسر قوية وعناصر كبيرة سيطرت على الدولة أحيانًا كالبرامكة وبني بويه والسلاجقة.

وتمتعت دول كثيرة بالاستقلال الفعلي عن الدولة كالطولونيين والإخشيديين في مصر، وبني طاهر في خراسان، وبني سامان في فارس وما وراء النهر، والغزنويين في أفغانستان والبنجاب والهند، وبني بويه الذين لم يستقلوا وحسب، بل تحكموا في الخلفاء أنفسهم في شيراز في فارس ثم السلاجقة. وهكذا ـ كما ذكرنا ـ تعاورت كل ظروف المسيرة التاريخية هذه الدولة ذات القرون الخمسة.

سؤال يطرح نفسه بقوة : هل كانت حركات الانشقاق عن الدولة سبب هذا الانحلال؟ لا نظن أن ذلك هو السبب الرئيسي، فهذه العناصر قد وجدت في حضارات كثيرة، وأين هي الدولة التي تخلو من خدمات عناصر ليست منها؟ ثم إن هؤلاء لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا في ظل مظاهر الانحلال الحقيقية!، وأدى معظمهم خدمات للدولة كانت سبباً من أسباب بقائها وصمودها.

وإن كان لنا من رأي فهو أننا نخالف الدكتور عبدالحليم عويس في تجاهله ظهور حركات منشقة عن الدولة العباسية وذات مذهب عقدي مضاد لها وخاصة الحركات الباطنية من أمثال القرامطة والحشاشين والفاطميين ، فهذا السبب الأقوى في تحلل الدولـة.

ومما لا شك فيه أن لهذه الحركات أثرها الكبير في ضياع « الوحدة العقائدية » وفي ضياع كثير من مُثُلِ الإسلام الصافية خلال هذه العصور، وفي خَلْقِ جَوٍّ من الفوضى الفكرية والاجتماعية والاقتصادية،لكن مع ذلك ليس هذا هو وحده السبب، وإن كان سببًا قويًا[1].

---

(١) ونخالف في ذلك الدكتور عبدالحليم عويس فيما ذهب إليه من أنها ليست السبب الرئيسي لسقوط الدولة.

أخطر العوامل التي أسقطت خلافة العباسيين :

يعتبر أخطر العوامل في سقوط دولة العباسيين هو إهمالهم لركن هام من أركان الإسلام وهو الجهاد، فبعد الخليفة المعتصم المتولي أمور الدولة سنة ٨٣٣م لم نسمع عن معارك ذات شأن قامت بها الدولة، ولم يكن مبدأ « الجهاد الدائم » حماية لهذه الدولة المترامية الأطراف أحد أركان السياسة العباسية. ولسنا نعمم هذا الحكم إذ وجدت عصور زاهرة كان شعارها الجهاد ضد الروم، كما كان في عصر الرشيد وعصر ابنه المعتصم .

لقد تقوقعوا في مشاكل الدولة الداخلية، فحصرتهم مشاكلها، وماتوا ببطء، ولو أنهم وجهوا طاقة الأمة نحو « الجهاد » ضد الصليبيين، لتغير أمر الحركات الهدامة التي قدر لها أن تظهر وتنتشر، وذلك أن هذه الحركات لا تنتشر إلا في جو مليء بالركود والفساد، والمناخ الوحيد الصالح للقضاء عليها هو المناخ القتالي الذي يكشف المعادن النقية ويذيب المعادن الرخيصة.

لقد كانت الحاجة الإسلامية ملحة في ضرورة رفع راية الجهاد، وكانت الدولة الإسلامية التي تعرضت للانشقاق والتمزق تحتاج إلى هذا الصمام ؛ ليحميها من جو السكون والاستسلام.

لكن العباسيين غزوا في عقر دارهم، فذلوا، ولم يرفعوا راية الجهاد ضد العدو الخارجي، فارتفعت رايات العصيان الداخلي.

وكان بإمكانهم أن يشغلوا الأجناس المختلفة التي ضمتها الدولة في هذه الحروب الجهادية المستمرة ضد الغزاة والوثنيات المختلفة، لكنهم لم يفعلوا، فتحركت النعرات القومية الجاهلية لتفتت الدولة، وتقسم جسمها تحت رايات مختلفة ليست لها بالإسلام أو الجهاد صلة.

وفي سنة ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م كان هولاكو ـ حفيد جنكيز خان ـ يؤدب الذين اتجهوا إلى كل الطرق إلا طريق الجهاد وحاولوا العلاج بكل الوسائل إلا الوسيلة الإسلامية القوية الخالدة.

الفصل الثالث
الدولة الإسلامية في الأندلس

٣٦ ـ حدث
سقوط الأندلس

لعلها من أصعب صفحات السقوط في تاريخنا الإسلامي، بل أمرَّها على الإطلاق... لأنه السقوط الصامت والنهائي وكأنه الأزلي، بعد قرابة ألف عام حضارةً وازدهارًا وبناء ومجدًا ورفعةً، وصعودًا وتحضرًا في وسط رعاة البقر (Cow Boy) الأوربيين حينئذ تنطفئ هذه الشمعة بلا عودة، وبلا رجعة... !!

تذهب الآن إلى إسبانيا عاصمة أوربا السياحية فتجد قصورًا ودورًا إسلامية لغير المسلمين، تجد أمجادًا تهيج ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً مجهولاً.

إنه سقوط اللاعود، إنه انتحار الفضيلة في قارة الرذائل الأخلاقية والحضارة المادية، إنه أفول للزهور لا يكاد يتفتح بعدها أبدًا.

ولنكف عن البكاء والعويل ولنلتمس الأسباب الموضوعية لسقوط هذه الحضارة الخالدة في النفوس والنقوش وفي أوراق دواوين التاريخ وإن طمستها يد الغرب، فهلموا بنا.

كانت السنوات الأولى من القرن الخامس الهجري « الحادي عشر الميلادي » تحمل في أحشائها وباءً خطيرًا على الأندلس الإسلامية، لقد سقطت الدولة العامرية، آخر حامية للدولة الأموية في الأندلس، ولقد ظهر أن أحفاد عبد الرحمن الداخل الأمويين أقل من أن يقوموا بعبء حماية الإسلام الأندلسي، وكان البربر قد هاجر كثير منهم إلى الأندلس بحثًا عن سلطة أو زعامة، وكان الصقالبة ـ وهم مجموعة من النازحين إلى الأندلس من طوائف مسيحية مختلفة ـ يشكلون بدورهم عنصرًا من عناصر الوجود في الحياة الإسبانية الإسلامية.

١ ـ بداية السقوط ظهور القوميات المتناطحة :

ومن هذه القوميات المتناطحة تشكل الوجود الأندلسي غرة القرن الخامس الهجري،

فلما سقطت خلافة الأمويين الإسلامية في الأندلس، نتيجة امتصاص طاقتها في مشاحنات داخلية، تحركت كل هذه الطوائف المقيمة فوق أرض الأندلس الإسلامية تبحث عن السلطة والامتلاك. وبدلاً من أن تتحد قواهم في وجه المسيحيين المجاورين لهم، وبدلاً من أن يرفعوا راية الإسلام والجهاد، كأمل ينقذ أندلسهم من التحدي الصليبي المتربص بهم، بدلاً من هذا ، أعلنوا أحقاد القومية الطائفية والنعرات الجنسية.

٢ ـ تحول القوميات إلى دويلات مستقلة :

وظهر في الأندلس أكثر من عشرين دولة، يتقاسمها الأندلسيون والبربر والعرب والصقالبة، ففي كل مدينة دولة، بل ربما اقتسم المدينة أكثر من طامع ومنافس، واستمر أمر هذه الدول أو هذه المدن المتنافسة التي عرف حكامها بملوك الطوائف، استمر أمرها أكثر من خمسين سنة، امتهن فيها الإسلام والمسلمون، وتوسل كل ملك منهم بالنصارى ضد إخوانه المسلمين، ووقف ابن حيان ـ مؤرخ الأندلس ـ يستشف ما وراء الحجب ويقول لأبناء جنسه :

يَا أهل أندلس شُدُّوا رواحِلَكُمْ ... فَمَا الْمُقَامُ بِهَا إِلاَّ مِنَ الغَلَطِ

الثَّوْبُ يَنْسَلُّ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى ... ثَوْبَ الجَزِيرَةِ مَنْسُولاً مِنَ الوَسَطِ

مَنْ جَاوَرَ الشَّرَ لاَ يَأْمَنْ بَوَائِقَهُ ... كَيْفَ الحَيَاةُ مَعَ الحَيَّاتِ في سَفَطِ

فشل ملوك الطوائف في لملمة شملهم :

لقد فشل ملوك الطوائف في أن يلموا شعثهم، وأن يتكتلوا ضد النصارى، ومن عجيب المقادير أن « ألفونسو السادس » ملك قشتالة وليون واستوريا، كان يتظاهر بحماية هؤلاء الملوك المسلمين، ويأخذ منهم الجزية والإتاوات التي يرفع من قيمتها سنة بعد أخرى، واستطاع أن يعد عدته من الإتاوات التي يفرضها عليهم ليلتهمهم بها كلهم، وكان آخر ما التهمه ألفونسو من أرض المسلمين تحت سمع وبصر هؤلاء الإسلاميين بل وبمساعدة بعضهم، مدينة طليطلة سنة ٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥م. وعند هذه الموقعة تأكد لدى أكبر

مــلك من ملــوك الطــوائف «المعتمد بن عبـــاد » أن ألفونسو يريد الالتهام، ولا أقل من الالتهام الكامل، وفكر المعتمد في وسيلة الإنقاذ، وضعته الأقدار أمام حل واحد لم يكن له خيار فيه.

المرابطون يغيثون إخوانهم في الأندلس :

لقد قرر أن يستنجد بالمرابطين المسلمين الموجودين في المغرب الأقصى كقوة إسلامية ناشئة، وقد نجح المرابطون في إيقاف الزحف النصراني، وأذلوا كبرياء ألفونسو، واستردوا كثيرًا من مدن الإسلام، ولم يحاول الأندلسيون بناء أنفسهم، لم يحاولوا صنع التقدم من خلال الذات، لقد اعتادوا تسول النصر واستيراد البقاء من إخوانهم المغاربة المسلمين.

وحقيقة، نعم حقيقة، بقيت الأندلس إسلامية باستيرادها النصر أيام المرابطين، ثم أيام الموحدين، ثم أيام بني مرين، وبقيت مملكة غرناطة الإسلامية وحدها أكثر من مئتي سنة تصارع الموت ، كوهجة الشمس قبل الغروب، ولكن قانون الحضارة كان قد قال كلمته، فإن الذين فشلوا في أن يخلقوا من أنفسهم قوة قادرة على الحياة ما كان ينفعهم أن يشتروا النصر أو يستوردوه [١].

---

(١) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، د. عبد الحليم عويس.

٣٧ ـ حدث
سقوط غرناطة

وفي سنة (٨٩٧هـ ١٥٤٢م) سقطت غرناطة آخر ممالك الإسلام في الأندلس، وطرد المسلمون شر طردة، وكانت هذه هي النهاية التي تنبأ بها الشاعر ابن حيان وغيره من هؤلاء الذين أدركوا قانون البقاء الذي هو من سنة الله، نعم أدركوا أن التاريخ لا يقوم بالاستيراد، ولا تنتصر حركة تقدمه بالمتسولين.

اتحاد أوربا تحت الصليب ، وتفرق المسلمين عن راية الجهاد (١):

وبعد سقوط دولة الموحدين في الأندلس، انفرط عقد هؤلاء، فلم يعد يجمعهم جامع من خلافة إسلامية جامعة، أو من استجابة لتحدٍّ خارجي، أو من عقيدة متفوقة تشتعل أعماقهم بها، ويبحثون عن رفعها أكثر مما يبحثون عن رفعة أنفسهم، ولذا فقد تبع سقوط الموحدين التمهيد لسقوط كثير من مدن الأندلس كمرسية وبلنسية وقرطبة والشرق الأندلسي، ثم الغرب الأندلسي الذي كانت عاصمته إشبيلية.

لقد عرف أهل إشبيلية بعد سقوط الموحدين، أنهم لا بد لهم من حماية خارجية بعد أن فشلوا في الاعتماد على الذات، وقد أرسلوا بيعتهم إلى الأمير أبي زكريا الحفصي أمير الحفصيين في تونس ، هؤلاء الذين لمعوا بعد سقوط الموحدين، لكن الرجال الذين أرسلهم

---

(١)كانت الحالة سيئة للغاية، وعندما تصل حركة التاريخ إلى طريق مسدود بعد أن يفسق أهل القرى ويخلعوا طاعة الله، في هذه الحال يكون لا أمل إلا في شيء واحد، هو الزوال، وهذه هي المعادلة الوحيدة الصحيحة في تفسير التاريخ : خروج على قوانين الله، إمهال نسبي من الله قد يغري الخارجين على القانون بالتمادي، تجمع لعوامل الفناء، إغلاق لباب العودة، إبادة وموت في شكل مجموعة من الكوارث.

وإلى الحالتين الأخيرة وما قبلها، وصلت حال الأندلس في القرن السابع الهجري، ذلك القرن الذي شهد سقوط معظم القلاع والمدن الإسلامية الأندلسية، ولم تفلت منه ـ إلى حين ـ سوى مملكة غرناطة، التي لم تلبث بعد قرنين أن لقيت حتفها.

وعلى امتداد الأندلس ـ شرقيه وغربيه ـ بدأت حركة ما يسمى بالاستيراد الصليبي تسوق المسلمين المفككين، المتناطحين بالألفاظ، الـمُقَسَّمين في ولائهم بين ملوك النصارى، تسوقهم إلى حتفهم الأخير.

الأمير الحفصي إلى إشبيلية أساؤوا معاملة الناس وأظهروا الفساد، فاضطر أهل إشبيلية لإخراجهم، وبدؤوا في الاعتماد على أنفسهم، وألغوا معاهدة ذليلة كانت قد عقدت بينهم وبين ملك قشتالة النصراني فرناندو الثالث، وقتلوا « ابن الجد» صاحب مشروع المعاهدة المذكورة ونصير السياسة المستذلة للنصارى. وكان هذا نذيرًا ببداية النهاية لإشبيلية، إلا أنهم قد فقدوا العون الإسلامي الخارجي، وأعلنوا ـ بقطعهم المعاهدة ـ حربًا على قشتالة، لم تكن ظروفهم مهيأة لدخولها.

وبدأ تحرك النصارى تحت راية الصليب :

وقد شهدت سنة ٦٤٤هـ بداية التحرك النصراني ضد إشبيلية، واستولى الصليبيون على حامية إشبيلية في هذا العام، وكان ذلك بمساعدة ابن الأحمر ملك غرناطة وفقا لمعاهدته مع فرناندو ! وفي العام التالي تقدمت الجيوش النصرانية مرة أخرى نحو إشبيلية، وقد نجحت في الاستيلاء على عشرات من المدن الإسلامية بفضل تدخل ابن الأحمر، ومنعه هذه المدن من القتال بحجة أن القتال عبث.

وتم حصار إشبيلية وتطويقها من جميع الجهات بالكتائب النصرانية، وبالكتيبة التي يقودها ابن الأحمر المسلم، مشتركين جميعًا ـ باسم وحدة الطبقة العاملة فيما نظن ـ في تشريد أهلها وسحق دعوة الإسلام بها، ولعل وجود راية محاربة إسلامية يلمحها المسلمون المحاصرون كان أشد ضربة تلقاها بعيون وقلوب باكية أهل إشبيلية المستبسلون. لقد وقف أهل إشبيلية الشرفاء نحوًا من سنة يدافعون الحصار النصراني المدعوم من بني الأحمر، وقد نجحوا في إيقاع النصارى في أكثر من كمين وأصابوهم بالهزيمة غير مرة.

وقد حاولوا ـ وهم في حصارهم ـ الاستنجاد بالمغرب دون جدوى، بينما توالت النجدات على النصارى، حتى نجحوا بسببها في منع المؤن عن المسلمين المحاصرين في إشبيلية، فنفدت الأقوات، وبدأ شبح الجوع يدب في أوصال المدينة المجهدة، وكان قضاء الله، وخرج المسلمون الإشبيليون من مدينتهم وفق شروط المعاهدة، خرجوا نازحين إلى مدن إسلامية إسبانية أخرى لم تلبث أن أسقطت، لو كان هؤلاء المسلمون في مئات المدن

التي استسلمت دون قتال بواسطة ابن الأحمر أو خوفًا من الموت، لو كانوا قد اتحدوا وقاتلوا، أو لو أنهم قاتلوا تحت أي ظرف، أكانت النتيجة ستصبح شرًا من هذا الحال الذي لقيه المسلمون في الأندلس ؟

لكنها سنة الله في حركة التاريخ، فعندما يتم الخروج على قوانين الله تتجمع عوامل الفناء فيغلق باب العودة، فتتحقق الإبادة، ويتحقق الموت في شكل مجموعة من الكوارث، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

نهاية بداية السقوط سنة ٦٣٣ هـ وضياع مجد المسلمين [(١)]:

وكان سقوط (قرطبة) أكبر معاقل الإسلام في الأندلس سنة ٦٣٣هـ النهاية لسقوطنا التام في الأندلس، وقد اضطر ابن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة إلى أن يهادن ملك قشتالة الصليبي، وأن يعقد معه صلحًا لمدة عشرين سنة، وأن يسلم له ـ بناء على شروط الصلح ـ مدينة جيان وما يلحق بها من الحصون والمعاقل، وأن ينزل عن أرجونة وبيع الحجار وقلعة جابر وأرض الفرنتيرة، واعترف بالطاعة لملك قشتالة، وتعهد بأن يؤدي إليه جزية سنوية قدرها مئة وخمسون ألف مرافيدي، العملة الإسبانية، وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه المسلمين. وعندها استغل ملك قشتالة هذا الصلح ليتفرغ لضرب المسلمين الآخرين، هاجم مدينة إشبيلية قاعدة غربي الأندلس كله، وكانت هناك كتيبة إسلامية أرسلها ابن الأحمر تهاجمها معه (باسم التقدمية) فسرعان ما سقطت إشبيلية الإسلامية حاضرة الثقافة الإسلامية الرفيعة في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة سنة ٦٤٦هـ وبمعونة

---

(١) حين تذهب إلى التاريخ تتلقى منه تلقي التلميذ المتعلم، وليس تلقي التلميذ المتحجر المكابر، يروعك أنك تقرأ نفسك ومجتمعك وأحداث عصرك في بعض صفحاته، وتكاد تحس بأن ما يدور حولك ليس إلا آخر طبعة من كتاب التاريخ، وأن الذين يظنون أنفسهم آخر حلقات التاريخ ـ أي أفضلها ـ أو يظنون أنفسهم خارج دائرة التاريخ، هؤلاء وأولئك قوم مخدوعون، يمتازون بالغباء الشديد والسذاجة المفرطة.

إن قصة خروجنا من الأندلس لم تكن قصة عدو قوي انتصر علينا بقدر ما كانت قصة هزيمتنا أمام أنفسنا، قصة ضياعنا وأكلنا بعضنا بعضًا كما تأكل الحيوانات المنقرضة بعضها بعضًا.

ابن الأحمر، مؤسس مملكة غرناطة العظيم، ولم تعد إشبيلية إلى الإسلام منذ ذلك اليوم[1].

وأخيرًا وآخرًا كان .. سقوط غرناطة :

كان بقاء مملكة غرناطة الإسلامية في الأندلس قرنين من الزمان معجزة من معجزات الإسلام.

فهذه الجزيرة الإسلامية العائمة فوق بحر الصليبية المتلاطم الأمواج والطافح بالحقد والمكر التاريخيين، هذه الجزيرة ما كان لها أن تصمد صمودها المشهور إلا لأن طبيعة الصمود كامنة في العقيدة والمبادئ الإسلامية، وبدون العقيدة الإسلامية، ما كان لهذه الجزيرة أن تصمد وحدها في الأندلس بعد أن سقطت كل المدن والقلاع الإسلامية منذ قرنين من الزمان.

كان قانون « الاستجابة للتحدي » هو الذي أبقى غرناطة حية زاخرة بالفكر الإسلامي والرقي الحضاري هذين القرنين، وكان شعور الغرناطيين بأنهم أمام عدو محيط بهم من كل جانب، ينتظر الفرصة لالتهامهم، وبأنه لا أمل لهم في استيراد النصر من العالم الإسلامي، وبأنه لا بد لهم من الاعتماد على أنفسهم، كان هذا الشعور باعثهم الأكبر على الاستعداد الدائم، ورفع راية الجهاد والتمسك بإسلامهم.

وبهذا نجحت غرناطة في أن تظل إلى سنة ٨٩٧هـ ـ ١٤٩٢م سيدة الأندلس الإسلامي ومنارة العلوم وشعلة الحضارة الإسلامية الباقية في أوروبا، لكن الأعوام القريبة من عام السقوط شهدت تطورًا في الحياة الأندلسية: فعلى المستوى النصراني بدأ « اتحاد » كبير يضم أكبر مملكتين مسيحيتين مناوئتين للإسلام، وهما مملكتا أراجون وقشتالة، وقد اندمج الاثنان في اتحاد تَوَّجَاه بزواج « إيزابيلا » ملكة قشتالة من «فرناند» ملك أراجون، وكان الحلم الذي يراود الزوجين الملكين الكاثوليكيين ليلة زفافهما هو دخول غرناطة، وقضاء

---

(١) تعليق أعجبني من الدكتور عبد الحليم حيث يقول : وتسألني لماذا طردنا من الأندلس ؟ فأقول لك : لأن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، ثم أقول لك عبرة التاريخ قانون سقوطنا : « حين يبحث كل عضو منا عن نفسه تسقط سائر الأعضاء ».

شهر عسلهما في قصر الحمراء، ورفع الصليب فوق برج الحراسة في غرناطة ـ أكبر أبراجها ـ وعلى المستوى الإسلامي، كان «خلاف» كبير قد دب داخل مملكة غرناطة ولا سيما بين أبناء الأسرة الحاكمة، وتم تقسيم مملكة غرناطة المحدودة قسمين، يهدد كل قسم منهما الآخر ويقف له بالمرصاد، قسم في العاصمة الكبيرة غرناطة يحكمه أبو عبد الله محمد علي أبو الحسن النصري آخر ملوك غرناطة وقسم في وادي آش وأعمالها يحكمه عمه أبو عبد الله محمد المعروف بالزغل.

ظهور قادة جهاد... ولكن بلا جدوى لتحالف النصارى :

وقد بدأ الملكان الكاثوليكيان هجومهما على (وادي آش) سنة ٨٩٤ هـ، ونجحا في الاستيلاء على وادي آش وألمرية وبسطة، وغيرها، بحيث أصبحا على مشارف مدينة غرناطة. وقد أرسلا إلى السلطان أبي عبد الله النصري يطلبان منه تسليم مدينة الحمراء الزاهرة، وأن يبقى هو حيًا في غرناطة تحت حمايتهما. وكما هي العادة في الملوك الذين يركبهم التاريخ وهو يدور إحدى دوراته، كان هذا الملك ضعيفًا، لم يحسب حسابًا لذلك اليوم، ولقد عرف أن هذا الطلب إنما يعني الاستسلام بالنسبة لآخر ممالك الإسلام في الأندلس، فرفض الطلب، ودارت الحرب بين المسلمين والنصارى واستمرت عامين، يقودها ويشعل الحمية في نفوس المقاتلين فيها فارس إسلامي من هؤلاء الذين يظهرون كلمعة الشمس قبل الغروب « موسى بن أبي الغسان». وبفضل هذا الفارس وأمثاله وقفت غرناطة في وجه الملكين الكاثوليكيين عامين وتحملت حصارهما سبعة أشهر، لكن مع ذلك لم يكن ثمة شك في نهاية الصراع، فأبو عبد الله الذي لم يحفظ ملكه حفظ الرجال، والانقسام العائلي والخلاف الداخلي في المملكة في مقابل اتحاد تام في الجبهة المسيحية، مضافًا إلى ذلك حصاد تاريخ طويل من الضياع والقومية الجاهلية والصراع بعيدًا عن الإسلام، عاشته غرناطة وورثته مما ورثته عن الممالك الإسلامية الإسبانية الساقطة.

كل هذه العوامل قد عملت على إطفاء آخر شمعة إسلامية في الأندلس.

وعندما كان أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة هذا يركب سفينته مقلعًا عن غرناطة الإسلامية، مودعًا آخر أرض تنفست في مناخ إسلامي في أوربا بعد ثمانية قرون عاشتها في ظلال الإسلام ـ في هذا الموقف الدرامي العنيف، بكى أبو عبد الله ملكه وملك الإسلام المضاع، وتلقى من أمه الكلمات التي حفظها التاريخ :

ابكِ مثل النساء ملكًا مضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال

والحق أن أمه بكلمتها تلك، إنما كانت تلطمه وتلطم حكامًا في الإسلام كثيرين، بكوا مثل النساء ملكًا لم يحفظوه حفظ الرجال.

الفصل الرابع
الدولة الأيوبية

٣٨ ـ حدث
سقوط دولة صلاح الدين

دولة في جهاد الصليبيين لـ ٦٠ عامًا [١] :

انبثق فجر هذه الدولة التي لعبت دورًا من أروع أدوار تاريخنا، ولعل قائدها «صلاح الدين الأيوبي» يعتبر أروع بطل قدمته الحضارة الإسلامية على امتداد القرنين السادس والسابع للهجرة، وبه أفلت المسلمون وأفلتت الحضارة الإسلامية من غزو عالمي صليبي كاسح كان يقوده أخبث صليبي عرفته أوربا الهمجية في عصورها المظلمة ألا وهو « بطرس الناسك ».

ولم تأت سنة ٥٦٧هـ ـ أي بعد تولية صلاح الدين الوزارة بثلاث سنوات ـ حتى مات الخليفة العاضد فطويت صفحة الخلافة الفاطمية في مصر وغيرها، وعادت مصر ـ العاصمة الفاطمية الأولى ـ عاصمة كبرى للعباسيين تحت قيادة الدولة الأيوبية وقائدها صلاح الدين الأيوبي. كان أمام صلاح الدين تحديات داخلية في مصر، فإن الآثار الفكرية التي خلفتها الدولة الفاطمية كانت تحتاج إلى إعلان ثورة فكرية. وكان أمام صلاح الدين خلل اقتصادي منذ أيام المجاعة العظمى، أيام « المستنصر » ، وما جر على مصر والعالم الإسلامي الحكم الفاطمي من ويلات تسلط الوزراء العظام، منذ « بدر الجمالي » (سنة ٤٦٤ هـ) إلى شاور وضرغام[٢] .

وكان بإمكان صلاح الدين، لو أنه قائد مخادع، أن يعلن ثورة اقتصادية واجتماعية، ويلهي الناس عن حقيقة الخطر الصليبي الذي يواجهونه، لكن صلاح الدين لم يكن هذا القائد المخادع، بحيث يشغل الناس لحساب الأعداء عن معركتهم الحقيقية بمعارك

---

(١)انظر ما سبق ذكره عنها ، وخاصة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين د.محمد حماد عاشور، ط دار الاعتصام، مصر، ص ١٤٢ وما بعدها.

(٢)موسوعة ألف حدث إسلامي، ص ١٨٣ .

جانبية، وكان بإمكان صلاح الدين أن يبحث عن « اتفاقية جلاء » مع الصليبيين أو عن « حل سلمي استسلامي » حتى تنتهي فترة تثبيته في الحكم، ثم يعلن للناس أن الحكام السابقين يتحملون المسؤولية، وأنه جاء إلى الحكم بعد فوات الأوان، وبالتالي يخضع العالم الإسلامي لهذا الغزو الخبيث. لكن صلاح الدين لم يكن هذا القائد المخادع، وفي مواجهة غزو صليبي عالمي أعلن صلاح الدين ثورة إسلامية عالمية، وأصبح هو رمزها ومحورها، وكان هذا هو الطريق الوحيد ولايزال هو الطريق.

لقد جاء توحيد العالم الإسلامي جنبًا إلى جنب مع الجهاد المستمر ضد الصليبية العالمية الحاقدة، ولم يكن صلاح الدين بالأبله الذي يبحث عن أي حل بديل للجهاد، فوسط الحروب التي تهز الكيان المادي والمعنوي والفكري للأمة لا يمكن إنجاح أي هدف بعيد عن الهدف الأول، وكل الأهداف تأتي من خلال هذا الهدف\؛ لأن الجماهير تعتقد أنها عملية تلهية وخداع. وقد دخل صلاح الدين عديدًا من المعارك قبل حطين الشهيرة، كموقعة « مرج عيون » جنوب لبنان سنة ٥٧٥ هـ وموقعة « مدينة صفد » في السنة نفسها. وعلى امتداد كل السنوات كانت هناك معارك لا تحصى بين صلاح الدين والصليبيين. وقد شن صلاح الدين على الصليبيين حروبًا واسعة من أجل استخلاص إمارات إسلامية استولى عليها الصليبيون وأسسوا فيها إمارات صليبية مضى على استيلائهم عليها قريبًا من تسعين سنة كأنطاكية وطرسوس والرها وبيت المقدس وطرابلس، ولم يكن صلاح الدين ساذجًا ضعيفًا متهاونًا فيدعو إلى حدود ما قبل« معركة» ما، أو « اتفاقية » ما،لقد كان الحق الإسلامي في عقيدته مقدسًا لا يقبل التفريط أو المساومة.

هكذا كان هذا الرجل العظيم، صلاح الدين الذي انتصر في حطين واسترد بيت المقدس.

وبوفاة صلاح الدين بقيت الدولة الأيوبية التي تنسب إليه تؤدي دورها قريبًا من ستين سنة. لكن هؤلاء الحكام كانوا أقل من صلاح الدين، فلم يستطيعوا لعب الدور الذي لعبه، وكان بعضهم متخاذلاً يؤمن بإمكانية المفاوضات مع العدو الصليبي التاريخي،

كالملك الكامل الذي استجلب سخط العالم الإسلامي كله، حين قام بتسليم القدس للصليبيين، وقد تمكن الصالح أيوب الذي جاء بعده من استردادها.

ومن الغريب أن هذه الدولة التي بدأت بعظيم من أعظم الرجال هو صلاح الدين، وانتهت بملك عظيم كذلك هو الملك الصالح، كانت نهايتها على يد امرأة مملوكة من هؤلاء اللائي يظهرن في عصور الضعف، ويساعدن على سقوط الدول، إنها واحدة من هؤلاء النسوة القويات اللائي يُجِدْنَ اللعب في خفاء القصور ووراء ستورها، متجردات من كل خصائص الأنوثة الحقيقية، مستغلات مظاهر هذه الأنوثة في القتل والتدمير، إنها شجرة الدر التي قتلت ابن زوجها « توران شاه » لكي تنفرد بالحكم، ثم شربت من نفس الكأس حين قتلها المماليك أخذًا بثأر زوجها منها[1].

---

(١)انظر عن صراع البيت الأيوبي: موسوعة ألف حدث إسلامي، ص ٢٣٩ وما بعدها.

الفصل الخامس
دولـــة الـمماليك

٣٩ ـ حدث
سقوط دولة المماليك

كانوا دائما أهل طعان ونزال،كانوا أشقاء للسيف والرمح، هو هويتهم، وهو مؤهلهم للحياة والبقاء، وعلى امتداد تاريخهم كان السيف مقرونًا بهم، وكانوا عضد الدولة الإسلامية في كثير من المواقف، وكانوا حماتها من أعدائها.

وفي مقابل ذلك عاشوا، وتحملتهم شعوب مصر والشام، وسمحت لهم بالسيطرة عليها، وهم بدورهم كانوا جيشها وأسطولها وحماتها أمام كل غزو خارجي، وكانوا يخضعون لتقاليد البلاد ولا يعرفون لهم ولاء إلا للدين الذي عاشوا به وتربوا على تعاليمه، وللسلطان الذي يحكم، ثم مع تطورهم الداخلي أصبح ولاؤهم للسلطان الذي يحكمهم منهم.

ولقد شكلوا مجتمعًا ذا هوية خاصة، له أسلوبه الخاص في الحياة، وله تربيته الخاصة، وله فكره الخاص، لقد كان مجتمعهم أشبه ما يكون بالمجتمع العسكري أو المجتمع البحري الذي يعيش للبحر أو الجندية، فالجندية عقله وهي عاطفته، ولا ولاء عنده لسواها.

والمماليك [١] ينقسمون إلى قسمين :

القسم الأول: المماليك البحرية: وهم الذين جلبهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة، ثم اختار منهم فرقة للأسطول سميت «الفرقة البحرية»، ولذلك سُموا المماليك البحرية.

والقسم الثانى: المماليك البرجية ، وهم شراكسة اشتراهم السلطان قلاوون لتدعيم حكمه، وتم له ما أراد إلى أن استولوا هم على الحكم من أحفاده الذين جاؤوا بعده،

(١)دولة المماليك تاريخ المغول والمماليك، أحمد عودان ورفاقه، ط.دار الكندي، سنة ١٩٩٠م، وتاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، ص ١٨٣، والمقدمة لابن خلدون ، ص ٦١٢ .

وسمي المماليك البرجية بهذا الاسم؛ لأن السلطان قلاوون أسكنهم في أبراج القلعة، وشهد عام (٦٤٨هـ) سقوط دولة الأيوبيين لتحل محلها دولة المماليك عندما تآمرت شجرة الدر مع المماليك على قتل توران شاه آخر حكام الدولة الأيوبية. وبدأ الحكم المملوكي بتولية الحكم مؤقتًا إلى شجرة الدر[1]، وتوالى بعدها على الحكم (٢٩) سلطانًا من المماليك البحرية و(٢٧) سلطانًا من المماليك البرجية كان آخرهم طومان باى الذي أعدم بعد هزيمة المماليك في معركة «مرج دابق» و« الريدانية » أمام العثمانيين.

أعلام ومشاهير المماليك :

ومن أشهر المماليك البحرية عز الدين أيبك، وقطز، وبيبرس، والمنصور قلاوون. وقد انتهى هؤلاء من قبل المماليك البرجية بحوالي قرنين. وكان المماليك البرجية ـ أبطال عين جالوت ـ يمثلون امتدادهم التاريخي.

لقد لعب المماليك البرجية خاصة في تاريخنا دورًا لم تقم به إلا دول قليلة في التاريخ ؛ لقد صدوا غارتين حضاريتين من أكبر وأشهر الغارات التي عرفها تاريخنا وتاريخ الإنسانية.

كانت الأولى يمثلها زحف هولاكو الذي ينتمون إليه جنسيًا، لقد صدوه بعقيدتهم الإسلامية التي لم يعد لهم ولاء إلا لها (الحمد لله أن نظرية القومية العنصرية لم تكن ظهرت بعد) وقد وقفوا أروع وقفاتهم في صده في عين جالوت الشهيرة ، رافعين راية وا إسلاماه. ثم كانت الثانية في معاركهم الدائمة ضد الصليبيين الذين كانت لهم بقايا بعد صلاح الدين، فعلى يد السلطانين المنصور قلاوون الذي تسلم الحكم سنة ٦٧٨ هـ والسلطان الأشرف خليل ، الذي تولى الحكم سنة ٦٨٩ هـ، فضلا عن جهود بيبرس تهاوت قلاع الصليبيين الباقية والتي كانوا قد تقدموا في بعضها بعد صلاح الدين كحصن المرقب وعكا وغيرهما، وطويت على يد المماليك آخر صفحات الغزو الصليبي الذي استمر قرنين من

---

(١)وكان ذلك سنة ٦٤٨ هـ، انظر: موسوعة ألف حدث إسلامي.

الزمان وكان ذلك سنة ٦٩٠ هـ.

وهذا جدول بسلاطين المماليك البحرية والبرجية :

المماليك البحرية

م	السلطان	السنة
١	أيبـك	٦٤٨
٢	علي بن أيبك	٦٥٥
٣	قطز	٦٥٧
٤	بيبرس	٦٥٨
٥	بركة خان بن بيبرس	٦٧٦
٦	سلامش بن بيبرس	٦٧٨
٧	قلاوون	٦٧٩
٨	الأشرف خليل بن قلاوون	٦٨٩
٩	الناصر محمد بن قلاوون	٦٩٣
١٠	كتبغا	٦٩٤
١١	لاجن	٦٩٥
١٢	الناصر محمد بن قلاوون ٢	٦٩٧
١٣	بيبرس الجاشنكير	٧٠٨
١٤	الناصر محمد بن قلاوون ٣	٧٠٩
١٥	أولاد الناصر (٨)	٧٤١ ـ ٧٥٥
١٦	أحفاد الناصر (٤)	٧٦٢ ـ ٧٨٤

المماليك البرجية

م	السلطان	السنة
١	برقوق	٧٨٤ ـ ٨٠١
٢	فرج بن برقوق	٨٠١
٣	عبدالعزيز بن برقوق	٨٠٨
٤	فرج بن برقوق ٢	٨٠٩
٥	العادل المستعين بالله ـ الخليفة العباسي	٨١٥
٦	المؤيد شيخ	٨١٥
٧	أحمد بن المؤيد	٨٢٤
٨	سيف الدين	٨٢٤
٩	الأشرف بارسباتى	٨٢٥
١٠	يوسف بارسباتى	٨٤٢
١١	جقمق	٨٤٢
١٢	عثمان بن جقمق	٨٥٧
١٣	سيف الدين ابنال	٨٥٧
١٤	أحمد	٨٦٥
١٥	حشقد	٨٦٥
١٦	تلباي	٨٧٢
١٧	تيمو بعا	٨٧٢
١٨	قيتباي	٨٧٣
١٩	محمد بن قيتباي	٩٠١
٢٠	الطاهر	٩٠٤
٢١	أشرف	٩٠٥

دول عاصرت الدولة المملوكية :

وجدير بنا أن نشير إلى الدول القوية التي عاصرت الحكم المملوكي وأولها الدولة العثمانية التي أسسها عثمان بن أرطغرل سنة (٦٩٩هـ)[1] .

وننتقل إلى دولة الهند الإسلامية ؛ فنجد ثلاث دول منها عاصرت الدولة المملوكية ، ومنها دولة المماليك في الهند ، والذين حكموا الهند في الفترة من سنة (٦٠٢هـ - ٦٨٩هـ) وقد اشتهر حكامها بحسن معاملة الناس والحرص على العدل، وقد خلفوا العديد من الآثار في مدينة «دلهي».

وجاءت بعدهم دولة السلاطين الخلجية، ثم الدولة التغلقية التي أسسها غياث الدين تغلق، وبالرغم من تباعد المسافات والأزمان بين هذه الدول إلا أن الحضارة الإسلامية كانت تجمعهم بقيمها الخالدة وخاصة الوحدانية المطلقة في العقيدة والتسامح الديني، وضربت أروع الأمثلة في المساواة العنصرية والرفق بالحيوان والوعي بالزمن، فكانت بحق إنسانية عالمية.

ادعاء.. وردود :

ومن المؤسف حقًا ما أحيط به تاريخ المماليك من تشويه وافتراء، وهذا بالطبع لا ينفي أنهم كانوا أبطالاً مجاهدين أكملوا المسيرة التي بدأها السلاجقة في حرب الصليبيين. وحققوا انتصارات عليهم، ومنها انتصار المنصورة، وقد قاموا بعد ذلك بتصفية الوجود الصليبي في مصر والشام، ويكفيهم فخرًا أنهم أوقفوا زحف التتار على مصر والشام والحجاز بانتصارهم الساحق في معركة «عين جالوت» التي تعد من أعظم معارك التاريخ الإسلامي .

---

(١) وهي من الدول المجاهدة التي أعادت أمجاد المسلمين في الفتوحات ، وخاصة فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح . ويضاف إلى ذلك فتوحاتهم وانتصاراتهم على التحالف الأوربي في معارك «فارنا»، و«قوصوه»، و«نيكوبولي». وتأتي بعد ذلك الدولة الصفوية في إيران، وهي دولة شيعية عرقلت جهود العثمانيين واصطدمت بهم في معارك كثيرة منها معركة «أنقرة»، ومعركة «جالديران».

الإنجازات الحضارية في عهدهم [(١)]:

إلى جانب إنجازات المماليك العسكرية، فإن لهم إنجازات حضارية كثيرة وخاصة في مجال الفنون والعمارة والآثار ، فقد كان لهم طراز متميز في الفنون وخاصة الحفر على الخشب، والتصوير، والعاج والخزف، والتحف المعدنية التي أبرزت دقة الفنان المملوكي في الطرق على المعادن.

وقد ظهرت نماذج رائعة من هذه الفنون في آثار العمارة المملوكية ومثالها: وكالة الغوري، ومدرسة السلطان حسن، ومدرسة الناصر قلاوون، ومسجد المؤيد شيخ، ووكالة قايتباي. ولا ننسى أن نزور الإسكندرية لنشاهد قلعة قايتباي الشهيرة، وقد عاصرت المدرسة الفنية المملوكية مدرستان كبيرتان هما الطراز العثماني الذي ظهر في آثار استانبول الجميلة، والطراز الصفوي الذي نشاهد روائعه في مدينة أصفهان.

وفي مجال العلوم والمعارف حفل العصر المملوكي بأكبر عدد من المؤرخين الكبار، فلم يجتمع مثل هذا العدد من عمالقة التاريخ في أي عصر من العصور، فقد عاش في هذا العصر المؤرخ العلامة ابن خلدون صاحب كتاب «العبر»، وابن كثير صاحب كتاب «البداية والنهاية»، والمقريزي صاحب كتابي «الخطط» و«السلوك لمعرفة دول الملوك»، وابن خلكان صاحب أشهر كتاب في التراجم وهو «وفيات الأعيان»، وابن أبي أصيبعة صاحب كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، والقلقشندي صاحب «صبح الأعشى»، والإمام جلال الدين السيوطي صاحب «تاريخ الخلفاء»، وغيرهم كثير لايتسع المجال لذكرهم.

ويعتبر أحمد بن محمد بن إياس عمدة المؤرخين لعصري المماليك ولا سيما عصر المماليك الشراكسة وهم في نزعهم الأخير لأنه في «بدائع الزهور» صور أحوال مصر وأخبارها حتى عام (١٥٢٢م).

كما ضمن كتابه «حوادث الدهور» الأشعار والروايات، ولم يتكلف في كتابته بل سرد

---

(١)موسوعة ألف حدث إسلامي، ص ٢٤٢ .

الحوادث والوقائع بطريقة وصفها «مارجليوث» بالفردية واستقلال الرأي قلما يقربه فيها معظم المؤرخين؛ لأنه كان يعلق على الأحداث ويصل إلى الحقائق.

وكان الثقات والخواص من الأمراء والكتبة في دواوين السلاطين يمدونه بالمعلومات فكان يروي يوميًا هذه الأحداث أولاً بأول مصورًا الحياة السياسية والاجتماعية للقاهرة، فالمطالع لبدائع الزهور يرى أن ابن إياس كانت كتاباته لها أبعاد اجتماعية مما يضعه في مصاف الكتاب العالميين أمثال ديكنز، وهوجو، وتشيخوف، وتولستوي؛ لأنه صور بدقة نبض الشارع المصري مما يجعله نمطًا فريدًا بين مؤرخي العصور الوسطى.

ويأتي بعده النُّوَيْرِي، وهو أول مراسل حربي ومؤرخ مصري، والنويري هو محمد بن محمد النويري المالكي، أصله من قرية نويرة بمحافظة بني سويف بمصر، وهو غير شمس الدين النويري الذي توفي عام (٧٦٣هـ)، وكان كاتبًا لدى السلطان الناصر محمد ومؤلف كتاب «نهاية الأرب»، وتناول النويري في كتابه «المعارك والفتوحات الإسلامية» وصف أسلحة المسلمين، ومعداتهم، وآلاتهم الحربية، وأساليب وفنون قتالهم. كما ضمن كتابه سجلا بالحوليات الإسلامية ولا سيما ما يتصل بالفتوحات والمعارك.

وفي الجغرافيا عاش في هذا العصر الرحالة الشهير ابن بطوطة، والبحارة ابن ماجد.

وفي مجال الطب نجد ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى.

كما حفل هذا العصر بعلماء آخرين في الفلك والرياضيات والكيمياء.

ولا ننسى أن نذكر الإمامين الكبيرين : العز بن عبد السلام ، وشيخ الإسلام ابن تيمية.

ومن الجدير بالذكر أن المماليك قد نظموا دولتهم ؛ لتقوم بهذا الدور الحضاري والتاريخي الكبير، فقاموا بتنظيم الجيش والبحرية لمواجهة بقايا الصليبيين. ولم ينسوا الجبهة الداخلية فنظموا القضاء وطوروا فيه وفي الحسبة التي كانت تعاون القضاء، وأيضًا ديوان النظر في المظالم لمحاسبة رجال الدولة، وخاصة أنهم قد ورثوا نظامي الوزارة والسلطنة من الأيوبيين، وقد ابتكر المماليك عددًا من الدواوين الجديدة وطوروا في ديوان البريد، ونظموا

الصناعات المختلفة في الدولة،وقد وقف خلف كل هذه الإنجازات عدد كبير من الشخصيات والأعلام الذين برزوا في مختلف المجالات، وأترك لكم الأوراق لتقرؤوا عنهم وعن حياتهم لنأخذ منها العبرة والقدوة الحسنة.

المماليك أبطال عين جالوت يسقطون (١) :

وعندما مات فجأة آخر سلاطين الأيوبيين الملك الصالح أيوب، تكتمت زوجه شجرة الدر الخبر؛ لأن مصر كانت في حرب مع لويس التاسع الذي هزم وأبيد جيشه في دمياط والمنصورة، ثم استدعت الزوجة الملكة ابن زوجها «توران شاه»(٢) لينقذ البلاد، فلما جاء توران وأنقذ البلاد من الصليبيين، وحاول أن يستأثر بالسلطة دبرت شجرة الدر قتله، ثم أقامت نفسها بمساعدة المماليك ملكة على مصر، وقد اختار المماليك كبيرهم عز الدين أيبك ليقوم بمساعدة « المملوكة » التي صارت «ملكة» (شجرة الدر) في إدارة شؤون مصر، وتطور الأمر فتزوجت شجرة الدر من مساعدها عز الدين، وتنازلت له عن السلطة.

وهكذا تم تنازل آخر من ينتسبون إلى دولة الأيوبيين بنسب إلى كبير المماليك، ومع أن شجرة الدر تعتبر البداية التاريخية لدولة المماليك، لكن البداية الأكثر عمقًا وأحقية هي التي مثلها هذا التنازل، ثم استأثر عز الدين أيبك بالسلطة سبع سنوات أحست فيها المملوكة القاتلة بأنها سلبت كل سلطة، فقامت بقتل زوجها الجديد مثلما قتلت من قبل ابن زوجها القديم، لكن المماليك سرعان ما قتلوها ثأرا وانتقامًا(٣)، واستقر الأمر لدولة المماليك في مصر والشام، وقد تضافرت ظروف عالمية وأخرى محلية عملت على سقوط الدولة المملوكية من مثل :

١ ـ اكتشاف رأس الرجاء الصالح.

---

(١)سقوط ثلاثين دولة إسلامية.

(٢)موسوعة ألف حدث إسلامي، ص ٢٥٤، وكان ذلك في عام ٦٤٧هـ ـ ١٢٥٠م.

(٣)انظر عن هذه الأحداث المؤسفة : موسوعة ألف حدث إسلامي، ص ٢٥٤،٢٥٥، ٢٥٧ .

٢ ـ وظروف إسلامية كبروز الأتراك .

٣ ـ وظروف داخلية كانقسام الأتراك على أنفسهم.

وقد تضافرت كل هذه الظروف على إنهاء الدور الذي قام به المماليك .

أكبر أسباب سقوطهم :

لكن كان أكبر سبب هوى بالمماليك وزحزحهم عن مكانهم في التاريخ، هو أنهم نسوا الرسالة التي عاشوا من أجلها وتعاقدوا مع الشعوب التي حكموها بشأنها، نسوا رسالتهم في الدفاع الخارجي، نسوا السيف، وتبلدوا عند أسلوب معين، ولم يطوروا أنفسهم، ثم تطوروا فانقلبوا من حماية خارجية للأمة إلى متسلطين داخليين عليها يمنعون حركتها وتطورها.

وبذلك فقدوا دورهم في التاريخ، وسقطوا بعد أن أدوا للحضارة الإسلامية الكثير، وأنقذوها من أكبر خطرين عالميين وهما التتار والصليبيون.

الفصل السادس
الـدولــة العـثـمـانيـة

الدولـة العثمانيـة
آخر خلافة إسلامية قياماً وسقوطًا

تناوب على الخلافة العثمانية ٢٩ خليفة كان آخرهم عبد الحميد الثاني، إذ سقطت بعده الخلافة سنة (١٣٤٣هـ ـــ ١٩٢٤م) .

ولقد كانت الدولة العثمانية ــ رغم كل ما أشيع عنها من افتراءات ـــ دولـة مجاهـدة حكمت أجزاء واسعة من العالم الإسلامي.

ويقسم المؤرخون هذه الدولة إلى دورين رئيسيين :

< الأول : دور القوة : ويبدأ من تأسيس الدولة حتى نهاية حكم سليمان القانوني سنة (٩٧٤هـ).

< الثاني : دور الضعف: ويبدأ من حكم سليم الثانى حتى سقوط الدولة سنة (١٣٤٣هـ ـ١٩٢٤م) .

وقد عاصر الخلافة العثمانية عدد من الدول الإسلامية التى كان لها دور تاريخي وحضاري في المناطق التى حكمتها ومن هذه الدول الدولة الصفوية بإيران، ودولة المغول بالهند، ودولة محمد علي بمصر، والدولة السعودية بالحجاز والتى اتخذت من الرياض عاصمة لها، بالإضافة إلى ظهور بعض الحركات المستقلة بعد الاحتلال الإنجليزي والفرنسي والإيطالي لأجزاء واسعة من العالم العربي وأهمها الحركة المهدية في السودان،

وحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالجزيرة العربية، والحركة السنوسية بليبيا.

وقد اعتبر كثير من المؤرخين الدولة العثمانية دولة عسكرية نظرًا لدورها الرائد في الفتوحات الإسلامية وخاصة فتح القسطنطينية، وفتح البلقان وسراييفو، وفتح قبرص، بالإضافة إلى فتوح سليمان القانوني في أوربا . ومن المعارك المهمة في الخلافة العثمانية معركة بروزة البحرية، ومعركة خانوه بالهند، ومعركة رشيد بمصر.

ورغم ذلك فإن العثمانيين لم يهملوا الجوانب الحضارية التي بنوا عليها خلافتهم

الإسلامية التى قامت على الوحدانية المطلقة في العقيدة، والاستقامة في الأخلاق؛ فكانت حضارة إنسانية عالمية حققت المساواة، والتسامح الديني، والوعي بالزمن، والرفق بالحيوان.

وأبرز جوانب الحضارة العثمانية نشاهدها في الآثار المعمارية الرائعة في مدينة استانبول ومنها: جامع آيا صوفيا الذي حوله محمد الفاتح من كنيسة إلى جامع، ورائعة المعماري سنان جامع السليمانية، وجامع السلطان أحمد، وعلى ضفاف مضيق البوسفور نشاهد أيضًا قلعة روميل حصار، وقصر دولمة «الباب العالي». ومن المساجد التي بُنيت على طراز العمارة العثمانية جامع محمد علي بالقلعة في القاهرة، وأيضًا جامع سليمان باشا، وجامع محمد بك أبو الدهب. وكان الطراز الصفوي في العمارة والفن معاصرًا للطراز العثماني وخاصة في فنون التصوير، والخزف، والنسيج، والزجاج والبلور، والحفر على الخشب والعاج والمعادن. ونشاهد روائع من هذه الفنون في جامع الشيخ لطف الله، وجامع الشاه عباس بأصفهان. ورغم هذا فقد تميز العثمانيون بفن المنمنمات الذي تطور على أيدي الفنانين الأتراك. ولا يفوتني أن أشير إلى رائعة العمارة الهندية «تاج محل».

ويؤسفني جدًا أن كثيرًا من المؤرخين أهملوا الجانب العلمي في الحضارة العثمانية، مع أن العثمانيين لم يهملوا هذا الجانب ، بل اهتموا به وبروافده وخاصة التعليم، واهتموا أيضًا باللغة العربية رغم أن التركية هي لغة الدولة.

وكان الحكام العثمانيون يهتمون جدًا بتقدير العلماء؛ فبرز منهم كثيرون في العلوم المختلفة.

فمن علماء التاريخ: عارف أفندي، وخوجة سعد الدين.

ومن علماء الجغرافيا: حاجي خليفة صاحب كتاب «كشف الظنون».

ومن علماء الطب: داود الإنطاكي صاحب كتاب «تذكرة داود».

كما ازدهر الشعر والأدب، وعرف من شعراء العصر العثماني الشاعر ناظم حكمت، وأحمد باشا.

هذا وقد حرص خلفاء الدولة العثمانية على تنظيم دولتهم، على رأسها الباب العالي أو مجلس الوزراء، الذي يعمل على متابعة شؤون الدولة في جميع الجوانب وخاصة التقسيم الإداري، والزراعة والإقطاع، والإشراف على النظام المالي. وكان من بين أعضاء الباب العالي شيخ الإسلام الذي يهتم أساسًا بشؤون القضاء والإفتاء والأوقاف، ونظرًا للفتوحات الواسعة والأعمال العسكرية للعثمانيين؛ فقد اهتموا بالجيش والأسطول. ومن الجدير بالذكر أن العثمانيين كانوا أول من اخترع المدفع واستعملوه في المعارك.

وأخيرًا هناك عشرات بل مئات الشخصيات والأعلام الذين ساهموا في بناء الخلافة العثمانية، ووضعوا حضارتها، ولا يتسع المجال لذكرهم فأترك لكم الدفاتر والصفحات لتتعرفوا إلى حياتهم وأعمالهم لتأخذوا منها العبرة والذكرى العطرة.

وبعد مجد زاهر وتاريخ حافل في رحاب الخلافة العثمانية ، عادت الدنيا أدراجها وحقت سنن الله على المخالفين ، بأن اندثر عزها، وأفل نجمها ، وانحسر مدها .

وقد رأيت أن أرد ما قيل في أسباب وعوامل ومظاهر سقوط الخلافة الخاتمة.. واخترت في المقام الأول طرح تلك الدراسة الجادة عن سقوط ثلاثين دولة للدكتور عبدالحليم عويس وغيره من الباحثين الجادين[1]؛ فقد أفاضوا وأجادوا ، وما يسعنا إلا أن نذرف دموع الحزن، وأن نصيح صيحات الاستفاقة ؛ فعسانا نعز بعد ذل، ونستفيق بعد طول منام . عندما تتشقق الحضارة تتحول إلى ذرات متناثرة متنافرة، شأنها شأن الجدار المتداعي الذي أصابه التآكل فتحولت لبناته إلى لبنات منفصلة تسقط عقب بعضها لبنة لبنة. ويأخذ الانهيار في العملية الحضارية شكلاً غريبًا، وبدلاً من الانسجام الذي كان سمة الحضارة الناهضة تتنافر أجزاء الحضارة الساقطة أو السائرة في طريق السقوط، ويكاد ينطبق على عملية السقوط التاريخي قول الله ـ تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا

---

(١) السلطان عبدالحميد والخلافة الإسلامية، لأنور الجندي ص ٧٣ وما بعدها، وانظر المقدمة، ط.دار الكتب السلفية، القاهرة عام ١٤٠٧هـ، وصحوة الرجل المريض، لموفق بن المرجة، ط.مؤسسة صقر الخليج، الكويت، عام ١٩٨٤م.

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ (١).

وعجيب كل العجب أمر هذا العصر، وليس العجب في هذا العصر كثرة ما بليت به الأمة الإسلامية من هزائم أو انتكاسات، وليس العجب كذلك أن الأمة أصبحت تطلب دواءها من عدوها، وترفض « الصيدلية والطبيب » الحقيقيين، كذلك ليس العجب في إصرار عناصر من هذه الأمة ـ بيدهم الأمر ـ على أن يتجنبوا الصواب، ويلهثوا وراء طريق الفناء والدمار.

نعم : ليس أمر كل هذا بعجيب، فعملية السقوط التاريخي تشهد مثل هذه الانقلابات في المعايير. تشهد انقلاب الحق ــ في العقول ــ إلى باطل، وانقلاب المعروف ـــ في السلوك ـــ إلى منكر، وانقلاب السفلة إلى قادة، وارتفاع السخافة وانخفاض العلم والنور، . نعم ليس كل هذا بعجيب في العملية التاريخية.

في ذلك الوقت كان المماليك في البلاد العربية في حالة اجترار ماضيهم ولم يعد لديهم ما يمكن أن يعطوه للوجود الإسلامي، وكان رأس الرجاء الصالح قد اكتشف، وبدأت مصر تفقد جزءًا كبيرًا من أهميتها، كما أن قانصوه الغوري لم يستطع إيقاف البرتغاليين الذين بدؤوا يسيطرون على البحر الأبيض المتوسط عند حدود احترام الأمة الإسلامية.

وفي عهد سليم الأول سنة ٩٢٢ هـ ـ ١٥١٦م زحف على مصر وقتل قانصوه الغوري (تحت سنابك الخيول) وشنق طومان باي ـ على باب زويلة ـ بعد أن هزمه سليم في موقعة الريدانية، واستولى على مصر والشام. ولم يتوان سلطان الحجاز، فأرسل مفاتيح الكعبة للسلطان سليم، وحكم الحجاز باسم العثمانيين، وفي عهد الخليفة سليم الأول (سليمان القانوني) دخلت معظم البلاد العربية (اليمن، الجزائر، تونس، مراكش، العراق، ليبيا) في حوزة العثمانيين.

ولم تمض أكثر من عشرين سنة على اتجاه العثمانيين نحو البلاد العربية حتى كان المشرق

---

(١)الأعراف : ٣٨ .

العربي كله خاضعًا لهم. نعم المشرق العربي الذي كان آيلاً للسقوط ومفكك الأوصال في مطلع العصر الحديث وبداية النهضة الأوروبية، والذي لولا ظهور العثمانيين الذين كانوا يخيفون أوروبا ويتقدمون في أراضيها، لتحول المشرق العربي إلى أرض بكر لمغامرات الغرب الأوروبي الخارج من أوحال العصور الوسطى كما فعل بعد ذلك بأربعة قرون بعد أن أسقط الخلافة العثمانية، أو بعد أن انتهى مما كان يسميه تهويلاً لأمره وخوفًا منه « المسألة الشرقية»[١].

(١)انظر : السابق نفسه.

الدولة العثمانية في أربعين حدثًا

(٩٢٣ ـ ١٢١٣ هـ / ١٥١٧ ـ ١٧٩٨ م)

م	العام	الحدث
١	٦٩٩ هـ	سقطت دولة سلاجقة الروم فاستقل عثمان بن أرطغرل بما تحت يده من أملاك الدولة السلجوقية، وبدأ يتوسع في أملاك الدولة البيزنطية.
٢	٧١٧ هـ	تمكن العثمانيون من فتح عدد من الحصون والقلاع البيزنطية منها حصن «بروسة» التي أسلم حاكمها «أفرينوس».
٣	٧٢٦ هـ	توفي عثمان وتولى الحكم بعده ابنه أورخان بن عثمان بن أرطغرل، ونقل أورخان معظم إدارات الدولة إلى مدينة «بروسة»، وترك لأخيه علاء الدين الشؤون الداخلية، وتفرغ هو لمواجهة البيزنطيين وتوسيع أملاك الدولة، فبدأ يعيد ترتيب الجنود ويدربهم ويربيهم تربية إسلامية وعسكرية.
٤	٧٣٦ هـ	اختلف أبناء حاكم إمارة «قره سي» الواقعة إلى الشرق من بحر «إيجه» على من يخلف أباهم في الحكم، فأسرع أورخان بضمها إلى الدولة العثمانية حتى لا تقع في يد الروم.
٥	٧٥٨ هـ	فكر أورخان في الاستيلاء على الإمبراطورية البيزنطية بعد أن شعر بضعفها، فأرسل حملة بقيادة ابنه سليمان استولت على كثير من القطع البحرية البيزنطية، ثم عبرت إلى الشاطئ الأوربي واستولوا على بعض القلاع.
٦	٧٦٠هـ	توفي أورخان وتولى الحكم بعده ابنه مراد الأول، وفي هذا العام

		قام مراد الأول بفتح «أنقرة».
٧	٧٦٢هـ	فتح العثمانيون مدينة «أدرنة»، ونقل إليها مراد عاصمة الدولة، وبقيت هذه الدولة عاصمة للعثمانيين حتى تم فتح القسطنطينية.
٨	٧٦٣هـ	تمكن العثمانيون من فتح مدينة «فيليه» وبذلك أصبحت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين، واضطر حاكمها إلى دفع الجزية، ثم بدأ يؤلب أمراء أوروبا ضد العثمانيين، فجهزوا حملة صليبية لمواجهة التقدم الإسلامي نحو القسطنطينية، وتقدم الجيش الصليبي نحو «أدرنة» عاصمة العثمانيين، والتقوا الجيش العثماني على نهر «مارتيزا»، فهزمهم العثمانيون هزيمة منكرة.
٩	٧٨٠ هـ	اضطر ملك الصرب «لازار بلينا نوفتش»، وأمير البلغار سليمان إلى دفع جزية سنوية للدولة العثمانية.
١٠	٧٨٤هـ	تأخر الصرب والبلغار في دفع الجزية؛ فتوجهت إليهم الجيوش العثمانية، وفتحت بعض أجزاء من صربيا في جنوبي يوغسلافيا، كما حاصرت عاصمة بلغاريا «صوفيا» وفتحتها، وفي هذا العام أيضًا فتحت مدينة سلانيك اليونانية المشهورة.
١١	٧٩١ هـ	كان الصرب قد هاجموا القوات العثمانية جنوب صربيا عام (٧١٨هـ) وكان العثمانيون منشغلين بقتال دولة القرمان في الأناضول، ولما فرغوا توجهوا إلى الصرب وقاتلوهم في معركة قرب إقليم «كوسوفو» جنوبي يوغسلافيا، وانهزم الصربيون، ووقع ملكهم «لازارا» أسيرًا في أيدي العثمانيين.
١٢	٧٩١هـ	قُتل السلطان سليم الأول أثناء المعركة مع الصرب، وتولى بعده ابنه «بايزيد» الذي تلقب بالصاعقة لأنه كان كثير الجهاد ينتقل

		من أوروبا إلى الأناضول، ثم يعود مسرعًا إلى أوروبا.
١٣	٧٩٤ هـ	اتجه بايزيد إلى القسطنطينية وحاصرها، وضيق الحصار عليها ثم تركها.
١٤	٧٩٨هـ	أعد ملوك أوربا حملة صليبية جديدة على الدولة العثمانية، وقامت الحملة بمحاصرة مدينة «نيكوبلي» في شمال بلغاريا، ووصل جيش السلطان بايزيد، وانتصر العثمانيون، وأسروا دوق «بورغونيا»، وعددًا آخر من الأمراء، وفدى الدوق نفسه بمبلغ ضخم من المال.
١٥	٨٥٧هـ	في ١٠ جمادى الأولى تم فتح القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الثاني ويلقب بـ «محمد الفاتح»، ودخل السلطان كنيسة آيا صوفيا، فأَمَّنَ الناس على أنفسهم وأموالهم، وسمح للنصارى بإقامة شعائرهم الدينية دون معارضة، ثم أطلق على القسطنطينية اسم «إسلام بول» أو مدينة الإسلام التى هى استانبول حاليًا.
١٦	٨٦٣هـ	تمكن محمد الفاتح من فتح بلاد المورة، كما فتح الجزر التي في بحر إيجه قرب مضيق الدردنيل، وامتنع أمير البوسنة عن دفع الخراج، فسار إليه السلطان وانتصر عليه، وضم البوسنة للدولة العثمانية، وحاول ملك المجر مساعدة أمير البوسنة، ولكنه هُزم، وأسلم كثير من أهل البوسنة بعد ذلك.
١٧	٨٧٨هـ	عزم محمد الفاتح على دخول بلاد «القرم»، وتمكن من احتلال بعض المواقع الجنوبية، ودفع التتار سكان القرم الجزية للدولة العثمانية.

١٨	٩٢٠هـ	في عهد السلطان سليم الأول تم فتح بعض القلاع في أذربيجان، كما قام بحرب شاملة ضد الدولة الصفوية في إيـران.
١٩	٩٢٢هـ	انتصر العثمانيون على المماليك في معركة مرج دابق شمال غرب مدينة حلب السورية.
٢٠	٩٢٣هـ	انتـصر العثمانيـون عـلى المماليـك في معركـة الريدانيـة، ودخـل السلطان سليم العثماني القاهرة، وقتل آخر سلاطين المماليك وهو طومان باي وبذلك انتهت دولة المماليك.
٢١	٩٢٨ هـ	في عهد السلطان سليمان القانوني أرسـل إلى ملـك المجـر رسـولاً يطالبه بدفع الجزية؛ فقتل الملك الرسول؛ فجمع السلطان جيشه وسار لقتال ملك المجر واستطاع هزيمة المجريين ودخول مدينة «بلجـراد».
٢٢	٩٢٩هـ	فتح سليمان القانوني جزيرة «رودس» الأوروبـية.
٢٣	٩٣٩ هـ	ضمت الدولة العثمانية إليها شبه جزيرة القرم وأصبحت ولاية عثمانية.
٢٤	٩٤٣هـ	قامـت حـرب بـين العثمانيـين والنمسا وانتـصرت فيهـا الدولـة العثمانية.
٢٥	٩٥٤هـ	عقـدت معاهـدة بـين الخليفـة العـثماني والنمـسا، تـدفع النمـسا بموجبها جزية سنوية مقابل ما بقي تحت يدها من المجر.
٢٦	٩٥٧-٩٥٨ هـ	انتصرت الجيوش العثمانية على النمسا في عدة مواقع.
٢٧	٩٧٨ هـ	فتحت جزيرة قبرص، وكانت تتبع البندقية قبل ذلك.
٢٨	٩٩١هـ	استولى العثمانيون على بلاد الداغستان في القوقاز.

٢٩	١٠٠٥ هـ	هزمت الجيوش العثمانية جيوش المجر والنمسا في موقعة «كرزت».
٣٠	١٠٢٧هـ	بدأ في هذا العام عصر الانحطاط والتراجع في تاريخ الدولة العثمانية، والذي امتد حتى سقوطها عام (١٣٤٢هـ) إذ حدثت حالة من الفوضى، ومنيت فيها الدولة العثمانية بالكثير من الهزائم من الدول الأوربية؛ وذلك بسبب سيطرة العسكريين، وضعف الخلفاء في هذه المرحلة.
٣١	١١٨٢ هـ	كان عاما للاعتداء الروسي على الدولة العثمانية ، حيث اعتدى القوزاق الروسي على بعض نقاط الحدود مع الدولة العثمانية؛ فقامت إحدى الفرق العثمانية على بعض الأراضي الروسية؛ فخربت عددًا من الضياع. وفي سنة (١١٨٣هـ) احتل الروس إقليمي الأفلاق والبغدان، وفي سنة (١١٨٥هـ) نجحت روسيا في احتلال بلاد القرم وفصلها عن الدولة العثمانية[١].
٣٢	١٢٠٠هـ	أعلنت النمسا الحرب على الدولة العثمانية، وحاول إمبراطور النمسا احتلال «بلجراد» لكنه فشل وهُزم أمام العثمانيين.
٣٣	١٢٤٠هـ	استطاع إبراهيم باشا فتح مدينة «نافارين» اليونانية.
٣٤	١٢٤١هـ	دخل العثمانيون مدينة أثينا اليونانية.
٣٥	١٢٤٢هـ	تحالفت الدول الأوربية، وكونت حملة صليبية ضخمة أحاطت بأسطول إبراهيم باشا وأجبرته على الانسحاب من اليونان بعد أن دُمر أكثر أسطوله وقُتل عدد كبير من جيشه.

(١)وفي سنة (١٢٩٥هـ) توقف القتال بين روسيا والدولة العثمانية بعد أن اقتربت روسيا من اسطنبول، وكادت أن تدخلها، وعقدت معاهدة سُمِّيَتْ بـ «سان استيفانوس» لفض النزاع مع روسيا.

٣٦	١٢٩٣ هـ	بدءًا من هذا العام وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني بدأت تظهر بعض الجمعيات والمؤسسات التي تدعو إلى التعصب القومي ومنها جمعية «تركيا الفتاة»، وجمعية «الاتحاد والترقي»، وبعض هذه الجمعيات كان يسيطر عليها اليهود بشكل أو بآخر، وعملت هذه الجمعيات على إسقاط الخلافة الإسلامية والدعوة إلى القومية التركية. وفي هذه الفترة أيضًا كانت الدول الأوربية تشجع الثورة والتمرد على الدولة العثمانية في الولايات التابعة لها، فقامت ثورة الصرب والجبل الأسود، وقامت ثورة البلغار. التي أتبعها تفكك تام وتقسيم لتركة الرجل المريض.
٣٧	١٢٩٥هـ	عقد مؤتمر في برلين دعت إليه النمسا وحضرته بريطانيا وفرنسا وألمانيا، وكان نتيجة هذا المؤتمر أن تم التوقيع على معاهدة جديدة حصلت بها روسيا والنمسا وبريطانيا على أجزاء كبيرة من الدولة العثمانية، فأعطيت البوسنة والهرسك للنمسا، وأعيدت بلغاريا وبسارابيا إلى روسيا، وازدادت أطماع الدول الأوربية في أملاك الدولة العثمانية، فطمعت فرنسا في الجزائر وتونس، وطمعت إنجلترا في مصر التي احتلتها بالفعل عام (١٢٩٩هـ)، وبعد تمزق الدولة في الخارج بدأ التمزق الداخلي عن طريق بعض الجمعيات والمؤسسات التي تدعمها أوربا وعلى رأسها جمعية الاتحاد والترقي التي يسيطر عليها يهود الدونمة.
٣٨	١٣٢٨هـ	تم عزل السلطان عبد الحميد الثاني بضغط من جمعية الاتحاد والترقي، وتولى بعده أخوه محمد رشاد «محمد الخامس»، وفي هذا العام احتلت إيطاليا ليبيا، ثم بعدها بسنتين أي في عام

		(١٣٣٠هـ) أعلن الجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية، وتحالف مع صربيا وبلغاريا واليونان، وتمكنوا من إحراز النصر على الدولة العثمانية التي فقدت معظم أراضيها في أوربا.
٣٩	١٣٣٤هـ	بدأ يظهر مصطفى كمال أتاتورك على الساحة بعد أن رقي إلى رتبة «لواء» أو «باشا»، وفي عهد السلطان وحيد الدين عُين مفتشًا للجيوش في استانبول، وقضى مصطفى كمال على الخلافة العثمانية، وأعلن دولة تركيا العلمانية.
٤٠	١٣٣٧هـ	ألغيت السلطنة وجرد الخليفة من السلطات السياسية كافة في هذا العام بعد سقوط الخلافة إلى أن أعلن مصطفى كمال إلغاءَهَا رسميًا عام (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م) وبذلك سقطت الدولة العثمانية نهائيًا، وألغيت الخلافة الإسلامية، وأصبح المسلمون حتى الآن بلا دولة خلافة تجمعهم، فأصاب الأمة الإسلامية الشتات والتمزق والفتن، وتكالب عليها الأعداء من كل جانب.

خمسة قرون في حماية المسلمين :

لمدة خمسة قرون ظلت الخلافة العثمانية تؤدي الدور الأول والوحيد في حماية المسلمين والعرب، والغريب أن هذه القرون الممتدة من القرن الخامس عشر حتى مشارف القرن العشرين لم تحظ من المؤرخين باهتمام كاف، بل إنها ووجهت بتفسيرات غريبة عنصرية أو جدلية مادية أو شعوبية متطرفة. ولم يحدثنا هؤلاء المتطرفون عن حالة العرب مثلاً لو لم تكن هناك دولة عثمانية، أو لم يكن من المحتم أن تقع الدولة الإسلامية ـ والعربية ـ تحت براثن الغزو الصليبي قبل وقوعها المعروف بهذه القرون؟.

لقد كان الأوربيون قد سيطروا على البحر الأبيض المتوسط، ونجحوا في إخفاء صوت الشرق، وبدأت النهضة تنطلق من أوربا، من مصانعها، ومن تطور وسائل التقنية بها،

وتقدم الفكر الاجتماعي والسياسي. ولم يكن بقدرة العروبة النائمة ــ والتي لم تستطع إلى الآن أن تستيقظ اليقظة المرجوة ـ أن تقف في وجه هذا الزحف. وعلى الرغم من تخلف العثمانيين في بعض النواحي ـ كما هو معلوم ـ فقد كانت قوتهم العسكرية تدوي في أوروبا، وكانت هذه القوة بالنسبة للأوربيين هي القوة التي لا تغلب ولا تهزم، حتى إن أوربا لم تجتمع على مسألة إلا على اجتماعها على المسألة الشرقية أو مسألة التهام الرجل المريض (الخلافة العثمانية)، وبالطبع فإن العثمانيين لم يستطيعوا ـ شأنهم شأن العالم الذي كان قد بدأ يدخل في طور عملية انقلاب داخلية جديدة تمهيدًا لميلاد جديد بدورهم أن يواجهوا هذه الثورة العلمية الزاحفة.

وكما هي عادة المتخلف حضاريًا، والمتقدم عنصريًا وعشائريًا، ذهب العرب، وذهب غيرهم، إلى رمي الخلافة العثمانية ـ حاميتهم ـ بأنها المسؤولة عن تخلفهم الذريع، وعندما ماتت هذه الخلافة موتها الحضاري قبل موتها التاريخي سرعان ما سقط هؤلاء في وَهْدَة الغزو الصليبي ولم تنفعهم عنصريتهم القومية، ومع ذلك لايزالون يكيلون للخلافة العثمانية الطعنات [(١)].

لقد كانت الدولة العثمانية قوية بلا شك طيلة القرون التي حكمت فيها وإلى بداية اضمحلالها، فلما بدأت سنوات الاضمحلال تحولت أسباب قوتها إلى أسباب ضعف، وهذا هو الشأن في قوانين الحضارة، إن عوامل القوة تتحول برتابتها وعدم تجديدها لنفسها إلى عالة على حركة التطور، ولقد أصبحت الإنكشارية، ووسائل الحرب التقليدية عالة على حركة التقدم العثماني، وانقلبت العسكرية العثمانية التي قدمت ما قدمت للحضارة الإسلامية إلى عبء تنوء به الدولة، وفي ظل قرون القوة التي عاشتها الدولة تمتعت بأنظمة ممتازة من حكومة مركزية، إضافة إلى مجلس وزراء يرأسه الصدر الأعظم، إلى ديوان سلطاني مكون من الوزراء وكبار الموظفين، إلى القضاء الذي يرأسه شيخ الإسلام، على

---

(١) د.عبدالحليم عويس، دراسة لسقوط ثلاثين دولة (الدولة العثمانية)، وصحوة الرجل المريض، لموفق بن المرجة، المقدمة.

نواب عن الجيش. أما في الولايات فكان يتولى أمر كل ولاية والٍ (الباشا) الذي يعين من قبل الخليفة، ويعاونه في أعمال إدارة الولاية (الديوان). أما القضاء فكان يتولاه قاضي القضاة (قاضي العسكري). وقد قسمت الولايات إدارياً إلى سناجق، عين على كل منها حاكم سمي بالسنجق، مهمته الإشراف على شئون الأقاليم والحفاظ على الأمن، وجمع الضرائب، وفي كل ولاية كان يوجد حاكم عسكري وحامية عسكرية تساعد الباشا على حفظ النظام والأمن.

كانت هذه هي خلاصة تنظيمات الدولة، وكانت هذه التنظيمات وسائل قوة، فلما انقلبت دفة الحضارة، وظهر أن حركة التاريخ لم تكن في صف الدولة العثمانية تحولت هذه التنظيمات من أدوات قوة إلى أدوات ضعف، وقد ساعد هذا الضعف على تحقيق أغراضه في تعجيز الدولة عن حماية الأراضي الخاضعة لها عدة عوامل:

أولاً : ضعف بعض السلاطين وانغماسهم في الترف.

ثانيًا : فساد أجهزة الدولة وانتشار الرشوة.

ثالثًا : تدخل رجال الحاشية في شؤون الحكم.

رابعًا : وثمة عوامل أخرى كثيرة عملت عملها في إفساد الحياة السياسية والعقائدية والفكرية، وجَرَّت على الخلافة الويلات.

خامسًا : ومما لا شك فيه أن « الأعداء » الصليبيين، والأعداء اليهود ــ كجماعات الدونما والماسونية ـ كانوا عوامل إضعاف للخلافة العثمانية.

وكان أكبر عوامل نجاح اليهود والصليبيين في ضرب الخلافة العثمانية الإسلامية، هو بعثهم لما يسمى بالنزعات العنصرية، القومية، الطورانية للترك، والقومية الكردية، والبربرية وعشرات القوميات المعروفة الأخرى. وجروا هؤلاء جميعا إلى ترك الخلافة العثمانية في محنتها، بل جروا إلى ضرب الخلافة والتجمع ضدها تحت قيادات قومية عميلة للجمعيات اليهودية، وقد نجح بعض أفراد هذه القيادات نجاحًا كبيرًا في تبوؤ مناصب كبرى، وبالتالي في ضرب العثمانيين والإسلام في الصميم.

٤٠ ـ حدث
سقوط الخلافة العثمانية

قصة سقوط الخلافة [١]:

تعتبر قصة سقوط الدولة العثمانية من القصص الغامضة التي لا زالت تحتاج إلى الدرس العميق والتمحيص الموضوعي، ونحاول إجمال أبرز عناصر هذه القصة في هذه السطور .

في خلال القرن الثامن عشر كانت أوربا تكتل أحقادها للانقضاض على الخلافة العثمانية واقتسام أملاك تركيا « الرجل المريض » ، وأطلقت على هذه النزعة اسم « المسألة الشرقية » باعتبار تركيا العقبة « الشرقية » الوحيدة التي تشكل خطرًا على الصليبية الدولية، وحماية حقيقية لبلاد الإسلام المتناثرة.

ولم يكد ينتهي هذا القرن حتى كانت القوى الصليبية الكبرى في ذلك الوقت « بريطانيا وفرنسا وروسيا » تحاول الوصول إلى صيغة ملائمة للانقضاض واقتسام الغنائم، لا سيما وقد اكتشفوا ضعف الجانب التركي في معركة « سان جوتار » وعلى أبواب « فيينا » عمومًا، عندما ظهر تخلف العسكرية العثمانية.

وفي سنة ١٧٩٨ م كان صبي الثورة الفرنسية التي وقف اليهود وراء مبادئها «نابليون بونابرت » [٢]يزحف على مصر ؛ ليلقنها بمدافعه وخيوله وتحويله الأزهر الشريف إلى إسطبل لخيوله، وتدميره القرى والمدن على امتداد الطريق بين القاهرة والإسكندرية، يلقنها بهذه الوسائل وبغيرها من الوسائل الهمجية الأوربية كالخمور والتحلل الخلقي وإغراء

---

(١)صحوة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد الثاني والخلافة الإسلامية، لموفق بن المرجة، ط. مؤسسة صقر الخليج، الكويت ١٩٨٤م وموسوعة ألف حدث إسلامي، ص ٣٩٦،٣٩٧، والسلطان عبدالحميد والخلافة الإسلامية لأنور الجندي، ص٧٣، ١١٥ ومابعدها.

(٢)انظر موسوعة الف حدث إسلامي ص : ٣٢٨ .

الخادمات المصريات، يلقن مصر والعالم الإسلامي أول دروس القومية، والمدنية والمبادئ الثلاثة الماسونية المزيفة التي رفعتها الثورة الفرنسية.

ولم يكد يمضي على ذلك الحادث أكثر من ست سنوات حتى كانت بريطانيا تحاول غزو العالم العربي، مستهلة وجودها فيه بغزو مصر سنة ١٨٠٧ م فيما يسمى بحملة فريزر.

وبعد أن كانت دولة الخلافة المسكينة تقف على تخوم القرن التاسع عشر تحاول أن تفيق من سكرة لقائها المفاجئ لمنتجات الحضارة الصناعية، وتحاول أن تبحث عن حل حضاري مضاد، وجدت دولة الخلافة نفسها متخمة بالمشاكل العنصرية التي أثارها عملاء الغرب، هؤلاء العملاء الذين أنهكوا قواها، وحاولوا أن يفرضوا عليها الدواء الأوربي لعلاج أمراضها دون تبصر بحقيقة أمراضها، وبحقيقة اختلاف بنائها المادي والمعنوي، ودون وعي بالعلاج الحضاري الناجع.

وأما عن أهم عوامل السقوط ظهورًا فهي :

١ ـ ظهور الحركات القومية... وعمالة معظمها للغرب الناهض ماديًا :

وامتدادًا للخروج الشاذ الذي أعلنه « محمد علي »[(١)]، ظهرت محاولات أخرى

---

(١) نختلف مع الدكتور عبدالحليم عويس في ذكره لمحمد علي على أنه عميل فرنسي؛ حيث لا يزال الجدل قائماً بين الدارسين الآن حول هوية محمد علي وهل هو باعث الحياة في روح الخلافة العثمانية والساعي لتجديدها؟ أم هو علماني أراد النهوض بمصر؟ أم كما ذكر الدكتور عبدالحليم ؟! إنها أسئلة كثيرة تحتاج إلى وقفات ووقفات، انظر على سبيل المثال د.حسن الشافعي «الفكر الإسلامي في العصر الحديث.. العوامل والمؤثرات».

أما عن موقف الدكتور عبدالحليم من محمد علي فيدل عليه قوله بصراحة: «...وبين هذه السنوات، وبالتحديد في سنة ١٨٠٣م نجح عميل فرنسي في أن يصل إلى الحكم، ويعلن أكبر محاولة للانفصال عن الدولة العثمانية، وكان هذا العميل الفرنسي «محمد علي باشا» صدى باهتا رديئًا للغزو النابليوني لمصر، وكما أهان نابليون بونابرت الأزهر ـ بدل إيقاظه لو كان قائد ثورة ـ كذلك أهان محمد علي الأزهر وعلماءه. وعلى الرغم من أن محمد علي كان مجرد «عبد» مملوك لا ينتمي إلى الدم العربي، إلا أنه رفع راية القومية باعتبارها السلاح البراق الذي يمكن به ضرب الوحدة الإسلامية والشعور بالمصير الإسلامي الواحد، ثم يتبع ذلك وضع العرب على انفراد ـ كما حدث فعلاً . ولعل بعث «محمد علي» غير العربي للفتنة القومية لضرب الخلافة=

للخروج قام بها « بشير الشهابي » في لبنان، وحركات في المغرب العربي، بل وحركات داخل تركيا نفسها ترفع القومية الطورانية. هذا فضلاً عن حركات الخروج التي سبقت حركة « محمد علي » تحت تأثير دوافع انفصالية مختلفة، كحركة علي بك الكبير سنة ١٧٧٣م في مصر، وحركة الشيخ ضاهر العمر سنة ١٧٧٥م في فلسطين، وفخر الدين المعنى في لبنان قبل سنة ١٦٣٥م. وهكذا كانت الدولة العثمانية تعاني من الداخل أشد المعاناة، وتواجه من الخارج بتحديات صليبية غربية، ففقدت على الطريق ـ بالتالي ـ أملاكها في أوروبا « هنجاريا، وبلجراد، وألبانيا، واليونان، ورومانيا وصربية، وبلغاريا ».

وأكبر الظن أن بعض أتباع « لورانس » في ذلك الوقت قد فرحوا بسقوط هذه البلاد من يد الإمبراطورية الإسلامية الكبرى.

هذا هو الهدف الحقيقي الذي ساقهم إليه أسيادهم من الصليبيين والماسون! وبالتالي وقعوا في أخطاء فكرية ودينية إما عن قصد أو غير قصد منها :

أولاً : التجاهل التام لوشيجة (الإسلام) التي تربط العثمانيين بالعرب، وهي وشيجة غير متوافرة في الاستعمار الأوروبي.

ثانيًا : تجاهل هؤلاء كذلك أربعة قرون (أربعة أخماس) ويذكرون قرنًا واحدًا هو فترة وقوف الدولة العثمانية في موقف الدفاع عن حياتها، وتعلقها في سبيل ذلك بأي خيط، وتخبطها تخبط المشرف على الغرق.

ثالثًا : تجاهلهم كذلك أن الانفصال عن العثمانيين كان لحساب الاستعمار الأوروبي، وأنه هو الذي كان يقوده مغذيا في العرب روح الانفصال لمصلحته، وأن الوعي الديني والقومي الصحيح لو كان موجودًا لأوجب التمسك بالخلافة وقيادتها في هذه المرحلة على الأقل كضربة للاستعمار الأوربي.

= العثمانية ـ لمصلحة فرنسا ـ أكبر دليل على حقيقة جذور هذه اللعبة التي اخترعها تطور الفكر الأوربي في عصر النهضة، لكي يقضي على الشعوب ذات الوحدة الأيديولوجية كي تنفرد أوربا بالتقدم وحدها، بينما تضيع الدول والأيديولوجيات الأخرى في زحمة الانشقاقات القومية والجنسية، وهذا ما حدث».

أثر حركات الانفصال على انهيار الخلافة العثمانية :

لقد قدمت حركات الانفصال هذه أكبر خدمة للاستعمار الأوربي، وفي الوقت نفسه جَرَّتْ على الأمة العربية أكبر الويلات، وكان أكبر ويلاتها مأساة فلسطين ثم ما تبعها من هزيمة سنة ١٩٦٧م. ولم يقف أمر خطأ هذه الحركات عند هذا الحد، بل إنها وقعت في خطأ (أيديولوجي) آخر، فتركيا الإسلامية لم تكن أبدًا حين بدؤوا ينشقون عنها في مرحلة (استعمار) فالاستعمار مرحلة تاريخية معينة بحسب تعريفهم له، تقف في قمة الهرم الرأسمالي أي إنها مرحلة اقتصادية تعني توافر رؤوس الأموال لدرجة تتطلب فتح أسواق جديدة وتوفير أيد عاملة ومواد خام، فهل كان العثمانيون يعيشون (مرحلة الاستعمار) هذه ؟ أم أنهم كانوا بحاجة إلى مجرد إصلاح اقتصادي بداخل تركيا نفسها ؟

إن كثيرًا من المصلحين لم تفتهم هذه الحقيقة وعلى رأسهم : الزعيم مصطفى كامل في مصر، وعبد العزيز جاويش، ومحمد فريد، وغيرهم، بل إنني أشك كثيرًا في أن أكثر الزعماء الإسلاميين الإصلاحيين كجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، أشك في أن هذه الحقيقة فاتتهم. وما كانت دعوة هؤلاء دعوة انفصالية عن الخلافة[1]، وإنما كانت دعوة إلى إصلاح أمر الخلافة الذي كان يميل إلى التداعي بفعل مؤثرات خارجية كثيرة، ومؤثرات أخرى داخلية.

٢ ـ ظهور الحركة الصهيونية على الساحة العالمية.

فمنذ أواخر القرن التاسع عشر أخذت الحركة الصهيونية التي بدأت تأخذ شكلاً تنظيميًا واضحًا مرتكزًا على الأيديولوجية « الصهيونية » محاولة الوصول إلى أهدافها في إقامة دولة يهودية.

وفي سنة ١٨٩٧م (والسلطان عبد الحميد ــ رحمه الله ــ هو الحاكم) عقد المؤتمر الصهيوني بزعامة هرتزل في مدينة « بال » بسويسرا وهو المؤتمر المعروف باسم «مؤتمر بال »

---

(١) صحوة الرجل المريض، ص ٣٣٧ .

ووضعت خطة إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين.

وقد حاول الصهاينة بقيادة هرتزل إقناع (السلطان عبد الحميد) العثماني ــ عدو القوميين العرب ـ بالسماح لهم بالهجرة إلى فلسطين، فرفض السلطان رفضًا قاطعًا ولم يكتف بهذا، بل وأصدر قانونًا بمنع الهجرة اليهودية وبمنع إقامة مستعمرات لليهود في فلسطين[1]. وكان هذا هو (قشة البعير) كما يقولون التي قصمت ظهر الرجل المظلوم، فقد حرك الصهاينة، حركات التحرر والحركات القومية، والاستعمار الإنجليزي، ووجدت الإمبراطورية العثمانية نفسها أمام طوفان من المشاكل لا ينتهي، كان أشدها وأبعدها أثرًا حركات التمرد الداخلي، ومن الغريب جدًا أن يكون مشعلو الثورات ضد الخلافة الإسلامية في داخل البلدان العربية من الطوائف الإسلامية، أو الإسلامية المتطرفة التي تحركها أيديولوجيا وتحركها أيد أجنبية، لكن مع ذلك، وبتأثير شعارات بَرَّاقة صنعها اليهود، بتأثير هذا وغيره من الوسائل اندمج في هذه التجمعات المضادة للخلافة بعض العناصر الإسلامية.

ولم تأت سنة ١٩١٨م إلا وكان السلطان عبد الحميد المظلوم قد سقط، ووقعت جميع الأقطار العربية كمناطق نفوذ لبريطانيا وفرنسا، وأيضا صدر (وعد بلفور) المشؤوم في ٢ نوفمبر ١٩١٧م، وبدأت فلسطين تقع تحت الظروف الممهدة للزوال، وكانت أولى الخطوات في ذلك وقوعها تحت الانتداب البريطاني في عام ١٩٢٠م.

وبين الحربين العالميتين (١٩١٨م ــ ١٩٣٩م) كان التطبيق العملي للمؤامرة العالمية، وأيضًا في الجانب الآخر الحركات الداخلية الممتصة للطاقة والمبددة لها والصارفة عن الخط الحقيقي لاستهلاكها، كان ذلك كله يعمل على سقوط الخلافة العثمانية، وسقوط العرب بدءًا من فلسطين.

وطوى اليهود آخر صفحاتنا المشرقة !

---

(١)انظر عن مواقف السلطان عبدالحميد الباسلة : صحوة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد الثاني والخلافة الإسلامية ص ٥١،٥٢،٥٣،٢١٣ .

كان رفض السلطان العظيم « عبد الحميد » تهويد فلسطين لطمة لم ينس اليهود أن يردوها للخلافة ردًا سخيًا، لم يكن بوسع السلطان عبدالحميد أن يتخيله. فإلى جانب ما ذكرناه من تحريك للقوى المناوئة للدولة، ومن غرس لبذور الفكرة العنصرية المحاربة للراية الإسلامية الموحدة لربع البشر.

إلى جانب هذا، هجم اليهود من الداخل على الدولة العثمانية بواسطة الأسلحة نفسها التي استعملوها في كل بلدان العالم الإسلامي، وهي أسلحة العنصرية والتحضرية، والحرية، والإخاء، والمساواة، وهلم جرًا من الشعارات التي اصطنعها الماسونيون، وروجوا لها، واستعملوا بعض المخدوعين لإذاعتها وتفتيت راية الأمة وقبلتها وأهدافها.

وكانت جماعة تركيا الفتاة ، ثم الاتحاد والترقي هما الأداتين اللتين سخرهما اليهود وطوعوهما لهذا الغرض[1] . وكانت الكاتبة « خالدة أديب » إحدى المروجات على المستوى الأدبي والفكري لفكرة القومية الطورانية، بينما كان زعماء تركيا الفتاة هم المنفذين على المستويات الأخرى لعملية إحداث الانقلاب نحو تخلي تركيا عن هويتها ورسالتها الإسلامية.

وقد أقحم هؤلاء تركيا في الحرب العالمية الأولى دون مبرر معقول أو سبب يتعلق بها، فلما هزم الألمان، أذعنت تركيا للهزيمة بنفسها، وسجل رسميًا سقوط الكرامة العثمانية الإسلامية بهدنة رودس في ١٩١٨م. وقد غادر زعماء تركيا الفتاة البلاد، فقصد أحدهم «أنور باشا» روسيا، وقصد « طلعت باشا » ألمانيا، ولقد شاء الله أن يقتص منهم قصاصًا دنيويًا عاجلاً، فلم يلبث أنور باشا أن قتل اغتيالاً في تركستان، وأن يُصرع طلعت باشا في برلين، ويُغتال جمال في تفليس، أما الكاتبة خالدة أديب التي طال بها العمر فترة، فلم تلبث أن طردت شر طردة من تركيا بعد خلاف حاد بينها وبين الزعيم اليهودي الكبير مصطفى كمال أتاتورك.

---

(١)موسوعة ألف حدث إسلامي ، ص ٣٧٩، ٣٨٠ .

ولم تكد الحرب العالمية الأولى توشك على الانتهاء حتى كانت الدول الأوربية قد أتمت المسرحية الهزلية، لاقتسام أملاك الخلافة الإسلامية الأخيرة، ولإبراز رجل ينفذ مخططاتهم وأطماعهم بحذافيرها [١].

إلغاء الخلافة رسميًا وتولي اليهودي أتاتورك مقاليد الحكم :

كان إلغاء الخلافة الإسلامية وإعلان الجمهورية التركية في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٣م، وانتخاب مصطفى كمال أتاتورك من قبل جمعية لقبت نفسها « بالجمعية الوطنية »، إن هذا كله لم يكن يعني سقوط تركيا الإسلامية في الحقيقة، فكم من شعارات براقة زائفة ترفع ثم لا تلبث أن تزول.

لكن تمكن الأتاتوركي « الغازي » من السيطرة على البلاد، بمساعدة (الدول الحليفة لتركيا) كما يقول بروكلمان وأمثاله، ثم الاجراءات الخطيرة التي ذكرناها والتي اتخذها أتاتورك بعد ذلك.

هذه في الحقيقة كانت الإلغاء الحقيقي لتركيا الإسلامية وللخلافة العثمانية.

---

(١) وعلى الرغم من أن الكتابات الاستشراقية والكتابات الصليبية واليهودية والشيوعية تجمع على إخفاء هذه الحقيقة، فإن الأحداث بطبيعة تطورها تثبت هذه الحقيقة، ويكاد يصرح بهذه الحقيقة المستشرق «كارل بروكلمان» على الرغم من ذكائه الحاد في تطويع الحقائق، وبترها وإضفاء جو إنشائي حماسي عليها، نعم، يكاد يصرح بهذا في كتابه الشهير «تاريخ الشعوب الإسلامية ـ الدولة الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى» وهو يقول: «عند ذلك هيأت الدول الحليفة لتركيا ـ لاحظ الحليفة ـ الفرصة السانحة للرجل الذي قدر له أن ينشئ تركيا الحديثة ـ يقصد اليهودي الدونمي أتاتورك »، ولنا أن نتساءل : أي دول حليفة لتركيا تلك التي حولتها من زعيمة روحية ـ على الأقل ـ لربع البشرية إلى دولة هزيلة تعيش بلا ماض وبلا حاضر وبلا مستقبل ؟ وأي دول هذه التي ساعدت هذا اليهودي على إلغاء الحروف العربية، وإزالة الأوقاف، وإغلاق المساجد، وقصر علماء الدين على ثلاث مئة واعظ في طول البلاد وعرضها، وتحويل مسجد «أيا صوفيا» الشهير إلى متحف، ومسجد محمد الفاتح إلى مستودع، وإلغاء الشريعة الإسلامية، واستبدال القبعة بلباس الرأس الوطني السابق «الطربوش» وفرض اللباس الأوربي بالقوة،وحذف اللغة العربية واللغة الفارسية من مناهج التعليم بالمرة، وبيع الكتب والمخطوطات العربية بأبخس الأثمان، فضلاً عن التعليم العلماني الأوروبي، ليس في المجال التقني كما يجب أن يكون، بل ـ فقط ـ في المجال الإنساني والأدبي والديني !

ومع ذلك فلقد أدرك مصطفى كمال الدونمي اليهودي[١] أن البقاء الرمزي الصوري لهذه الحقيقة القوية العظيمة يشكل في حد ذاته خطرًا على مخططاته الصهيونية، ولذا فلم يكد يملك السلطة في يده ويتربع بتؤدة على عرش السيطرة لمدة خمسة أشهر، حتى أعلن إلغاء الخلافة الإسلامية، ثم طرد آخر خليفة للمسلمين من البلاد في اليوم الثالث من مارس سنة ١٩٢٤م[٢].

وفعلاً تداعت تركيا وسقطت، فلم تقم لها قائمة حتى اليوم ، وتداعى بعدها ومعها العالم الإسلامي بلدًا بلدًا، وفكت أواصر الحب والوحدة، ونال العرب حظهم من كل ما أصاب العالم الإسلامي، ولعل الأقدار قد لقنتهم أقسى الدروس، حين زرعت في قلوبهم شوكة الصهيونية. تؤرق مضجعهم، وتنتقم للخلافة الإسلامية وتطلعهم بجلاء على حقيقة كمال أتاتورك، وحقيقة مخططاته. وأيضًا على حقيقة الذين ساروا على هدي أتاتورك في فلسطين العربية وفق انقلابات يقف وراءها اليهود مستترين في كلمات الشيوعية أو الحرية أو « القومية » ؛ ليزرعوا في القلب العربي أشواكًا أخرى.

---

(١) السلطان عبدالحميد والخلافة الإسلامية، لأنور الجندي، ص ١١٥ وما بعدها.

(٢) ولعل العقلاء وحدهم هم الذين يسألون : ماذا استفادت تركيا من هذه الخطوة ؟ وماذا كان يمكن أن تكسب لو أنها مضت في طريق الإصلاح مبقية على مركزها كزعيمة روحية إذا كانت هناك نية إصلاح حقيقية ؟. ولعل هذا وذاك يفسران للعقلاء وحدهم أن هناك أمرًا كان مبيتًا، وأن العالم الإسلامي والعالم العربي كانا من الأهداف الرئيسية لضرب الخلافة الإسلامية، ولم تكن أبدًا تركيا هي المقصودة وحدها.

خاتمة

انتهت الأربعون الحدثية وما انتهت أحداث الأمة الإسلامية، فأحداث الأمة ـ نصرًا وهزيمة، علوًا وهبوطًا ـ هي دليل حيويتها وبقائها، فقد كتب الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهذه الأمة البقاء، فهي الأمة الخاتمة، الأمة التي عليها أن تخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، قد تمرض هذه الأمة، وقد يأتيها الوهن وقد تضعف، لكنها أبدًا لا تموت؛ فهي الأمة التي وهبها الله القرآن الكريم، ذلك المنهج الحيوي الصالح لكل زمان ومكان، نهضت الأمة وعلت رايتها وسُمعت كلمتُها يوم تمسكت بهذا المنهج، وجعلته هاديها ومرشدها وطرحت كل المناهج الأرضية والتي إن أصلحت مرة أساءت عشرة. ويوم أن صار القرآن في المرتبة العليا من الأمة علت ونهضت ، ويوم أن جعلته في المرتبة الدنيا تدنت وتخاذلت. ويوم أن كان القرآن هو المنهج كانت الاهتمامات تتجه نحو الفتوحات الإسلامية، نحو نشر الإسلام على كل المستويات، نحو دولة إسلامية قوية مترامية الأطراف متماسكة كتماسك جدار كبير صلب مرصوصة لبناتُه، فكانت انتصارات الأمة في معاركها الفاصلة على الرغم من قلة العُدد ونقص العدد لتؤكد حقيقة : ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾ [1].

ويوم أن تخلت الأمة عن القرآن تخلفت عن ركب الحضارة وعن الزعامة وضعفت اهتماماتها عن رد الظالم المعتدي، وعن فقه الصائل، وتحرير البلاد الإسلامية المغتصبة، وعن تحرير المقدسات الإسلامية التي تئن تحت وطأة الاحتلال الغاشم، فكانت الهزائم والانتكاسات على الرغم من توافر العدد وتوافر العُدد.

ورحم الله الإمام عليّ رضي الله عنه يوم قال : « إنما تنصرون على عدوكم بطاعتكم لله وبمعصية عدوكم لله، فإن تساويتم معهم في العصيان غلبوكم بكثرة العدد».

(١) آل عمران : ١٢٦ .

ويوم أن تعود الأمة لمنهج الله وتجعله قائدًا ودليلاً، حينها سيعود لها عزها ومجدها، ويومها ستطبق منهجها الحق؛ لأنه حق، والباطل ساعة مهما علا أو تعاظم، والحق إلى قيام الساعة وإن تخلى عنه أصحابه؛ لأنه حينها سيصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾[1].

نسأل الله تعالى أن يعيدنا إلى إسلامنا عودًا حميدًا، وأن يستعملنا في نصرة دينه، ولا يستبدلنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) محمد: ٣٨.

المصادر والمراجع

١. إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، للخضري.

٢. أساس البلاغة، للزمخشري.

٣. الاستيعاب، لابن عبد البر.

٤. الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، للصلابي.

٥. البداية والنهاية، لابن كثير.

٦. التاريخ الإسلامي ، لمحمود شاكر.

٧. الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، د. فايد حماد عاشور .

٨. الحروب الصليبية، د. علي حبيبة .

٩. الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحرب الصليبية، لجوناثان ويلي سميث، ترجمة: د.محمد فتحي الشاعر.

١٠. الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، د. قاسم عبده قاسم.

١١. الدولة العربية منذ العام الهجري الأول وحتى نهاية العصر العباسي الأول، محمد جمال سرور.

١٢. الرحيق المختوم ، للمباركفوري.

١٣. الروض الأنف، للسهيلي.

١٤. السلطان عبدالحميد والخلافة الإسلامية، أنور الجندي.

١٥. السيرة النبوية ، لابن كثير .

١٦. السيرة النبوية ، لابن هشام.

١٧. السيرة النبوية من فتح الباري، لمحمد الأمين المختار.

١٨. الشرق الإسلامي من الغزو المغولي إلى الفتح العثماني.
١٩. الشمائل المحمدية، للترمذي.
٢٠. الطبقات الكبرى، لابن سعد.
٢١. القدس تاريخ وحضارة، د. عبلة المهتدي الزبدة.
٢٢. المقدمة ، لابن خلدون.
٢٣. الموسوعة الإسلامية على موقع «إسلام أون لاين».
٢٤. تاريخ الإسلام، للذهبي.
٢٥. تاريخ الخلفاء ، للسيوطي.
٢٦. تاريخ الدولة العلية، لمحمد فريد وجدي.
٢٧. تاريخ الطبري.
٢٨. تاريخ الفلسفة، إميل برهييه .
٢٩. تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، د.فاروق عمر فوزي.
٣٠. تراث العصور الوسطى، ج.كرامب، إ.جاكوب، ترجمة د.إبراهيم العدوي.
٣١. دراسة لسقوط ثلاثين دولة، د. عبدالحليم عويس.
٣٢. دلائل النبوة، للبيهقي.
٣٣. دولة المماليك، تاريخ المغول والمماليك، أحمد عودان ورفاقه.
٣٤. زاد المعاد، لابن القيم.
٣٥. سبل الهدى والرشاد ، للصالحي.
٣٦. سير أعلام النبلاء، للذهبي.
٣٧. صبح الأعشى ، للقلقشندي.
٣٨. صحوة الرجل المريض والخلافة الإسلامية، لموفق بن المرجة.

٣٩. صفة الصفوة، لابن الجوزي.
٤٠. صلاح الدين الفارس المجاهد، شاكر مصطفى.
٤١. غزوة خيبر ونماذج من كيد اليهود، أحمد مصطفى الصغير.
٤٢. فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، د.محمد مصطفى صفوت.
٤٣. فتوح البلدان، للبلاذري.
٤٤. فتوح الشام، للأزدي.
٤٥. فصل الخطاب في سيرة عمر بن الخطاب، للصلابي.
٤٦. فقه السيرة ، للغزالي.
٤٧. فلسفة العصور الوسطى، د. عبدالرحمن بدوي.
٤٨. فلسطين في خمسة قرون، خليل عثامنة.
٤٩. مختصر تاريخ دمشق.
٥٠. موسوعة ألف حدث إسلامي، عبد الحكيم العفيفي.
٥١. موسوعة سفير.
٥٢. موقع المستوطنات اليهودية على شبكة الإنترنت، إياد محمد جابر.
٥٣. نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، لموسى بن محمد اليوسفي.
٥٤. نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري.
٥٥. وثائق الحروب الصليبية والغزو الصليبي للعالم الإسلامي، د. محمد ماهر حمادة.
٥٦. وفيات الأعيان ، لابن خلكان.
٥٧. هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، د. كامل عرسان.
٥٨. يوم القدس، لعبدالسلام العشري.

الفهرس

هــذا الكتـــاب

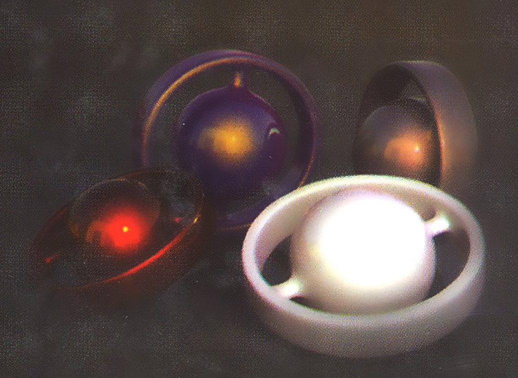
تاريخنا الإسلامي بشخصياته ودوله وقادته، بحرٌ لجي تعجز وريقات وإن بلغت من التصنيف الآلاف أن تلم بجوانبه، أو أن تقف على شُرفة من شُرفَاته.

وفي هذا الكتاب المسمى بـ « الأربعون الحدثية » حاولنا أن نجول في رحاب التاريخ الإسلامي منذ بعثة النبي ﷺ ، وحتى وقتنا المعاصر لنتعرف إلى أهم أحداثه، وأعظم قادته، مستخدمين المنهج التوفيقي الذي يعتمد على الاختيار والتوفيق بين أحداث تاريخنا الرائقة والفائقة والتي تستنهض همم العاملين في ساحة الدعوة، ولتكون كذلك إنذارًا حتى لانقع فيما وقع فيه سلفنا إن كان الحديث هو مقام هزيمة وصرعة.

فاحرص ــ أخي الكريم ــ على هذا الكتاب فإن فيه منفعة إن شاء الله.

والله ولي التوفيق .

المؤلــــف



هذا الكتاب

تاريخنا الإسلامي بشخصياته ودوله وقادته ، بحر لجي تعجز وريقات وإن بلغت من التصنيف الآلاف أن تلم بجوانبه ، أو أن تقف على شرفة من شرفاته .

وفى هذا الكتاب المسمى بـ (الأربعون الحدثية) حاولنا أن نجول في رحاب التاريخ الإسلامي منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وحتى وقتنا المعاصر لنتعرف على أهم أحداثه ، وأعظم قادته ، مستخدمين المنهج التوفيقي الذي يعتمد على الاختيار والتوفيق بين أحداث تاريخنا الرائقة والفائقة والتي تستنهض همم العاملين في ساحة الدعوة ، ولتكون كذلك إنذاراً حتى لا نقع فيما وقع فيه سلفنا إن كان الحديث هو مقام هزيمة وصرعة .

فاحرص - أخي الكريم - على هذا الكتاب فإن فيه منفعة إن شاء الله .

والله ولي التوفيق .

المؤلف



مؤسسة شروق للنشر والتوزيع
المنصورة - ش جيهان أمام مستشفى الطوارئ
تليفون وفاكس :٠٢٠٥٠٢٢٥٢٨٦٠
بريد اللكترونى : elshroq2006@yahoo.com